بشرى خلفان

دِلْشَاد

سيرة الدم والذهب

مكتبة ياسمين

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكاتب: بشرى خلفان

عنوان الكتاب: دِلْشَاد: سيرة الدم والذهب

لوحة الغلاف: الفنان/ أنور سونيا

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-37-7

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

إلى كل الجوعى:
ما الشبع إلّا وهم.

مكتبة ياسمين

نجمة الهند

حول رقبته الوسام بتيجانه وأفياله، وعلى صدره تتدلى صورة الإمبراطورة التي لا تغيب عن أراضيها الشمس، ولا يهتز عرشها المبسوط فوق مياه بحار العالم.

ثقيل كان الوسام وكأنه صنع ليحني رقبة لابسه، فيحول بينه وبين أن ينظر إلى وجه مدينته التي يأكلها الجوع والظلام.

سقطت الظلمة كثيفة على البحر، والقمر الذي كان يسعى إلى تمامه في أول الليل تلاشى، وترك البحر ساكنًا لا تحركه إلا ضربات المجاديف الرتيبة.

ارتدى فوق دشداشته عباءة من الصوف، إلا أنه شعر بنسائم الليل مثل شفرات سكاكين صغيرة، تطلقها مدافع القلاع الرابضة على جانبي مدخل مرفأ مسقط، فتستقر عميقًا في عظمه.

حاول إيقاف سيل أسئلة تجنبها طويلًا، أثراه كان تابعًا للتاج أم حاكمًا مستقلًا؟ وإن كان مستقلًا، فكيف لذلك المدعو بالأدميرال دوجلاس أن يهدده بقصف قصره ومدينته إن هو لم يستجب للأوامر، فيلغي اتفاقية وقعها مع الفرنسيين لمصنع فحم في بر الجصة، وإن كان تابعًا، فكيف يستقبله على سطح سفينته، ويحييه بديباجة الحكام والسلام العسكري وإطلاق رصاص التحية والترحيب؟

يضم قبضته، وكأنه يوشك على لكم أحد ما، هل كان فيجان أم كروزن من أراد لكمه؟

ترهقه حيرته وهو يتقصى منابع غضبه، هل كانت أحداث هذه الليلة حقًا؟ أم أنها أحداث توالت وتراكمت زمنًا طويلًا، علق فيها هو وأسلافه؟

هل كان فيجان وكروزن وميدي هم من جعلوه

مكتبة ياسمين

يلغي اتفاقه مع الفرنسيين، أم أنها المعاهدات القديمة، التي تسحب البلاد نحو القاع؟

يمضي به القارب مبتعدًا عن السفينة فينكس، وفي الأفق المظلم تبين أنوار خافتة لقصره، لكن هل هذا قصره فعلًا أم أنه يسكنه كواحد من الرعايا؟

ضم قبضته ثانية، وكأنه يهم بلكم أحد ما، لكن من تراه يلكم؟ مَنْ مِن الرجال الذين تتوالى صورهم أمام عينيه يستحقها أكثر؟ الإنجليز أم من وضعوا أختامهم على الاتفاقيات؟ ممن هو غاضب؟ أمِن الذين جلبتهم المراكب أم من رجال القبائل الذين لم يكفوا عن مهاجمته وخذلانه مرة بعد مرة؟ أم من حاشيته الخانعة التي يكسوها غبار الاتفاقيات التي وُقِّعت قهرًا؟

أحس بتشنج عضلات ساعده، ثم تذكر أنه لا يجدر به إشهار الغضب خارج أبواب قصره، هكذا تربى وهكذا تعلم في مجالس العلم والرجال، فأرخى قبضته، وعندما بدا وكأنه سيطر على غضبه وأسئلته، سمع إحدى وعشرين رصاصة تطلق كتحية عسكرية، سمعها تسري حادة في هدأة الليل، وأحس بالرصاصات تخترق ظهره وتستقر في قلب مسقط.

في اللحظة التي دوت فيها الرصاصات، سمِعت صرخة امرأة في حارة من حارات مسقط، لكن أحدًا لم يدوّن ذلك، لا في أرشيف مكتب شركة الهند ولا في مذكرات الرحالة أو الجواسيس، ولا حتى في أيٍّ من التدوينات التي كتبها القضاة وكتبة مسقط.

الأم وبعد أن نظرت إلى وجه الرضيع الملفوف في الخرق، تساءلت فيما إذا كان ابن ابن الحرام ابن حرام أيضًا، أم أنه طفل شرعي وإن انقطع النسب واختلط وغام؟

أسمته فرحان ليعاكس شؤم ولادته لأب قتله

مكتبة ياسمين

العطش، وهو يبحث عن حبله السري تحت سمرة في سيح المالح، وأهل مسقط أسموه دلشاد ليوثقوا ضحكات الجوع والقهر.

مريم دلشاد

«آستا... آستا».

سقطت عباءتي على كتفي فرفعتها، هرولت فاخترقت الغبار المتساقط من الأسقف والمتصاعد من أقدام العابرين، اختلطت دقات قلبي مع رنات سلاسل الحرز الذي كان يدق على صدري عند كل حركة فيوجعني.

شوشتني روائح السوق، الرز والطحين والتوابل وروث الدواب وتخمر الأجساد، سقطت غشاوة من العرق على عيني فلم أرَ إلا أطياف المارة الملتصقين بجدران الدكاكين والعتالين الذين ينخُون بضائعهم مفسحين لي الدرب وهم يطلبون مني الإبطاء «آستا.. آستا».

ناولني حسن صرة الشاش التي لف بها القماش الشنجهاغي الأخضر الذي طلبته خيرية زوجة حجي علي حسن لعرس ابنها إبراهيم، كنت أهم بمغادرة الدكان لكن حسن أشار تجاه عسكري الوالي الواقف عند أول الزقاق ينكش بضاعة خوجة أحمد بطرف عصاه «هذا خميس سنورة صح؟»

«هوه.. بس يتشيطن على الناس في السوق».

غمزت لحسن وأنا أمسك بكبة كنت أتسلى بصنعها من بقايا الأقمشة ومشيت نحو العسكري وألقيتها عند قدميه، فقفز وصرخ وصار ينط في مكانه وكأن ألف عفريت تلبّسه.

أكملت سيري وكأنه لا دخل لي بهيجان العسكري عندما ظن الكبة سنورة قفزت عليه من مكان ما، لكن خلف غشوتي كبرت ابتسامتي وبدأت أشعر بصعود الضحكة من بطني حتى رئتي.

كادت الضحكة تنفجر وتفضحني في السوق،

مكتبة ياسمين

لولا أن طيفًا نحيلًا مرق أمامي في مجرى السوق فشغلني، تلاشت ضحكتي وما عاد صوت زعيق العسكري وسبابه يصلني.

كان هو...

حثثت خطواتي نحو مجرى السوق، كان للحظة أمامي، أدار وجهه ناحيتي ثم ما لبث أن غاب في سكة من سكك السوق.

كان هو، أعرفه من نحوله وانحناءة كتفه جهة اليمين عندما يمشي، أعرفه من جانب وجهه ومن ذاك التقوس الطفيف في ظهره.

كان هو، أنا أعرفه.

«آستا... آستا»

«كمو... كمو...»

«شوي... شوي»

صاح عليّ الباعة والعتالون والمارة كي أبطئ، لكني أسرعت في مجرى السوق غير مكترثة، دخلت سكة الظلام خلفه فلم أره، فتشت الدكاكين بعيني لكنه لم يكن في أيٍّ منها، أسرعت أكثر متجاهلة همهمات الرجال ولعناتهم.

خرجت من سكة فتلقفتني أخرى أضيق، شعرت بثقل الهواء الذي صار كأنه ستارة من جوخ أسدلت أمامي، مضيت فيه وهو يصدني، صرخت فحجب صوتي، فاندفعت بسرعة أكبر لأخرج إلى سوق التوابل. أعماني الضوء فأغمضت عيني للحظة ثم فتحتها، فعلت ذلك مرة أخرى علّي أراه، لكني لم أره.

وقفت حائرة أتلفت حولي، فحصت وجوه الرجال وعاينت من في الدكاكين وما فيها ولم أره. عدت إلى الركض تُجاه مجرى السوق، وعندما وصلت ما

مكتبة ياسمين

وجدت له أثرًا، حاولت التقاط أنفاسي وتفحصت وجوه المارة فربما توارى خلفها.

لم أجده، وكأن وجهه كان من غبار تلاشى في كثرة الوجوه.

عدت إلى دكاني وأنفاسي تتلاحق من الركض، وضعت كفي على صدري علّ وجيبه يهدأ، أمسكت بالحرز فربما إن كان فيه طلسم هدّأني.

هو دلشاد، لا أخطئه، جاء ليبحث عني.

دلشاد حي، دلشاد لا يموت ويترك مريم وحدها.

لا أعرف إن كان الركض أتعبني أم أن صدري أثقله الوجع، حدقت إلى أصابع قدمي المغبرة، فتذكرت الدرب من لوغان إلى بيت لوماه، عضضت على شفتي وأنا أراه يغيب في دروب ولجات، حتى غلب الألم دموعي.

سمعت صوت حسن وهو يمد يده بالصرة «هين سرتي بيبي مريم؟» تناولتها ولم أجبه، متى بدأ حسن يسميني البيبي؟ نظرت إلى وجه حسن طويلًا، هل فعلًا يشبهه؟ كيف لأحد أن يشبهه؟

كبر الفراغ في قلبي فأوجعني وأوجعتني خيبتي، خيبة من ظن أنه وجد ثم أدرك أنه ضيع ما وجد.

هل كنت أحلم؟ أكان كابوسًا؟ أركض في السوق من زقاق إلى آخر ولا أصل؟ سقطت عيني على قدميّ المغبرتين، قدميّ اللتين تركضان ولا تصلان إليه، شعرت بألم ركضهما الحافي، أين سقط نعلاي؟

أطلت النظر إليهما، تذكّرتُ لمّا كان حصى الوادي يحرق باطن قدمي فيقطر أبي الزيت في كفه ويدهنهما به، لم يكن الألم يزول مرة واحدة، بل يتلاشى مع الوقت وهو يغني لي ثم أتبعه في الغناء، من منا كان يغني للآخر؟

مكتبة ياسمين

خرجت من مجرى السوق لكني لم أستطع الكفَّ عن التلفت، وكأن الأمل الذي برق للحظة سيظل يخادعني وسأظل أطارده.

وصلت إلى بيت حجّي علي حسن، تلمست مطرقة الباب التي أحمتها الشمس، لسعت أصابعي فاسترددتها، رأيت باب بيت لوماه يفتح، ومامويزي تبتسم فينكشف فمها الأدرد، ثم وبحركة من رأسها تصرفه، التفتُّ فلم أر سوى ظهره، وصوتي يغيب وكأن ماموزيزي سرقته فلم أستطِع مناداته، ثم جرتني بذراعي فصرت أتبعها أينما ذهبت علّها تعيده إليّ.

طرقت الباب ثانية، سمعت خطوات الخادمة الصغيرة من وراء الباب «جاية.. جاية.. ما شي صبر؟ جاية»، فتحت الباب وتبسّمت بفم واسع تملؤه الأسنان الصغيرة، «قربي مريم، دخلي.. دخلي» لكني لم أدخل، سلمتها صرة الشاش عند الباب، وأمرتها أن تبلغ سلامي إلى سيدتها وغادرت.

أردت العودة إلى البيت فأخذت طريق السوق، مشيت فيه من أوله إلى آخره، تفحصت وجهي المكروب في وجوه أهله، جالت عيناي داخل دكاكين البانيان والعرب مرة أخرى لكني لم أجده.

لعله ما كان هو، ربما سهوت للحظة فخُيّل إليّ أنه هو، ربما تمنيت عودته فحضر طيفه ليشاكسني، ربما كان قرينه، يقال إن لكل شخص قرينًا، ما مويزي حكت لي، لكن ما بال قرينه غاب مع غيابه وما ظهر إلا الآن!

لا، كان هو، أنا أعرفه، لن تشكل عليّ هيأته، ثم إن قلبي هو الذي يعرف، وقلبي هو الذي ركض أمامي فتبعته.

ماذا سيقولون في السوق؟ مريم دلشاد جنّت؟ أم

مكتبة ياسمين

خلعت برقع الحيا فصارت تركض في أزقة السوق بين الرجال، تدافعهم ولا تكترث.

لكنه هو، أنا أعرفه، لقد عاد، وجاء ليبحث عني، وإلا ما حاجته إلى مطرح وهو الذي لا أذكر أني سمعته ينطق اسمها. لا بد أن أحدًا أخبره بأن عبد اللطيف مات وأني رحلت إلى مطرح، لكن من سيخبره عن مكاني وأنا هربت من دون أن أترك ورائي أثرًا، أتراه لقي ناصر بن صالح في سوق مسقط؟ لكن ناصر لم يعد من قطر، ولو أنه عاد لكان جاء لزيارتي أول وصوله، ثم كيف سيعرف أبي أن ناصر يعرفني؟ وكيف يعرف ناصر أن دلشاد أبي وهو لم يعرفني إلا زوجة لعبد اللطيف وأمًا لفريدة؟

عدت إلى البيت فوجدت حسن متكئًا على جدار البيت، وما إن رآني حتى تقدم مني خطوة فرفعت غشوتي.

بيبي مريم...

ما كانت بي طاقة على الكلام، فتحت باب البيت ودخلت، سمعت أصوات فريدة والفتيات وهن يهبطن من السطح مرددات وراءها: قل هو الله أحد.

دلشاد

طلبت من سنجور جمعة أن يحسب لي عمر مريم وابنتها، كم عامًا مر مذ تركتها في بيت لوماه وسافرت إلى الهند، فقال إنها ربما قاربت الثلاثين، وأن ابنتها ربما صارت عروسًا.

أغمضت عيني فرأيت مريم عروسًا لكني ما استطعت رؤية ابنتها إلا طفلة تناغيها في حضنها كما كانت تُناغى هي في حضن ما حليمة.

أتشبه الطفلة مريم أم تشبه بيت لوماه؟ لم أر أحدًا من بيت لوماه إلا ما مويزي، وهي خادمتهم، فكيف سأعرف عندما ألاقيها إن شابهت أباها؟ لكني سأعرفها بالتأكيد إن شابهت مريم ولو لاقيتها بين ألف وجه.

قالت ماه حليمة وأنا أرجوها لتخطب لي نورجهان «نورجهان بياضها كما الحليب، وعيونها كما عيون بقر البانيان، مكحلة، وثمها كما فغوة الورد، نورجهان ما تريد دلشاد»، ضحكت عندما تخيلت بقرة البانيان وأنا نائم عندها في الحوش، ضحكت وتقلبت على التراب عند قدمي مَاه حليمة طويلًا «مَاه حليمة، أنت خطبيها، يمكن نورجهان تريد دلشاد».

أخذت مريم كل شيء عن أمها، ولم تأخذ مني شيئًا سوى ضحكتي، هل ما زالت تضحك؟ هل ورثت ابنتها الضحكة أم ورثت قسوة بيت لوماه وأبواب وجوههم المغلقة؟

قال سنجور جمعة إنه لا يعرف أين ذهبت مريم وابنتها، لكنه لاقى أحد خدم بيت لوماه وقد أصبح مقهويًا في السوق وأخبره بأن مريم أخذت ابنتها وهربت، إلا أن أحدًا لا يعرف إلى أين هربت، وأن سيدته فردوس أخت عبد اللطيف لوماه، غضبت

مكتبة ياسمين

وارتفع صراخها وصارت مثل الثور عندما يهيج، تضرب وتكسر كل شيء في طريقها.

قال با سنجور إن سخي قال إن ما مويزي مرضت بعد صفعة فردوس، إلا أنها لم تستطع البقاء خلفها في مسقط، فماتت على الدرب ودفنت في مقبرة على أطراف بركاء.

يثرثر با سنجور، أنا همي مريم وهو يخبرني أين دفنت العجوز، أسأله عن ابنتي فيخبرني عن فردوس، ما همي بهم! سامحني الله، لكني لا تشغلني ما مويزي ولا فردوس، اللعنة عليهم جميعًا وهو معهم.

سألته ثانية، عله سمع خبرًا من هنا أو هناك، لكنه كرر قصة النبي موسى وأمه وأخته والماء الذي حمله. قال إن الله سيرد إلي مريم وابنتها كما رد موسى إلى أمه ويوسف إلى أبيه، يا رب.

مريم لا تعرف مكانًا غير مسقط، فهل اختبأت في بيت قريب أو حارة من الحارات؟ ربما لن تخرج إلا إن سمعت صوتي وعرفت أني عدت وسأحميها منهم، نعم سأحميها منهم، بالتأكيد سأفعل، أم أنها غاضبة وستهرب مني كما هربت؟

لا، مريم لا تغضب من دلشاد، مريم تعرف أباها، هي تشتاقني كما أشتاقها، وستفرح وإن غضبت سأصالحها بأساور الزجاج.

ستعجب الأساور مريم، كلها ستعجب مريم، الحمراء والخضراء والصفراء، أنا أعرفها، ستلبسها وسترقص وستلمع في عين الشمس.

خرجت من لوغان وطرقت أبواب البيوت من حارة الشيخ حتى حارة العجم وصعدت حتى التكيه، سألتهم إن رأوا صبية تحمل طفلة.

مكتبة ياسمين

صعدت عقبة جبل السعالي ثم هبطت إلى سداب، ومشيت حتى حرامل والبستان، لكن أحدًا لم ير مريم، أصفها فتغلق النساء أبوابهن في وجهي ويشتمني بعضهن.

سألت الرجال في السوق عن عبد اللطيف لوماه، ينكره بعضهم ويعرفه بعضهم الاخر، فيدلونني على دكان البانياني الذي اشترى الدكان والبيت من ديّانته، أسأله عن مريم وابنتها فينكر أنه يعرفهما.

سألت الصيادين عند الفرضة، فأخبروني بأنهم لا يذكرونها، لكنها إن ركبت أحد زوارقهم فلن تصل شرقًا أبعد من يتي أو السيفه أو قريات ولو ذهبت غربًا فإما أن تهبط في مطرح أو عينت أو دارسيت الساحل.

أخبرت سنجور جمعة بما قال الصيادون، فأغمض عينيه، حتى ظننته مات وكدت أستغيث بابنه أو أحد أحفاده، لكنه عاد وفتحهما «شلها الماء وبيرجعها الماء»، تركت با سنجور يهرف وخرجت إلى الخيمة التي وضعت فيها صندوق سفري.

تأكدت من سلامة أساور مريم، ثم عدت فلففتها بطيات الأقمشة، ودسستها في بطن الصندوق، وضعت ما تبقى لديّ من القروش في حزام الجلد الذي أربط به إزاري، وخرجت من لوغان قبل الفجر.

«هين ساير في هذي الظلمة؟».

أسمع صوت ما حليمة، أريد أن أجاوبها «سراجي في يميني»، لكن الكلام ينحبس، أتلفت، لا أحد...

«انتبه، لا تطفي سراجك ولا تمشي كما المغايبة بين البيوت».

تلفت ثانية، لا أحد، استغفرت الله ثلاثًا، وبصقت في وجه عدو الله إبليس ثلاثًا، حتى سكنت رجفة

مكتبة ياسمين

قلبي.

ربما كان عليّ أن أنتظر الفجر ولا أسري هكذا كما المغايبة العائدين من الموت، لكن مطرح بعيدة ومريم تنتظرني ولا بد أن أبحث عنها من أول الصباح حتى أعود بها إلى لوغان قبل المغيب فلا تخيفها الظلمة.

أغادر لوغان، أمشي خائفًا أن ألقى أحدًا من عسكر السيد عند الباب الكبير، لست ذاهبًا إلى تلك الناحية، لكن من يدري، ربما صادفت أحدهم في الظلام، بيده قبّ يحط به على رأسي فيشجه، أو يأخذني إلى البرزة فيلقي بي السيد في الحبس.

سمعت نباح الكلاب وكأنه يأتي من الوادي الكبير، خرجت من خلالوه وأسرعت لأقترب من الصبارة، كلما أسرعت في المشي ضيعتني الكلاب.

أأتجنب الخيام وأمشي على أطراف الحارة كي لا يشعر بي أحد، أم أجازف بالمشي بينها حتى لا تستفرد بي الكلاب إن هاجمتني؟ اخترت أن أمشي بين الخيام، خطوت بحذر، خوف أن يستيقظ أحد فيظنني لصًا.

أضاء السراج طريقي من الصبارة حتى الدلاليل، مشيت بمحاذاة مستشفى الميشن، فسمعت أنين المرضى، تذكرت تلك الأيام التي قضيتها فيه، جائعًا وأعمى، أتلوى على الأرض من فقد ابنتي.

تجاوزت المستشفى ومضيت يسارًا حتى الجفينة التي تتكدس فيها البريستات والخيام، انتصب الجبل أمامي، عرفت ذلك من دون أن أراه، فرفعت سراجي وتبينت الدرب الذي مهده رجال لوغان، وحارة الشيخ والجفينة، كي يستطيع السركال والإنجليز الوصول إلى مطرح وبيت الفلج بسياراتهم.

مكتبة ياسمين

أصابتني وحشة الجبال برجفة، وكلما نعقت بومة سمعت قلبي يدق في أذني، وكأن كل صوت هنا يصير ألف صوت.

وصلت أعلى عقبة ريام، فرفعت سراجي فوق رأسي لأتبين حافة الدرب حتى لا أهوي، التصقت بالجبل، تحسسته وأنا أهبط. نار السراج لا تكفي لتضيء أبعد من خطوتي.

مشيت حتى استوى الدرب تحت قدمي فعرفت أني وصلت أسفل الجبل، لكن قلبي كان قد بلغ فمي، حتى شعرت بأنه سيندفع خارجًا ويهرب مني.

توقفت لأستريح قليلًا وأستعيد أنفاسي التي تقطعت، لكني سمعت صوت كلاب، هل هي تلك الكلاب؟ هل عادت لتلاحقني ثانية؟

أسرعت خطوتي، ثم بعد قليل تبينت أشباح بيوت ريام وعششها، مشيت بينها، سمعت أصوات تململ النيام في فرشهم، فخففت سيري كي لا أوقظ أحدًا.

خرجت من الحارة، فأصخت السمع للبحر كما خبرني نوح، مشيت نحو الصوت حتى سمعت ارتطام الموج بالصخر ولحقني من رذاذه القليل، هناك وجدت طريقا محاذيا للجبل فسرت ملتصقا بصخوره خوف أن تزل قدمي وأسقط في البحر.

كنت قد قطعت نصف الدرب عندما سمعت لهاثًا ورائي، توقفت فتوقف، وربما كان ينتظر أن ألتفت، وأنا فعلت، رأيت عينين تشعان في الظلمة كجمرتين، ثم بدأ بالنباح فردت عليه كلاب أخرى، بدت بعيدة لكنها ما لبثت أن ظهرت من الظلمة واصطفت معه.

تراجعت بظهري وتقدمت هي، تلفّتُ حولي، هوشتها بالسراج ثم ألقيته عليها فتفرقت واندفعت أنا إلى البحر فدخلته، سمعت نباحها وهي تركض

مكتبة ياسمين

خلفي، دخل أحدها البحر وسبح ورائي ثم عاد إلى الشاطئ، التفت فرأيته واقفًا مع الكلاب عند الجبل ينفض الماء عن جسمه وينتظرني.

ابتعدت عن اليابسة أكثر فوصل الماء إلى صدري، ثم إلى كتفي، سمعت نباح الكلاب من بعيد لكني لم أرها. حركني البحر، فتمايلت قليلًا لكنّ قدميّ كانتا ثابتتين على صخور القاع، ثم فجأة جاءت موجة فطوحت بي، شعرت بالماء يجذبني إلى القاع، حركت ذراعيّ وساقيّ علّي أفلت منه، لكنه سحبني.

فتحت عيني في الماء فحرقني، أغمضتهما فغشاني الظلام، شعرت بصدري ضيقًا يطلب الهواء، فحركت ذراعيّ وساقيّ بقوة كما رأيت البحارة يفعلون إذا ما سقطوا في البحر، لكن الماء كان كمن يمسك بساقي ويمنعني من الصعود، ثم فجأة اندفع الماء من أسفل وقذف بي إلى السطح.

شهقت، سحبت الهواء إلى رئتيّ اللتين كادتا تنفجران، شهقة ثم أخرى، ثم درت حول نفسي أبحث عن الكلاب، وعندما لم أجدها ظننت أني نجوت، لكن ذراعيّ وساقيّ ثقلتا من التعب، وكلّت عيناي فما عدت أفرق بين البحر واليابسة.

لا أعرف كيف نمت في الماء لكني استسلمت لتعبي، وأظن أن الماء حملني على وجهه ومضى بي، حتى سمعت صوت شيء يقترب، أردت أن أستيقظ لكني ما قدرت.

صوت خبطات المجداف صارت تقترب فأردت أن أصيح بصاحب الهوري أن يتوقف ويرفعني من الماء، لكنّ شفتيّ لم تتحركا، شعرت بضربة قوية على رأسي، فتحت عينيّ للحظة ثم أغمضتهما.

مكتبة ياسمين

حسن لبن

رفعت غشوتها فبان وجهها وقد احمر مثل نبق شنون السرسري.

«نبق البحر... نبق البحر» ...

مررت في طريقي بحارة الشمال على شنون في كمبار وهو ينادي على حبات حمراء بين يديه، يقربها من وجوه الصغار والكبار وينادي: «نبق البحر... نبق البحر.. الحبة ببيسة... الحبة ببيسة»، فتتبعها العيون وقد أعجبتهم حمرتها.

لكني سمعت بأذني هاتين أن البحر لا ينبت فيه النبق، والله سمعت ماستر علي يقول لماستر مصطفى إن البحر لا ينبت فيه شيء، لا نبق ولا غيره.

لكن ربما لم يسمع الناس ما سمعت، فتسابقت أيديهم إلى النبق تتلقفه من يدي شنون، وبدءوا يتشممونه، ثم كاد أحدهم يأخذ قضمة لولا أن شنون كان أسرع منه، فاختطف النبقة الكبيرة الحمراء من يديه، وفرك أصابعه طالبًا سعرها.

اشترى الناس الحبة ببيسة كاملة وأخذوها معهم إلى أطفالهم، وما اهتموا إن كان النبق نبت في البحر أم هبط من السماء. وما إن ذهب أكثر الناس حتى ظهر نظام رسلان فجأة، وأمسك برقبة شنون حتى احمر وجهه، ثم رفعه وأنزله على الأرض وشنون يرفس تحته والحبات الحمراء متناثرة على الأرض حولهما.

سمع الناس الصراخ فعادوا وتحلقوا حول الرجلين، أحدهما يرفس على الأرض والاخر فوقه يثبته قابضًا على عنقه، ويسأله: من أين سرقته؟ استغل الصبية الفرصة فصاروا يختلسون الحبات الواحدة

مكتبة ياسمين

تلو الأخرى، وشنون يقلب عينيه بين وجه نظام الغاضب وأكف الصبية، وأنا مثله حائر لا أعرف هل آخذ نصيبي من الحبات الحمراء أم أن نظام سيمسكني برقبتي ويسدحني إلى جانب شنون.

تدخل ماستر مصطفى بين الرجلين، فترك نظام رقبة شنون، لكن شنون بقي ممددًا على الأرض يتأوه، ثم قام ببطء يجمع ما نجا من الحبات.

كان نظام رسلان يعرف أن شنون لص، كلنا نعرف أن شنون لص، الكبار والصغار، التجار وعمالهم والعتالون والعسكر، كلهم كانوا يعرفون، لكنهم لم يهتموا بذلك، ما دام لا يمد يديه في جيبوهم ويختلس بيساتهم وقروشهم، أو يهجم على بيوتهم ودكاكينهم.

أما سرقاته من مخازن ودكاكين البانيان فلا تهمهم كثيرًا، وفي جلساتهم يتناقلون أخباره وحكاياته ويضحكون على نوادره التي يحكيها لأصحابه من السرسرية، لكن لا أظن أن واحدًا منا تخيل أنه سيتجرأ ويبيع ما يسرقه نهارًا في وسط السوق وأمام عسكر الوالي.

- ما سرقته... لقيته فخب السمن.

- لا تكذب... من متى خب السمن فيها شي غير السدر؟

«ما سرقته ولا قطفته، لقيته متناثر تحت سدرة النبق.

لو أنا سرقته بتلاقيني أبيعه وسط السوق؟! نص نهار؟ قدام الخلق!؟

هذا رزق وجاني، والله كاتب لكم تذوقوا نبق البحر، ما صح ماستر علي؟ ما صح ماستر مصطفى؟ هذا يسمى نبق البحر، خذ حبة، أقسم بالله من غير

مكتبة ياسمين

غوازي، أقسم بالله توخذ حبة.

أنا لقيته، والله العظيم، لقيته عند خب السمن، ما عرفت مو يسموه، دخلت به السوق وصادفت علي جولوه وقال لي إنه يسمى نبق البحر، أنا من هين أعرف مو يطلع في البحر؟ أنا حتى ما أعرف أسبح، أنت تعرف تسبح، شفت في البحر نبق؟ شفته قبل؟ يقول علي جولوه هذا نبق البحر وأنا صدقته وقلت نبق البحر كما قال».

رفع نظام رأسه بحثًا عن ماستر علي وماستر مصطفى، لكنّ الرجلين كانا قد انسحبا، تاركين السوق لأهله.

«يعني أنت لقيته تحت السدرة؟»

«أنا لقيته تحت السدرة، ما أعرفه طاح من السماء ولا جا من البحر، جولوه قال نبق البحر وأنا قلت كماه.»

توسل شنون طويلًا واستشهد بالناس الذين لم يعرفوا بما يشهدون فتراجعوا إلى الوراء، وحلف بالله وبرأس النبي محمد وقبر السيد في جبروه إنه ما سرق شيئًا من أحد، قام نظام فقام شنون، وناوله حبة حمراء فردها ومشى مبتعدًا.

تناول شنون سكينه وصار يقطعها، ويعطي أطفال السوق كل واحد منهم فصًا، وهو يضحك وهم يضحكون، سال ريقي واقتربت منه، علّه ينتبه لي فيعطيني مثلهم فصًا، فصًا ولو صغيرًا، لكن شنون لم يلتفت إليّ، ولم يبال بيدي الممدودة نحوه وأنا لم أكن أملك بيسة في جيبي.

تركت السوق وذهبت إلى بيت البيبي في حارة الشمال، أستفهم منها عما حدث في السوق، لكن بيبي مريم بدت متعبة، وصرفتني من دون أن تخبرني بشيء.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

عدت من بوشهر فوجدت أمي قد خطبت لي كريمة بنت خالي محسن، فلم أعترض، لكني لا أتذكر أني رأيت كريمة قبل ليلة زفافنا، وما أعرف عنها شيئًا إلا ما وصفته لي أمي.

عندما دخلت عليها الصفة ليلة زفافنا رأيتها متروكة تحت كومة من الأغطية، فنزعتها الواحد تلو الآخر حتى وجدتها، جسدًا ضئيلًا يرتجف.

كشفت عن وجهها، ومسحت على خدها، علّ رجفتها تخف، رفعت عينيها نحوي، عينين كبيرتين بلون الشجر كما قالت أمي، كبيرتين حتى كادتا تغطيان وجهها النحيل.

رفعت الشال الذي كان يغطي رأسها، ولمست أذنيها الصغيرتين اللتين كادت شحمتاهما تنشقان من ثقل الحلق، لولا أنه رفع بخيط ثُبتَ أعلى رأسها، لمست شفتيها المرتجفتين فعضت عليهما.

خلعت عنها غطاء شعرها وخللت أصابعي في ضفيرتها فانفكت وتساقط شعرها كثيفًا حتى كاد يغطيها، أردت أن أقربها وآخذ شفتيها، لكن عينيها صرختا قبل فمها وارتدت بقوة إلى الوراء فتراجعت.

تركتها في مكانها وخرجت إلى الحوش، حيث وجدت أمي جالسة إلى جانب زوجة خالي، وقد وضعتا قصبتي الجدو بين شفتيهما وتنفخان الدخان في الهواء، انتحيت بأمي جانبًا:

- كريمة طفلة.

- أمها تقول إنها حاضت من سنة أو سنتين، ما تصغرك بأكثر من خمس أو ست سنين.

- أنا بعدني ما وصلت الثمنتعشر، ست سنين واجد.

- البنت تتربى في فراش زوجها.

مكتبة ياسمين

- البنية ما فيها حتى لحم.

- تسمن في بيتك.

عدت إلى الصفة فوجدتها قد تكومت على نفسها ونامت، ما طاوعتني نفسي فتركتها على حالها، وفي الصباح قمت فوجدت خادمة أمها تنتظر عند الباب حاملة صينية عليها أكل، تناولتها منها لكنها لم تتحرك.

قالت أمي إنها تنتظر الشارة. شارة ماذا؟ شارة الدم. أي دم؟ دم العروس، لا يجب أن تخرج خرقة العروس بيضاء.

كانت كريمة نائمة عندما خرجت، لكنها استيقظت فزعة عندما أغلقت الباب ورائي، ورفعت وجهًا اختلط فيه الكحل بالدمع.

وضعت الصينية على الأرض وحاولت تهدئتها، وعندما هدأت قليلًا فتشت الفراش بحثًا عن الخرقة البيضاء حتى وجدتها، سألتها إن كانت تعرف ما هذا، فهزت رأسها نافية.

خرجت من الصفة وطردت الخادمة، جاءت أمي بعد قليل وقالت إنه لا يجوز، سيقول الناس إني ما وجدت كريمة بنتًا، وإن زوجة خالي ستفضحنا في مطرح، ستقول إني عجزت، وإني لست معدودًا في الرجال، سيتغامز الرجال عليّ في مجالسهم وسيضحك عليّ الصبية، ويتعدى عليّ مجانين السوق بالكلام وربما رجموني بالحصى.

لم أرد على ما قالته أمي لكني حلفت إن رأيت الخادمة ثانية لأقتلنها، دخلت الغرفة ووقفت أنظر إلى كريمة وقد عادت إليها الرجفة.

تذكرت الطفلة التي لمحتها أول وصولي إلى ميناء بوشهر، لا أعرف كم كان عمرها، لكن جسدها

مكتبة ياسمين

كان ضئيلًا مثل جسد كريمة، وكان هناك رجلان يسحبانها ويجبرانها على الصعود إلى السفينة، كانت تقاومهما، صارخة بكلمات ما وصلني منها إلا القليل.

التفت إلى عمي، مظفر وظافر، اللذين جاءا لملاقاتي في الميناء، حاولت لفت انتباههما إليها، علّهما يهبان لنجدتها، لكنهما لم يلتفتا، بل أشارا علي بإكمال الطريق فمشيت بينهما، وبين الفينة والفينة كنت أتلفت إلى الوراء كي أعرف ما الذي حدث لتلك الفتاة، لماذا كانت تصرخ ولماذا كانوا يسحبونها؟

عندما وصلنا إلى بيت عمي ظافر سألته عن الفتاة والسفينة والرجلين، فقال إن علينا ألا نتدخل في شؤون الآخرين، ثم همس لي بأن السفينة كانت لحاكم بوشهر، وأن الفتاة بضاعة من ضمن البضائع التي تُحمّل بها السفينة.

لم أفهم كيف تكون الفتاة بضاعة، فشرح لي أن سفن الحاكم تنقل من ضمن ما تنقله إلى الضفة الأخرى من البحر الفتيات والصبية الصغار، الذين سيخدمون في قصور الشيوخ والسلاطين.

سألته عن أهلها، فرد عمي مظفر «لا يهم من يكونون أهلها، فربما سرقها بعض اللصوص أو باعها أهلها من شدة الفقر».

نظرت إلى وجه كريمة وشعرت بالرغبة في الهرب، فتركتها مغمضة العينين في الفراش وخرجت.

لاقتني زوجة خالي في الحوش وسألتني عن الشارة، دخلت إلى الغرفة وسألت كريمة عن الخرقة البيضاء فأخرجتها من تحتها وناولتني إياها.

عدت إلى زوجة خالي بالخرقة، فحصتها وعندما لم تجد الشارة التي كانت تنتظرها صكت وجهها، ثم رفعت عينيها المرعوبتين في سؤال تجاهلت

مكتبة ياسمين

الإجابة عنه.

نقلت عروسي إلى بيتنا في كهبن، لكن خادمة بيت خالي ظلت تأتي كل صباح، وأمي تردها من عند الباب ثم تعود في المساء فتفرش الخرقة على فراشنا.

في الليلة السابعة لزفافنا دخلت الصفة واقتربت من كريمة، فاستدارت وتلاقت أعيننا، ظننت أني رأيت القبول في عينيها فاقتربت، لكنها ما لبثت أن تكومت في طرف الفراش، فظننته كما قالت أمي حياء العروس فدنوت.

اقتربت منها فصارت ترفس بساقيها النحيلتين، لكني ما كنت قادرا على جمح نفسي أكثر، فأمسكت بهما وسحبتها نحوي ووضعت أصبعي على شفتي كي أنبهها فلا تحدث صوتًا، فهزت رأسها بذعر وأغمضت عينيها وعضت بأسنانها على شفتيها.

عندما هدأت فورتي وتداركت نفسي، كانت قد توقفت عن الصراخ، فانقلبت على جانبي ونمت، لا أعرف كم نمت لكن عندما فتحت عيني وجدتني أقبض على الخرقة بيدي. جلست على طرف السرير موليًا ظهري لها، ثم قربت الخرقة من عيني وفحصتها، كانت الخرقة بيضاء، فقمت ودنوت من النافذة ففتحتها وفحصت الخرقة ثانية في ضوء النهار.

الخرقة بيضاء، بلا نقطة دم واحدة.

احترت في تفسير معنى ذلك، هل تم الأمر أم لم يتم؟ هل غياب الدم شارة علي أم عليها؟ شعرت بالغضب وما عرفت إن كنت غضبت منها أم مني، لكن ما أن سمعت صوت أنينها الواهن، حتى اقتربت من الفراش ثانية فوجدتها مغمضة العينين، ترتجف وقد ضمت رجليها إلى صدرها، وجهها مغطى بالعرق

مكتبة ياسمين

وشفتاها ترتجفان وكأنها محمومة، دنوت منها فرأيت تحتها بقعة دم.

خرجت لأوقظ أمي التي كانت ما زالت نائمة في الليوان، حاولت أن أقول شيئا لكن الكلام لم يخرج من فمي فاكتفيت بالإشارة إلى صفتنا، عند الباب أشرت إلى كريمة والفراش، فأغلقت الباب وراءها وتركتني في الخارج، ولم تفتحه إلا بعد مدة وقد لملمت الشرشف وخرجت به ومنعتني من الدخول.

قبل الضحى جاءت خادمة بيت خالي، فأرسلت أمي الشرشف معها، لكن دم كريمة لم يتوقف، حتى اضطرت أمي إلى إرسال نوران إلى القابلة، التي جاءت وعالجتها، ثم ولأيام تعاونت أمي ونوران على العناية بها، وعندما توقف دمها واستطاعت الجلوس، سمحت لي أمي بالدخول عليها ثانية، حينها رأيت في عينيها فزعًا لم أرَه في عين أحد من قبل.

ثم ما لبث فزعها أن انتقل إلى قلبي فلم أقترب منها، ولم أجرؤ على النظر في وجهها ثانية.

حزمت ثيابي وغادرت إلى بيت الفلج، قضيت أسبوعًا هناك، ثم نُقلت إلى مسقط وصرت من ضمن حامية قلعة الميراني، وهناك قضيت شهرين في حراسة بيت العلم والبرزة، ثم نقلنا ثانية إلى بيت الفلج وأصبحت جنديا في كتيبة مسقط.

بعد مرور شهرين أُعطينا رخصة للعودة إلى بيوتنا، كنت مشتاقًا وكان طيف كريمة يلح عليَ، ثم خطر لي أنها ربما حملت في تلك الليلة، لكن هل كان ذلك ممكنًا من مرة واحدة، ومع كل ذلك الدم الذي أغرق الفراش.

تمنيت أن تحمل كريمة وأن يكون لي ولد منها، ثم تذكرت الرعب في عينيها، فلمت نفسي على ما

مكتبة ياسمين

فعلت، لكني فعلت ما يجب أن يفعل، هكذا قالت أمي، ستكون كريمة على ما يرام، أمي قالت إن هذا يحدث مع كل الفتيات عند زفافهن.

إن كانت حاملًا فلا بد أنها صارت في شهرها الرابع الآن، وربما امتلأت قليلًا وانتفخ بطنها، تخيلتها كذلك ثم تخيلت طفلنا الباكي في أقمطته.

لن أبقى معهم طويلًا، سأكون مثل أبي، هذا قدر العسكر، نحضر أياما بين أهلنا ثم نغيب شهورًا في المعسكر، وهكذا ستكون حياتي، أرحل ثم أعود، أجد طفلا جديدا على الأرض، ألاعبه حتى يكبر فأعلمه كيف يمسك بسيف من خشب وأقاتله، ثم سأترك بذرة جديدة في رحم كريمة وأعود ثانية إلى المعسكر.

أعطينا إجازة مدة أسبوع، فعدت متلهفًا إلى مطرح، لكن عندما فتحت أمي الباب، لم أجد في وجهها أثرا للفرح الذي كانت تستقبلني به في العادة.

توجهت إلى صفتي أريد أن ألقى كريمة، لكنها منعتني وجرتني بذراعي وأجلستني جوارها على الحصير، ثم أخبرتني أنها أرسلت لي من يبلغني بوجوب عودتي إلى مطرح لكنهم لم يجدوني في بيت الفلج.

أخبرتني بأن الدم عاد إلى كريمة ثانية بعد رحيلي بأسبوع، وأنها ظنته في البداية دم النساء المعتاد، لكن الدم لم يتوقف، وظلت كريمة تنزف لأسابيع من دون أن تستطيع هي والقابلة أن توقفانه.

قالت أمي إنها لا تعرف ما المرض الذي أصاب كريمة، لكن عندما غسلنها، لم تكن أكثر من حفنة عظام، وإن شعرها الذي كان يغطيها ما بقي منه إلا نسالات لا تكاد تغطي رأسها. رددت أمي أكثر من

مكتبة ياسمين

مرة «الموت حق» وكأنها تواسيني، لكن ما إن رفعت عينيّ والتقتا بعيني نوران حتى فجعت بنظرتها التي كانت كأنها سهام مصوبة.

خرجت لا أعرف إلى أين أذهب، الناس يلقونني في دروب مطرح فيعزونني، أقف فلا أفهم ما يقولون ولا تلك النظرات في أعينهم، أكانوا يعزونني أم يلومونني؟

وصلت عند بيت خالي محسن، طرقت الباب بقوة، فتحه أحمد أصغر أولاده، ثم هرع إلى الداخل لينادي أباه الذي تبعه مسرعًا، أردت أن أقول له إنني السبب، إنني قتلت ابنته باندفاعي وغلظتي وأن يقتص مني، لكنه بادرني وعزاني وأدخلني الحوش، وجلس يقول كلامًا متداخلًا عن العرس والموت والمهر والقدر، شعرت بأنه كان يعتذر لي، كيف يعتذر صاحب الدم إلى من سفك دمه؟

أردت أن أقاطعه وأقول إني أنا من قتل كريمة، لكنه ظل يردد «سامحني، كانت ضعيفة حال، لكن الموت حق...»، وما منحني فرصة لأقول ما في نفسي علّني أستريح.

قمت من دون أن أقول كلمة واحدة، تركته جالسًا في مكانه واتجهت إلى الباب، وقبل أن أغادره التفتُّ فوجدته ما زال في مكانه منكس الرأس، فشعرت بأني أبغض هذا الرجل بغضًا لا يفوقه إلا بغضي لنفسي لحظتها.

لم أحتمل البقاء في مطرح بعدها فعدت إلى المعسكر، وصرت أرفض الرخص، أبقى لأعمل بدل عشرة من الجند، وعندما يرحل الجنود ليزوروا أهلهم أبقى خلفهم، أنظف العنابر وأزيت البنادق وأخرج في دوريات لأمشط المنطقة، حتى أصل إلى روي والوطية.

مكتبة ياسمين

كنت أرسل معاشي إلى أمي مع عبد الرحيم، وكان يعود محمّلًا بالرسائل

«قوله يرجع، الله يعوضه بدل الحرمة بحرمة».

أشيح بوجهي عن عبد الرحيم ورسائل أمي...

«يا نظام، ترا أجل الله واصل، وما حد يقدر يعترض».

كيف لي أن أخبر عبد الرحيم بما فعلت!

بعد سنتين صرت أعود إلى مطرح في زيارات قصيرة، أدبر فيها معيشة أمي ونوران وأطمئن عليهما ثم أعود إلى بيت الفلج.

كنت أشعر بالغضب يأكلني، لكني ما ظننت أن الآخرين كانوا يشعرون به حتى قال سالم نصير «نارك أشد من نار تنور عوض، خف على عمرك».

قالت أمي إن ناري لن تهدأ إلا بامرأة أخرى، وأنا ما عادت لي رغبة في امرأة ولا في ولد.

صار الناس يتجنبوني في مطرح، وإن مررت في السوق أوسعوا لي، حتى إني عندما أمسكت بشنون السرسري يبيع التفاح في وسط كهبن ابتعدوا عني، ولم يشهد أحد له أو عليه، فتركته.

كنت أشعر بخوفهم، كنت أشمه، نعم، أنكرته في البداية لكنه صار مع الوقت يعجبني.

مكتبة ياسمين

شنون السرسري

لن يلحظ أحد اختفاء الحبات الحمراء إلا بعد أن يتفقد طباخو المعسكر شحنتهم، ولن يخطر في بالهم أن لصًا من لصوص مطرح تجرأ وسرق شحنة الإنجليز، وحتى إن خطر لهم ذلك، فمن منهم سيجرؤ على إبلاغ العسكر والمخاطرة بعدم اتهامه بأنه هو من خبأ الصندوق وربما أكل ما فيه أو صرَفه.

أما أنا فوالله، ما كنت لأفعلها لولا أن شيطانًا رجيمًا يسكنني وينشط في كل مرة أصادف فيها البدفورد وما تحمله واقفة أمام دروازة مطرح، فمرة أختلس علبة فاكهة مقطعة وغارقة في عصيرها، ومرة علبة فاصوليا حمراء ومرة بطانية من بطانيات الجيش، أحشرها داخل زكيبة تعودت أن أضع فيها حاجياتي القليلة وما تستله يدي وأنا أسير في أزقة السوق.

لا أبيع هذه الطرف في العادة ولا أقايض بها، بل أجعلها لي وحدي، ولا أعتبرها سرقات، بل لُقًى صغيرة تصادفني، حاجيات سها عنها صاحبها فسقطت، أآخذها لي ولا أبيعها. لكن الشيطان أغراني هذه المرة، وظننت أن بيع النبق الأحمر لن ينتبه له أحد، فأشجار النبق في مطرح كثيرة، كما أنه يجلب من مسقط ودارسيت وروي، صحيح أنه ليس بهذا الحجم أو هذه الحمرة، أو حتى بهذا الطعم والرائحة، نعم إنه يختلف لكنه يتشابه أيضا، كما وجوه أهل مطرح وقسوتهم.

كنت أمضي في السوق عندما صادفت ترمانداس صاحب دكان الصفاري والمحاميس، وقد التفّ في دوتيه الأبيض، الذي لا يعرف إلا الشيطان كيف يلبسه ويلفه على خاصرته، ويدخله ويخرجه من بين فخذيه حتى يصبح سروالًا وإزارًا في الوقت

مكتبة ياسمين

نفسه.

وقف ترمانداس يجادل عجوزًا من دارسيت على ثمن السمن، والعجوز تشوح بذراعيها رافضة، وهو يحاول دفع الروبية إليها، وعندما أصرت وغطت وجهها بوقايتها وأشاحت عنه، دس روبيته في جيبه وانصرف.

خطر لي أن أتبعه إلى دكانه ثم إذا ما غفل اختلست بعض الروبيات من جيبه، وعدت إلى المرأة أشتري منها السمن لأمي، سأنقدها أكثر مما كان سيعطيها البانيان، وستفرح أمي وربما لو كان لديها قليل من الطحين أعدت لي خبزًا وسكبت عليه قطرات من سمن العجوز.

هذا ما نويت عليه ذلك الصباح لكن ريحًا باردة هبت من ناحية البحر وكشفت غطاء ظهر شاحنة البدفورد المحملة على الأغلب من فرضة مسقط إلى المعسكر في بيت الفلج، فلاحت تحته حمرة سرقت عيني.

اقتربت منها، وعندما تأكدت من غفلة الحرس مددت يدي وخطفت حبة من النبق الأحمر الكبير، قربته من أنفي وشممته، أعجبتني رائحته، فاتكأت على جانب الشاحنة وصرت أستل من الصندوق الخشبي حبة وراء حبة، وأسقطها في فم زكيبتي المفتوح حتى ملأتها.

حملت غنيمتي على ظهري، ومشيت كما يمشي زلموك المجنون منحنيًا تحت ثقل زكائب لا يراها أحد غيره، حاذيت جدار مستشفى طومس، ثم ما إن صرت خلفه حتى استقمت، وخببت في المشي ناحية الجبل.

تحت سدرة النبق التي أتخذها بيتًا تساقطت الحبات الحمراء من الزكيبة وانتثرت من حولي،

مكتبة ياسمين

شممت واحدة منها، أعجبتني رائحتها الحلوة فقضمتها وسال ماؤها في فمي.

لم أعرف للنبق طعمًا مثل هذا من قبل، لكن من يدري ربما نبت في باغات مسقط نبق غير النبق في مطرح. أكلت حبتين بسرعة، فانتفخ بطني، ثم تبينت عطبًا في الثالثة ودودة تخرج منها، نزعت الدودة وأكملت الأكل، لكني عزمت على بيعه قبل أن يفسد كله أو يوجعني بطني.

قبيل الظهر ذهبت إلى السوق فناديت عليه، سمعت بعض التجار يتهامسون وهم يشيرون إلى نبقي ويقولون تفاح، وواحد منهم يقول هذا نبق البحر، لكن لم يسألني أحد من أين جلبته، إلا نظام رسلان الذي أقبل بغضبه عليّ وصار يكرر سؤاله مرة بعد مرة، من أين لك هذا التفاح؟

حلفت له أني لم أسرق شيئًا، وأن هذا النبق من سدرة خب السمن، لكنه أمسكني بصدارة دشداشتي، ثم رفعني وهوى بي على الأرض، وهو يقول كما قال التجار من قبل إنه تفاح. قلت له إني لم أرَ تفاحًا في حياتي ولم أسمع عنه، وإني وجدت النبق منتثرًا تحت السدرة الكبيرة. لم يبدُ لي أنه اقتنع بكلامي، مع ذلك تركني بعد أن انفض الجميع وذهبوا إلى أشغالهم وبيوتهم.

تناولت سكينًا من يد إحدى البائعات، وبدأت أقطع حبات التفاح المتبقية إلى فصوص، آكل بعضها وأوزع بعضها الاخر على الصغار، حتى ما تبقى معي إلا حبة واحدة، فخبأتها في جيب دشداشتي، وعدت فناولت السكين لصاحبتها، ومضيت إلى بيت أمي في الوشل.

رأيت خيطًا من الدخان الأسود يرتفع من داخل البيت فركضت وفتحت الباب قلقًا، لأجد أمي التي

مكتبة ياسمين

خرجت من عدتها على زوجها الخامس قبل أيام، قد أشعلت نارًا في وسط الحوش.

أهلث التراب على النار، ثم جلست إلى جانبها وناولتها التفاحة:

- ذوقي هذي الشجرة، يقولوا إنها تفاح، خذي ذوقيها.

قلبت أمي التفاحة بين يديها ودعكتها لتزيل ما علق بها من التراب، ثم قربتها من أنفها،

- من هين سرقته؟

- من بدفورد الإنجليز.

- حد شافك؟

- وإن حد شافني؟ تراهن لشطتين بالعصا، يأدبن وما يضرن.

تجاهلت أمي كلامي ونهشت تفاحتها:

- تقطر سكر.

- تفاح ولا نبق؟

- ما أعرف التفاح، لكن ذا يشبه النبق غير أنه كبير وحمر، وأحلى عن النبق.

- يعني تفاح ما نبق؟

- قلت لك، أنا ما أعرف التفاح.

لفضت الحبوب الصغيرة ومسحت فمها بردنها، ثم اقتربت مني كعادتها عندما تريد شيئًا، وطلبت أن أرافقها إلى السيب لتزور خالتها معيسلانه، قلت لها إن القيظ بعيد، لكنها أصرت على الذهاب في الغد.

أتذكر أول مرة ذهبنا إلى السيب، كانت أمي قد أكملت عدتها على سلام بن خميس ثالث أزواجها بعد أبي، كانت حزينة جدًا لأنها عشقت سلام الذي كان يكسر العصي على ظهرها وظهري، وما تخيلت

مكتبة ياسمين

يومًا أنه سيذهب إلى مكتب الوالي كما يفعل فجر كل يوم ولن يعود إلا في كفن يصلي عليه الرجال.

سكنا في بيت ماه معيسلانه عند طرف مزرعة الشيخ سعود بن ناصر العامري، حيث عملت أمي في ذلك القيظ في مقاصيرة لتنسى زوجها، ولتساعد النساء على تنقية التمر وكنزه مقابل أن تعود بضميدة منه، وزكيبة ليمون مجفف وبضع حبات من اللمبا. كنت أرافقها أحيانًا إلى حوش بيت الشيخ فتضع زوجة الشيخ حبات من الحمص المجفف في كفي أو تملأ فمي بلقمة من الحلوى، عندها تنهرني أمي وتأمرني أن أبتعد عن مجالس النساء، فكنت أجلس تحت ظل شجرة اللمبا الكبيرة، وأحيانًا أنسل من دون أن تحس بي، وأبدأ في مراقبة العصافير المتقافزة من غصن إلى غصن.

كثيرًا ما كنت أجد نفسي وحيدًا وسط المزارع، فأضيع بين أعواد البرسيم وجلبات الجح، أترصد النمل أو أركض محاولًا أن أطبق كفي على الزنابير، وأحيانًا أتسابق مع الصغار على تسلق أشجار اللمبا لقطف الحبات الغضة الحامضة، أو أنحني مثلهم على العشب تحت النخيل لألقط الخلال المتساقط الذي أعود به ملء ثِبان دشداشتي، فتشكّه ما معيسلانه لي في خيط وتطوق به عنقي، فتصبح لي مثل بقية الصغار قلادة من الحبات الخضراء الهشة، أتباهى بها بينهم وأقضم منها طوال النهار.

كان بيت ما معيسلانه صغيرًا، أصغر من بيتنا في الوشل، لكنها كانت تفرح بنا وتوسع لأمي حتى يصبح البيت وكأنه بيتنا، وعندما تتركني أمي معها لتذهب لمعاونة النساء، تفتح لي صندوقها وتخرج منه أشياء قديمة: خرقًا، حلوى تشقق وجهها، قطعًا من القشاط ألفظها بعد أن أمص ما تبقى من سكرها،

مكتبة ياسمين

وعندما نذهب للنوم، تغفو أمي سريعًا، بينما أقترب أنا من ما معيسلانه لتخبرني حكاياتها الغريبة عن الجن والمغايبة.

أخبرتني أن أباها سماها شوانه على اسم أمه، لكنها مرضت وهي بعد في قماطها، وأن أمها جربت كل ما تعرفه من أدوية، إلا أن الحمى لم تفلتها، حتى نامت الأم والرضيعة في حضنها، وحلمت بأنها كانت تغسل رجليها في الوادي، وأن معيسلانه سوداء مشت على قدميها، قالت أمها إنها حسبتها في البداية أفعى فانتقزت، لكنها رأت أقدامها الصغيرة وجسدها المتلامع فعرفت أنها معيسلانه، تسبح في الماء ولا تضر، وعندما استيقظت كانت الحمى قد زالت والرضيعة عادت تناغي في حضنها، فأسمتها معيسلانه.

سألتها مرة عن أولادها، فعدت منهم ثلاثة سالم وسويلم وسلوم، وأن زوجها الذي كان له قرن صغير في قمة رأسه، سرقهم الواحد تلو الآخر وباعهم، واحدًا في البحرين والآخر لتاجر من البصرة، أما صغيرها «سلوم» فقد باعه ما إن بلغ العاشرة لرجل ذاهب إلى مكة، وأن أحد الحجيج من الحارة العلوية أخبرها بأنه رأى ولدها يخدم الحجيج وأنه ناوله شربة ماء، إلا أنه لم ينتبه إلى أنه سلوم ولد ما معيسلانه، إلا بعد أن غادر الفتى وغاب في الزحام.

أحببت ما معيسلانه لأنها تخبئ الحلوى وحكايات الجن والعفاريت والسحرة، وربما لأنها أحبتني ولم تضربني كما كانت أمي تفعل، وكانت تلمّني في حضنها وتقول إني عوض أولادها الذين رحلوا، وعندما نريد العودة إلى مطرح، كانت تبكي بحرقة وهي تودعنا.

كنت أحب دموعها التي مثل حبات المطر، كبيرة

مكتبة ياسمين

وتملأ أخاديد وجهها وكأنها شراج السيل.

في ذلك القيظ سمعتها توبخ أمي على عدم صبرها عن الرجال، وتعرض عليها أن ننتقل إلى السيب ونتقاسم وإياها البيت وما يُجاد به، فلا تحتاج إلى رجل يطعمها ويؤذي ابنها، لكن أمي كنت تحب البندر والرجال، كما سمعت ما معيسلانه تقول وهي غاضبة منها، فعدنا إلى مطرح وتزوجت أمي الأحول تاركة خالة غاضبة وقيظًا لن نعود إليه.

استغربت رغبة أمي في زيارة خالتها بعد كل هذه السنين «حمدون هندل مخبر صفية حرمته، أن ما معيسلانه مريضة واجد، وما أعرف أنلحق عليها ولا أيسبقنا الموت، وأنا باغية أستسمحها».

في طريقي للخروج عرجت على طرف الحوش لأتناول شربة ماء، فانتبهت لبقايا الجمر، نكشتها بغصن يابس كان في يدي، فوجدت خرقًا من بقايا دشاديش أزواجها، وعصًا محناية ما تبقى منها إلا رأسها، والشفرة التي قالت أمي إن أبي طهرني بها.

انتشلت الشفرة من الرماد، كانت حارة كالجمر، لسعتني فألقيتها في التراب، وصرت أبردها به، ثم دسستها في جيبي وخرجت.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

كان جدي صالح بن سيف يحوّل صوار الفلج عندما رأى وجه امرأة منعكسًا على مائه فجمد في مكانه، في البداية ظن أنه انعكاس لوجه القمر الذي كان بدرًا تلك الليلة، لكنه رأى عينًا تغمز إليه، وقبل أن يستدير كان الوجه قد اختفى، فهرع إلى البيت تاركًا الماء يغرق ضواحي النخيل، وما إن رأى أمه حتى ارتمى عند قدميها يرتجف، ثم أخبرها بما رآه، فسقته حليب شاة كان ما زال ساخنًا فهدأ، ثم سألها إن كان الوجه لإنسية أم لبنت من بنات الجن فلم تجاوبه بل طلبت منه العودة من فوره إلى الفلج ليحوّل الماء قبل أن يدري أبوه بما فعل.

لم تجبه أمه في ذلك اليوم ولا الأيام التي تلت، فقد فهمت أن أوان زواجه قد حان، وعندما انتهى موسم القيظ وكُنز التمر وحُمل على النوق، خطبت له غنيمة ابنة عمه علي، الذي يملك أكثر نخل الغبة.

ليلة عرسه لم يجد جدي الوجه الذي شاغله على صفحة الماء، فاحتبس ماؤه شهرين، حتى شكتْه غنيمة بنت علي إلى أمه وقالت لها: «أنا باغية ولاد»، فأغمض عينيه وأنجب منها ثلاث بنات على صورة أمهن وصبيًا واحدًا يشبهه، أسماه سيف، الابن الذي أنا ولده.

زوّج جدي بناته الثلاث برجال من سويرة والحجر وسنيد، فأخذوهن ورحلوا بهن إلى قراهم البعيدة، فخلا البيت إلا من أبي وجدي وجدتي التي كانت لا تعرف السكون وكان شغلها كما تقول لا ينتهي، وأنا أشهد على ذلك، فمذ فتحت عيني على الدنيا لا أتذكر أني رأيتها إلا في الضواحي تقلع وتزرع، تجز الحشيش أو تحمل ربطات البرسيم على رأسها أو تستقي الماء من الفلج أو تعتني بحيواناتها، وما

مكتبة ياسمين

إن يحل القيظ وتهب رياح الغربي الحارقة، حتى يتحول نشاط جدتي إلى النخيل، فإما نراها حاملة قفران الرطب على رأسها، أو تكون عند المسطاح تنقي التمر وتنشره ليجف أو تكنزه في الجربان. أما عندما تكون جدتي في البيت فهي إما منشغلة بشياهها ودجاجاتها، أو تخض الحليب في قربة من الجلد لتصنع الكامي والدهانة، أو مشغولة بتعليق مشاكيك اللحم المشوي بخيط أعلى العريش ليجف، ولا أتذكر أني رأيتها في المطبخ إلا لتطبخ دهن الذبائح لتصنع منه قلية تذخرها للأيام، أما الطبخ والخبز فقد تركته كله لأمي.

تزوج أبي بمثلى بنت عبدالله، أمي، التي تتحدر من وادي الظبى وتربطه بأهلها خؤولة بعيدة، وقبل أن يتم الحول ولدت أنا وتبعتني أخواتي الأربع، زيانة وسعدة وسالمة وموزة، ومع أن أكبر أخواتي لا تصغرني إلا بحولين، فإني لا أذكر أني كنت ألعب معهن، فقد حملني أبي على كتفه وأخذني معه إلى النخل صغيرًا.

تعودت على الخضرة فصرت إذا ما أراد أبي أن يتركني في البيت مع أمي وأخواتي أتعلق بساقيه وأبكي، وإن أصر على تركي تبعته من بعيد، حتى إن رأيته منشغلًا بتنبيت نخلة أو خرفها أو تحديرها ربطت نفسي بحبل على جذعها النخلة وحاولت أن أصعد وراءه، فكان يهبط مسرعًا ويربطني بالحبل على جذع نخلة قريبة حتى ينهي عمله ويعود فيفكني.

بكيت في البداية، ثم ما لبثت أن انشغلت بصوت أزيز الصراريخ وهي تتزاوج في الصيف، أو برفيف أجنحة الصقرقاوة الملونة أو تمايل الحمام الجبلي المطوق في حركته بين أعواد البرسيم.

مكتبة ياسمين

أنستني حركتها من حولي وأنستني الحبل الذي ربطت به، لكن أكثر ما كان يخطف بصري هو رؤية العقاب وهو يحوم أعلى الجبل الشرقي الذي يطل على ضواحي الغليون.

اكتفت الغبة بزراعة النخيل والبرسيم سنين طويلة، حتى أحضر بعض العائدين من الشمال بذور الغليون، وعرف جدي منهم أن التجار في البنادر يقبلون عليه أكثر من التمر والبسور فقرر أن يجرب زراعته فاشترى منهم كيسًا وحدد الأرض التي سيزرعه فيها، إلا أن الرجال عادوا فأخبروه بأن زراعة الغليون تحتاج إلى سماد القاشع والعومة، فاضطر جدي إلى النزول إلى مسقط مصطحبًا أبي، وفي نيتهما أن يزورا بيت عمه الكبير الذي استقر فيها منذ سنين وأن يشتريا بواسطته ما يستطيعان من السماد.

هبط جدي وأبي إلى مسقط لكن قبل أن يدخلا إلى حارات الوادي الكبير توقفا عند بئر الراويه ليسقيا راحلتهما وهناك وللمرة الثانية رأى جدي وجه امرأة على صفحة الماء. كان الوقت نهارًا هذه المرة فرفع عينيه بلا وجل، لكن الفتاة لم تنتبه له فحملت إناءها الممتلئ بالماء ومضت.

ترك جدي ابنه عند البئر وتبع المرأة كالمسحور، هبط وراءها الوادي ومشى خلفها في بطنه حتى كاد يتعثر بحصاه أكثر من مرة، ثم عندما دخلت الحارة من طرفها الشرقي دخل وراءها وظل يتابعها من بعيد، حتى إذا ما ولجت أحد البيوت اقترب من بابه فعرف أن المرأة ليست بغريبة، فهذا باب بيت عمه الذي يقصده.

عاد أبي بعد شهر محمّلًا القاشع والعومة على ناقة وحمارين، وأخبر جدتي بأن زوجها لن يعود.

مكتبة ياسمين

أطرقت جدتي طويلًا، ثم أكملت سرد الخوص الذي بين يديها. بعد أيام اكتمل القفير الذي كانت تسرده، فناولته أبي وعصبت رأسها بطرف وقايتها وقالت إنها ستهبط إلى مسقط مع قافلة لأخوالها.

حاول أبي منعها لكنه لم يقدر عليها، وعندما عادت من هناك أشهرت لأبي صك بيع جدي كل ما يملك من ضواحي النخل ومزارع الغليون.

احتار أبي في تفسير تفريط جدي في أمواله، لكن بعد مدة وصلت الأخبار بأن جدتي دخلت مجلس عمهم حمد في مسقط والفناجين تدور، وأنها بعد أن سلمت على الحاضرين أسقطت على الأرض عصاها التي تتوكأ عليها، ثم في لمحة عين اختطفت البوعشر المعلقة على الجدار، ووضعتها على صدر جدي وما تركته حتى أحضر العم القضاة وشهدوا على بيعه كل ما يملك لبنت عمه غنيمة بنت علي.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

رأيت أبي يغيب في دروب السوق، يسرع وأنا أركض خلفه، ثم صار التجار يفرغون بضائعهم في الدرب، فأصعد جبالًا وأهبط أخرى، رأيت الصبية يخرجون من شقوق الجدران، والعتالين الواحد منهم كالبرج، يسدون الدرب كي لا أعبرهم وأصل إليه.

رأيت وجهه يظهر ويغيب، يغرف لي الماء من الوادي الصغير، فيتحول الوادي سيلًا ويجرفنا. يصنع لي دمية من خرق، ما تلبث أن تفر من بين أصابعه فأركض وراءها. رأيته عند قبر أمي يحفر قبرًا، ويدفن قدميه، ثم تخرج من قدميه أغصان حتى يصير شجرة، ورأيتني أعلق عليها النذور وأبكي.

تقلبت طويلًا، حتى رأيت القمر الذي كان أول الليل بدرًا يغيب، ثم غفوت. لا بد أني غفوت، لأني قرب الفجر سمعت الصوت يأتي من بعيد ثم يقترب ويعلو حتى كأنه صار في أذني ففزعت:

«غريقة... غريقة... غريقة».

رفعت رأسي، لكني رجحت أن الصوت من بقايا أحلامي، فعدت ووضعت رأسي على الوسادة، إلا أن الصوت تعالى آتيا من ناحية غربق.

أطللت من نافذتي فلم أر شيئًا، صعدت الدرج إلى السطح، أطللت من الروشن فرأيت الناس أشباحًا تركض من أطراف الشاطئ صوب الصوت:

«غريقة... غريقة... غريقة».

هبطت إلى الحوش، وأطللت برأسي من الباب، فرأيت رجلًا يركض صوب البحر، والناس تنسل من حارة الشمال وتتبعه.

مكتبة ياسمين

لبست عباءتي وهرولت إلى حيث ذهب الناس، وعندما وصلت، كان الناس مجتمعين في حلقة كبيرة، رؤوسهم منكسة ويتهامسون بشيء صعب عليّ تبينه. حاولت أن أتطاول برأسي لكني ما استطعت رؤية شيء، سمعت أصواتًا أعرفها، ثم من بين الأصوات تبينت صوت فاطمة، فشققت طريقي بين النساء لأجدها تحتضن رأس الغريق بين يديها وتمتخض، والجسد العملاق ملقى على ظهره، وحسن يمسح القدمين ويعصرهما بقوة ويترجى الرجل النائم على الرمل، علّه يعود.

لاح لي جسد عبد اللطيف على رصيف الفرضة، والسماء تقطر سوادًا على الرؤوس، والبحر مشتعل بالقار والنار، ودموع فريدة تغسل وجه أبيها وكفيه.

أخذ البحر مراد داهوك من فاطمة كما أخذ عبد اللطيف مني، ورأيتني مثل فاطمة أحتضن وجه عبد اللطيف وأنوح، وما مويزي وفرشوه وعساكر يحثون التراب على رؤوسهن وناصر عند جسد أبيه في الجانب الآخر، يرفع يد أبيه وينكب عليها مقبلًا.

تصفع فاطمة الوجه الذي بين يديها علّه يقوم ويعود إليها

«باد مني جكر

باد مني جان».

أحاول أن أقترب فتصيح فجأة بأعلى صوتها، وتثير الرمل وتلطم وجهها والمخاط قد اختلط بدموعها، فأرتد إلى الوراء. شعرت بخدر في ساقي ومادت بي الأرض للحظات حتى كدت أقع، لكن ذراع فريدة امتدت واحتضنتني، متى لحقت فريدة بي؟ اتكأت على كتفها، فاقترب الرأس من الرأس وبكينا.

هدأ نحيبنا لكن بكاء فاطمة لم يهدأ. استعدت

مكتبة ياسمين

قوتي وأردت أن اقترب من المرأة لأرفعها، أو لأشاركها البكاء، لكني عدت فتأخرت كي أمنحها فرصة لمناجاة الرجل الذي كان لها وحدها حق حبه والغضب عليه ولومه وبكائه.

من بين الصفوف ظهر رجل في ثياب العسكر، انكبّ على الجثة فاحصًا، لكن فاطمة منعته، أدار وجهه بين النساء، علّ واحدة منا تقوم فتعالج عويلها أو تحاول إزاحتها.

طلب من الرجال مساعدته على رفع الجسد إلى المسجد فنظر الجميع إليه ثم إلى فاطمة، طلب من حسن وفاطمة أن يسمحا بذلك فازدادت الأيادي الأربع تشبثًا. اقترب خطوة ووراءه رجلان، لكن فاطمة تحولت ذئبة وكشرت عن أنياب لم أرها تملأ فمها من قبل، ثم انكبت فغطت جسد الغريق بجسدها.

أشار العسكري إلى النساء مرة أخرى كي يتدخلن ليرفعن فاطمة، لكن النساء كن يخفنها وهي ساكنة فكيف يقتربن منها وهي تعوي كالذئاب. تبادل القوم النظرات وارتفعت الهمهمات ولم يستجب له أحد.

«جرب إذا تقدر عليها».

انكشفت الظلمة شيئًا فشيئًا فظهرت الوجوه أكثر وضوحًا. الصيادون ونساء حارة الشمال وجيدان وجبروه، ووجه فاطمة ورأسها الذي غطاه الرمل، والنحول الذي تضاعف في وجه حسن.

حول العسكري وجهه إلينا وللحظة التقت نظراتنا فعرفته، غطيت نصف وجهي بعباءتي وأشاح هو متوجهًا بالكلام إلى حسن «لا حول ولا قوة إلا بالله، قوم يا حسن شل أمك وخلي الرجال تغسل أبوك وتدفنه».

العسكري على حق، لا يجب أن تترك الجثة حتى

مكتبة ياسمين

ترتفع الشمس، وفاطمة على حق عندما تتشبث بها.

تقدمت فريدة خطوة لكني أعدتها إلى الخلف وطلبت منها البقاء في مكانها، ثم اقتربت من ظهر فاطمة، حضنتها من الخلف وهمست لها «مني دوست... مني جاني.. قومي معاي نروح البيت، حسن بيروح مع مراد يغسلوه وبعدين بيجيبوه البيت».

«البحر غسله مريم، شوفيه كله ماي، من راسه لين رجوله غسله البحر،

ليش رحت البحر مراد؟

خبرتك لا تروح البحر في الليل

... مراد، خبرتك خلِّي عنك الحشيش،

ويش نفعك حشيش مراد؟

مو تسوي طول الليل عند البحر؟ مراد

مو تسوي تخليني وحدي وتروح البحر؟

مراد مو تسوي عند البحر؟»

اختلط نواح فاطمة بصوت فريدة وهي تقرأ آيات من القرآن، رفعت صوتي وكلمت المتحلقين حول جسده قاصدة العسكري ومتجنبة النظر إلى وجهه:

«مراد بيرجع بيته، لازم فاطمة تشوفه، غسلوه وكفنوه ورجعوه البيت عندها، لازم تودعه».

لا سلطة لي على الناس ولا على العسكري، لكن فاطمة أرخت قبضتها فرفعتها وساعدتها وفريدة على الوقوف، ثم التفت إلى حسن، كان ما زال في مكانه يعصر قدمي أبيه بين كفيه: «حسن، قوم شل أبوك مع الرجال، غسله وكفنه وبعدين رجعه البيت، خلِّي أمك تودعه أول».

قلت ذلك وأنا أدري أن الأمر ليس بيدي، لكن كان عليّ أن أعيد فاطمة إلى بيتها وصوابها، ثم ربما

مكتبة ياسمين

هدأتها بذكر موت عبد اللطيف، بذلك النهار، بالوجع الذي لم أشف منه، لكن كيف أسلي موتًا بموت، وهل سيسليها وجعي عن وجعها؟

اتجهنا بها صوب بيتها، مشت خطوة أو خطوتين ثم سقطت على الرمل تنوح، رفعتها النساء فمشت ثم وقعت، التفتت تريد العودة إلى مراد: «خلوني..»، حاولت اللحاق بالرجال الذين يحملونه إلى الناحية الأخرى، منعتها فسقطت على الرمل وعادت لتحثو على رأسها من جديد وتنوح، رفعناها، قامت مرة وكادت تسقط مرات.

التفتُ صوب الرجال، فوجدت حسن يحمل جسد أبيه مع الرجال ولم أجد العسكري.

وصلنا إلى طرف جبروه، فعلا بكاء فاطمة ونحن نقترب من البيت فبكت النسوة، صرخت فاطمة فصرخت النسوة في صوت واحد: «أوه خوداه.. يا الله... ربي.»

حاولن تهدأتها بالهمس، والمسح على رأسها وصدرها، علّ كثرة الأيادي تطفئ نار قلبها، اقتربنا أكثر فتشبثت فاطمة بعباءتي، التي انزلقت إلى الكتفين فكشفت غطاء رأسي ولم أكترث.

تجاوزنا العتبة فهربت فاطمة من بين ذراعي إلى داخل العشة، طلبت من النساء التمهل لأدخل خلفها وحدي.

كان الداخل معتمًا، لا يضيئه إلا بصيص تسرب من بين فراغات السعف، بحثت بعيني في باطن العشة، فوجدتها متكومة في ركن منها تتغطى بلحاف ترتجف تحته. دخلت فريدة خلفي وجلست تقرأ بعض القرآن على رأسها، فتركتهما وخرجت لأجد النساء قد بدأن بتنظيف الحوش، وما إن انتهين حتى جلسن يبكين وينحن وهن ينتظرن وصول

مكتبة ياسمين

جسد مراد داهوك المغسّل والمطيب.

سيرينه للمرة الأخيرة، ملتفًّا في كفنه، تاركًا صوته «خبردار... خبردار» ليوسع له وما يحمله في أزقة السور والسوق والحارات.

وصل صوت الرجال من البعيد، خرجت فاطمة حاسرة الرأس، محلولة الضفائر وقد اختلط بياض جديد بسوادها، استغفر الرجال لمّا رأوها هكذا وخرجوا وتركوها مع كفن زوجها.

مكتبة ياسمين

اقتربت من الحارة فلم أر أحدًا يخرج منها ولا أحدًا يدخل فيها، وكأن واحدًا بناها عند البحر ثم نسيها، ارتفع صوت الأذان فبحثت عن مئذنة المسجد فلم أجده، نويت أن أدق أول باب أراه، أسرعت قليلًا متجاهلًا ألم رأسي، الذي كأنه سينفصل عن جسدي ويدرج قدامي، بماذا اصطدمت؟

تفحصت جسدي لا جروح ولا خدوش، وثيابي التي جففتها الشمس ما زال بها بلل خفيف، ووزاري مثبت على خاصرتي بحزام من جلد، فتحت جيوبه، وجدت قروش فضة، من أين لي؟

شممت رائحة السمك المقلي تأتي من بعيد، تبعت الرائحة عساها تدلني على البيت الذي خرجت منه، لكن رائحة السمك كانت تخرج من كل البيوت فاختلطت عليّ.

قرعت أول باب صادفته، فخرج لي طفل وراءه أمه تحمل مغرفة تلوح بها وتسأله: مَن هناك؟ طلبت شربة ماء، لكن الطفل سألني: من أنت؟ فلم أجبه، ارتفع صوت الأم تسألني: من أنت؟ قلت: أريد شربة ماء، رد الطفل: لا أعرف، سألتني الأم: من أنت؟ فقلت: أريد ماء، لكن الطفل أغلق الباب في وجهي.

خمنت، قدم في الرمل وأخرى في الماء، جررت جسدي الذي التصق به الملح فحال لونه إلى بياض يشبه الرماد. فمي أيبسه العطش، ووجع رأسي يكاد يصعد إلى عيني فيعميني. أغمض عيني ثم أفتحها، فتتراءى لي بيوت بعيدة، أقترب منها فأراها تزداد وتتباين، أرى حركة، ناسًا يذهبون ويجيئون على الرمل، وفي البحر رأيت مراكب وسفنًا تميل مع الموج.

مكتبة ياسمين

حثثت خطوي وعندما وصلت قرب أول بيت، رأيت جدوية ماء معلقة عند الباب، فاختطفتها وصببت الماء في حلقي حتى انتهى الماء وما انتهى عطشي. تلفتُّ من حولي فرأيت رجلًا مقبلًا وقد شمر إزاره. قلت ربما كان صيادًا. أوقفت الرجل وسألته عن اسم المكان الذي نحن فيه. «ما تعرف أنت هين؟ هذه مطرح، وهناك السوق»، وأشار بإصبعه ثم مضى.

قادني جوعي إلى دكان ليس بينه وبين الماء إلا ذراعان من الرمل. رأيت عيون الرجال المنكرة، لكن ما حيلتي، تغافلت عنهم وجلست على دكته. وضع رجل الأكل لهم ولم ينتبه لي. تابعت إزاره ذا المربعات يروح ويجيء، ناديته فتجاهلني وعندما ألححت اقترب وأدخل يده في جيب دشداشته وأخرجها وهو يفرك أصابعه. مددت يدي داخل حزامي وأخرجت قرشًا وناولته. اختطفه وحاول هرسه بأصابعه، ثم ابتسم وغمز «شاباش.. كذا برابر»، وغاب، ثم عاد ووضع أمامي صحنًا من مرق اللحم وخبزتي تنور وجدوية ماء، وما تبقى لي من المال.

شربت وأكلت وشبعت فانسحب الألم قليلًا من جسدي، تحسست رأسي الذي تراجع ألمه، ثم خرجت ومشيت نحو السوق، عند المدخل رأيت المقهوي يلف بين الناس بدلّته وفناجينه، فاقتربت ووضعت بيسة في كفه، فصب لي فنجانًا تبعه بثانٍ، لكن القهوة تنتهي في جوفي والألم في رأسي يختفي لحظة ثم يعود.

دخلت السوق علّ أحدًا يناديني باسمي فأعرف من أنا. من حين إلى آخر يرفع الباعة رؤوسهم، ثم يعودون إلى بضاعتهم ليكشوا عنها الذباب أو

مكتبة ياسمين

ليصيحوا بصبيتهم.

مشيت من طرف السوق حتى آخره، كأني كنت أبحث عن شيء لا أعرفه.

وجدت نفسي خارج السوق والبحر أمامي مرة أخرى. مشيت نحوه، دلتني الأصوات على الفرضة، وقفت هناك، سألني أصحاب القوارب إن كنت أريد أن أذهب إلى مسقط أم عينت؟ طالعتهم ثم وقفت في مكاني، كيف أعرف إلى أين أريد أن أذهب وأنا لا أعرف من أنا أو من أين جئت لأعود؟

تركت الفرضة وعدت إلى السوق. مشيت في سككه، واحدة تفضي إلى أخرى، علّني أرى ما يذكرني بشيء، ثم اتجهت إلى دروازة السوق وخرجت منها، وبقيت أمشي بين الحارات، خيام وراء خيام، ولا وجهًا واحدًا ينظر إلى وجهي ويعرفني.

بعد مدة تباعدت الخيام حتى انتهت، فتلقفني السيح، فكرت في الرجوع، لكن الذهاب والعودة سيّان وأنا لا أملك في أي المكانين سقفًا أبيت الليل تحته، أو ربما كان لي لكني لا أتذكر ذلك.

مشيت والشمس على عيني، ثم انشق السيح أمامي عن قناة فلج نبتت على جانبيها أشجار الحناء وسدرة نبق. هرعت إلى الفلج، وغرفت من مائه وشربت وكأني لم أشرب ماء من قبل، ثم دخلت فيه لأتبرد فيه وليغسل عني ملح البحر.

خلعت عني إزاري ودشداشتي وحزامي وهبطت في الفلج. سحلت غصن سدر تدلى وقبضت على حفنة من ورقه. حككت جلدي بالورق واغتسلت حتى هدأ أكلان جلدي. تناولت ثيابي أفركها بالسدر وأغسلها بالماء، ثم صعدت ونشرتها على شجر الحناء.

مكتبة ياسمين

كانت السدرة مثمرة فخبطتها بغصن ميت وجدته تحتها، فتساقط النبق على الأرض، لممته في كفي وأكلته، الناضج بدوده والنّيء بحموضته، ثم استندت إلى جذعها وغلبني النوم عاريًا.

استيقظت على كعب بندقية يخبط كتفي، فتحت عيني فرأيت أخيلة رجال، أغمضتهما وفتحتهما ثانية فرأيت عسكرًا يحيطون بي، انتبهت لعريي فغطيت عورتي بكفي، وأشرت إلى ثيابي المنشورة فوق شجرة الحناء، فتركوني لأرتديها.

ساقوني أمامهم وهم يسألوني عن اسمي ومن أين جئت، لكني مشيت أمامهم صامتًا، «هذا الرّجال يمكن عجم، لا يسمع ولا يتكلم»، «يمكن مغيب أو مجنون»، أعرف أني لست مغيبًا فلا ختم للسحرة على جسدي، لكني لست متأكدًا من عقلي، هل ينسى المجانين أسماءهم؟

مشيت أمامهم حتى وصلنا القلعة الرابضة على السهل، اجتزنا بوابتها وصرنا داخل حوش تحيط به الغرف من كل جانب. أدخلني العسكر على قائدهم، فسألني بلغة لا أعرفها فلم أجبه، ثم أمر الجند فنزعوا حزامي وأخرجوا القروش والبيسات من جيوبي وسلموها له.

أدخلوني في زنزانة ضيقة وأغلقوا الباب ورائي. لو أني قلت لهم ما حدث معي من لحظة استيقاظي عند البحر، أو لو أني أخبرتهم بأني لا أتذكر اسمي ولا من أين أتيت، هل كانوا سيتركونني أذهب؟

لعبت الأسئلة في رأسي مدة حتى نمت.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

في المعسكر كل شيء مقسم بحسب نظام محدد، وكل شيء محكوم بالوقت، وهذا النظام يناسبني والحرص عليه يشغلني، نعم، الأعمال يجب أن تؤدى في أوقاتها، وإلا شاعت الفوضى. النظام يعجبني، لهذا تطيب لي حياة المعسكر أكثر من حياة البندر.

قبل ذهابي إلى المعسكر كلفت أحد الصبية بشراء ما يحتاجه البيت من سمك وخلافه، حتى لا تضطر أمي أو أختي إلى الذهاب إلى السوق ومزاحمة الرجال، أما عندما أعود في الإجازات فإني أتكفل بكل ذلك، فأذهب إلى السوق والصلاة وأعود إلى البيت. أحيانا أنشغل بترميم ما تساقط من أركانه، أو أنعزل عند طرف الليوان لأعيد قراءة كتاب الشاهنامه، الذي آنستني حكايات ملوكه عندما كنت أدرس في بوشهر.

لا تكف أمي ونوران عن العراك على أمور البيت وأشياء النساء وحكاياتهن، فأتركهن وأذهب صوب البحر لأراقب تمرين الصبية على السباحة والقفز والركض، أسير بمحاذاتهم وأوشك على توجيههم، إلا أني أتذكر أني في البندر ولست في المعسكر، وما هم إلا مجموعة من الصبية اللاهين، وليسوا جنودًا تحت إمرتي.

في طريق عودتي إلى كهبن أمر بمجموعة من الرجال المتحلقين حول لعبة الحواليس، فيدعونني إلى اللعب معهم. غالبًا ما أرفض لكني أذعن أحيانًا لطلب كبيرهم صومار حسن، فالرجل عسكري قديم مثل أبي، وتربطه بأمي قرابة بعيدة، وفي إحدى روايات أمي عن زواجها بأبي كان هذا الرجل هو من توسط عند أبيها في الزواج بالغريب القادم من اخر الدنيا كما تقول.

مكتبة ياسمين

في بوشهر تعلمت لعب الشطرنج وبرعت فيه بين أقراني. مع ذلك لم أستطع الفوز ولو لمرة واحدة في لعبة الحواليس في مطرح، رغم أن كلا اللعبتين تحتاج إلى الذكاء والحساب والتركيز وطول النفس.

الشطرنج لعبة النبلاء كما علمونا في المدرسة، لها ملوكها ووزراؤها وقلاعها وأحصنتها وجنودها، أما الحواليس فأعرف أنها لعبة البسطاء من أهل الساحل، يحفرون خاناتها الثماني والعشرين في الرمل بأصابعهم، ثم يجعلون لعبهم بالحصى أو المحارات الفارغة، لكل واحد منهم ثمان وعشرون محارة أو حصاة، ينقلونها بسرعة بعد حساب دقيق لحركاتهم بين الحفر، فيفرغون الممتلئة ويحتلون الفارغة ويستولون على محارات بعضهم بعضًا، ومن يغنم يغلب.

بين كل حركة وحركة يهدر سيل من الشتائم، التي يساهم فيها صومار حسن بنصيب وافر، أظن أنه تعلم أكثرها في المعسكر، وقد انتفخت أوداجه واحمرت عيناه.

بعد صلاة المغرب في المسجد الصغير في كهبن أذهب عادة إلى السوق لأجلس عند مقهى حاج موسى، أشرب كوبًا من الشاي وأسمع الأخبار من الراديو الذي جلبه أحد أولاد الحاج من بومباي، الذي لا يشغّله عادة إلا لسماع الأخبار من سايلون أو كراتشي أو إذاعة لندن، ما عدا مساء يوم الثلاثاء حيث يسمح فيه لرواد المقهى بسماع برنامج ما يطلبه المستمعون الذي يبث من كراتشي.

أحيانًا كان يلحق بي سالم نصير، إن عاد من عمله مبكرًا في شركة الكابن وايلس في مسقط، أو عبد الرحيم حسن إن كان في إجازة مثلي، لكني أقضي أكثر الوقت مستمعًا إلى ما يدور بين الحاضرين.

مكتبة ياسمين

هكذا أبقي شعرة الميزان ما بين المعسكر والبندر، ما بين غيابي الطويل بين الجند وحضوري القصير بين أهل أمي في مطرح، فمهما كان ولعي بالعسكرية فأنا أعرف جيدًا أنه إن طال الزمان أو قصر فسأعود إلى مطرح مثلما عاد أبي.

في تلك الظهيرة، دنت مني أمي وأنا مستلقٍ في الليوان أنتظر سماع صوت المؤذن لأذهب للصلاة، وهمست باسم جميلة بنت خالي أحمد في أذني، ووصفتها بأنها اسم على مسمى وأنها صارت امرأة كاملة.

تتجنب أمي ونوران ذكر كريمة، يتعاملان معي وكأني الفتى العائد فورًا من بوشهر، فيعرضن عليّ البنات الواحدة تلو الأخرى، يتجاهلن أن هذا قد حدث من قبل، وأن هذا الكلام قد سبق وقيل وأن كل هذا بلا فائدة.

كنت أخرج من المسجد عندما انتبهت إلى أن الناس يسرعون إلى قهوة حاج موسى رغم أن بينهم وبين أخبار العصر وقتًا طويلًا. ثم صادفت سالم الذي قال شيئًا عن خبر عظيم في مصر، فحثثنا خطونا وقطعنا الدرب الخلفي إلى القهوة، متلافين زحام السوق.

وصلنا فوجدنا عبد الرحيم قد جلس تاركًا لنا مكانًا لنلتحق به، وأشار إلينا بأن ننضم إليه، أما حاج موسى فقد ألصق أذنه بالراديو، محاولًا تبين الخبر رغم التشويش والانقطاعات

«خاموش.. خاموش.. خلونا نسمع ونعقل».

ثم بعد قليل أدار بكرة الراديو فأطفأه، واستدار ناحيتنا، بقينا صامتين معلقين بفم الرجل، لكنه ظل ينظر إلينا ولا ينطق

«يقول الرّجال في لندن أن هناك انقلاب في مصر،

مكتبة ياسمين

الجيش انقلب على الملك، جماعة يسميوا الضباط الأحرار قالوا الجيش فاسد والملك ضيع فلسطين ولازم كل شيء يتغير».

«كيف يعني انقلب؟ الجيش صار فوق الملك والملك تحت؟» «انقلب يعني الجيش خذ الحكم من الملك وقاله خاموش. خلاص. بس. نحن نحكم مصر وأنت يكفيك كذا». «يستوي؟» «ما له ما يستوي! ذيلا عسكر وفي يدينهم سلاح».

«ترا يقولوا في الثمانية والأربعين، يوم قاتلوا اليهود في فلسطين، ضرب الرصاص في صدور جيش مصر بدل اليهود». «قالوا رصاصهم قديم وسلاحهم مغشوش». «هذا كذب! الملك فاروق ملك ولد ملك وجده ملك، ومصر جيشها قوي، والسلطان سعيد توه قبل كم سنة زايرنه ومتعشي معاه». «وإن كان متعشي معاه، بيثبت له الحكم؟!».

«خلو عنكم الملك والسلطان، تو من بيحكم مصر؟» «ترا الحاجي لصق أذنيه بالراديو وسمعهم يتساسروا في لندن، قالوا الجيش بيحكم، الضباط بيحكموا».

«والضباط من يحكمهم؟»

عندما كنت في بوشهر انقلب بكر صدقي في العراق، وكانت تلك أول مرة أسمع فيها بكلمة انقلاب، تناقلها الطلبة والمعلمون بعجب، ثم بعد مدة سمعنا أنهم اغتالوه.

في عقيدة العسكر كما تعلمنا ودرّبنا، يخضع الجندي لمن هو أعلى منه رتبة، ويخضع من هو أعلى منه لمن هو أعلى، حتى نصل إلى قائد الجيش، الذي قد يكون ولاؤه للسلطان أو الملك، في جيشنا يعلو الضباط الإنجليز الجميع، لكن ترى في هذه الحالة لمن يكون ولاء الجيش؟ لملكتهم أم

مكتبة ياسمين

لسلطاننا؟ سألت عبد الرحيم حسن فأجاب ممازحًا كعادته «ولاؤهم لحاج موسى» وضحك.

شنون السرسري

زوج أمي الرابع بعد أبي كان أحول، لذا فقد كان أتعسهم في الضرب، إلا أنه إن أصاب ترك علامة.

«نحن ما لنا حد.. لا أهل ولا بلاد»، تجلسني أمي قبالتها وتحكي لي حكاية جدها الذي هرب بجدتها «سلامة» من السيب وتزوجها وهبط بها إلى مطرح، وأنجب منها ثلاث بنات، لم تبق منهن إلا ما معيسلانة بعد أن توفيت الكبرى وتزوجت الوسطى، جدتي، في مطرح وأنجبت أمي وصبيًا واحدًا مات بعد أن ابتلع شوكة سمكة فعلقت في حلقه وعجزوا عن إخراجها بالسمن والتمر.

وجد الجد فتاة صغيرة فتزوجها وطرد سلامة التي حملت ابنتها معيسلانة على خاصرتها وعادت بها إلى السيب، وعندما وصلت إلى أهلها ضُربت حتى ماتت كما تقول أمي، وتكفلت النساء بتربية ما معيسلانة.

أحيانًا كنت أسألها عن أبي، فتخبرني بأنه كان يعمل مقهويًا في السوق، وأنه فرح بميلادي وأقسم أن يختنني قبل أن أبلغ الحول وأن يذبح شاة، لكن ختاني تأخر لأن الزط تأخروا عن الهبوط إلى مطرح ثلاث سنين، من دون أن يعرف أحد سببًا لذلك، وعندما صرت ابن ثلاثة أعوام، أضطر أبي إلى أن يسقيني الأفيون ويختنني بنفسه فنزفت كثيرًا من الدماء، لم أبك كما يفعل الصغار بل أغمضت عيني ونمت. خاف أبي وهزني وعندما تأكد أني لم أمت، نثر عند قدميّ ورق الريحان ورقص، لكن أبي أفرط يومها في أكل قشاط قديم، كانت أمي قد خبأته منذ أن ولدت، فمرض بطنه لأيام ثم مات.

بعد انقضاء عدتها تزوجت أمي خديم بن سعيد الذي خلف أبي كمقهوي في السوق، كنت أناديه

مكتبة ياسمين

«باه» لكنه لم يجبني ولا مرة واحدة، وعندما شددته مرة من طرف وزاره لينتبه لعقرب تدبّ على الأرض، نزل بكفه على وجهي فأطبقت فمي. دخلت العقرب في ثيابه ولدغته فقام صارخًا ينفض ثيابه كالمجنون، ثم بات محمومًا.

بعد أن أصيب بالسل وصار سعاله يملأ دروب مطرح وسوقها، ترك خديم دلته وفناجينه وتفرغ لحصيرة وضعتها أمي في طرف الحوش حتى تجففه تحت الشمس مثل الروث. لكنه كان ما زال بقوته، فبدأ يلعب معي لعبة تسليه، يترصدني وما إن أمر قربه حتى يحاول أن يقبض عليّ، ويقرص خدي فأصيح حتى تأتي أمي لنجدتي، ثم وهن، فصار يرقد تحت الشمس بلا حراك، حتى تأتي أمي وتنقله من مكان إلى آخر.

وذات يوم استيقظت وأمي لكنه ما استيقظ، رغم أن أمي لكزته وقرصته ثم لطمته ودحرجته إلى مكانه على الحصيرة تحت الشمس، من دون أن يمد يده فيأخذها من شعرها أو يشتمها.

عندما تأكدت أمي من موت الرجل صرخت فجاءت جاراتها وتبعهن الرجال، فوجدوها تهيل على نفسها تراب الحوش وتنوح ملتاعة «وااا ويلي... وااا خرابي... من لك يو شنون».

تنبهت لاسمي في نواحها فبكيت، ثم فجأة صرت في حضن إحدى النسوة، وقد رصت عليّ ذراعيها، فدوختني حموضة حضنها ونمت وما استيقظت إلا وقد خلا البيت. ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أتذكر خديم بن سعيد إلا وأشم رائحة الحموضة.

تزوجت أمي جميلان، حمال الحطب الذي كان يغذي نار التنور في مخبز عوض، تصفه أمي عندما لا يترك لنا ما نأكله «راعي النار كما النار، ياكل وما

مكتبة ياسمين

يشبع»، وعندما تغضب منه إثر صفعة على وجهها أو رفسة على ظهري، كانت تشتمه وتدعو عليه وتقول «ود الهاوية.. تاكلك الوارية». ولم أكن أعرف معنى الهاوية لكني صرت أصرخ بها في وجهه كلما ركلني «ود الهاوية»، فيركلني أكثر حتى تتدخل أمي بين قدمه وظهري. أما الوارية فعرفتها عندما اشتعلت فيه نيران التنور وهو يغذيه بالحطب وقد علق طرف وزاره فيه، ولم يقدر أحد على إنقاذه.

سلام بن خميس، زوج أمي الثالث بعد أبي، عمل عند الوالي وأوكل إليه صبغ العصي بالحناء، كانت أمي تعجن له الحناء وكأنها تعجنها لعروس، هذا ما سمعتها تكز به من تحت أسنانها، فيغرف منها بكفيه الكبيرتين ويمسح بها على الخيزرانة ويتركها في الشمس حتى تجف، ثم يمسحها ويعود فيحنيها مرة أخرى، وبعد أن تعجبه حمرتها يبدأ في تجريبها.

يضرب بها الهواء، ثم يقوم فينفض بها حصيرتنا حتى تتحول إلى غبار، ثم يضرب خرس الماء، ثم أي مكان يطاله من جسد أمي، لكنه لم يكن يطمئن لخيزرانته حتى يجربها على ظهري.

لا أعرف لماذا تحنى الخيزرانة كالعروس، هل تزداد قوة أم تزداد ليونة؟ أيًا كان، محناة أم غير ذلك، كلها كانت توجع.

«لشطة أو لشطتين ما يضرن الولد، يأدبنه»، يقول عندما يعود في المساء مراضيًا أمي، وكانت أمي ترضى وأسمع ضحكتها داخل الصفة. وعندما تستيقظ في الصباح تضاحكني وتخبز لي خبزة تسيح عليها بيضة إن وجدت وترشها بشيء من السكر.

سعدون بو شخطة زوج أمي الرابع، كان هو السبب في فراري من البيت، فالرجل لم يكن فقط أحول

مكتبة ياسمين

يراني اثنين وأنا واحد، ولا يفتأ يضرب الأرض حتى ينتفض التراب أو يتهاوى هو من فرط التعب، بل إنه فوق ذلك كان لا يستطيع التمييز بين الولد والبنت، وعندما تنشغل أمي كان يتحسس خدي بأصابعه الخشنة ويقول إني حلو مثل البنات، وعندما أخبرت أمي بذلك لعنته وطلبت مني الهرب.

ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش في كل مكان، فأبات تحت السدرة في خب السمن أو في حوش هجره أصحابه وما عادت تسكنه إلا العفاريت، أو تحت الشبك في بطن مركب لم يخرج إلى الصيد.

لا أملك إلا دشداشة على ظهري، أدخل بها البحر وأخرج منه فتجففها الشمس فوقي، لكني كنت آخذ نصيبي من كل شيء تطاله يدي، خبزة لولاه، حبة فندال، سمكة، قبضة قاشع أو تمر.

عودت أهل مطرح على ذلك، والناس يتعودون.

وعندما يقبض عليّ العساكر، يرمون بي في السجن ثم يطلقونني وقد حفظت أسماءهم ووجوههم ودهاليز السجن وزنازينه، أو يضربونني بالخيازر كي أتوب، وأنا أتوب في كل مرة، وأحلف ألا أعيدها، لكن نفسي ضعيفة ويدي كيد الشيطان خفيفة.

أسرق وأقتسم ما أسرقه مع الملعونين والمطرودين، فنحن لسنا قلة في مطرح، لكن كل واحد منا له طريقته. هناك من يختلس سمكًا للغداء من شباك الصيادين وهو يعاونهم ويركض به إلى طرف غربق ليشويه فيلتم عليه العاطلون والكلاب والقطط، وهناك من يمد يده إلى المارة فيحسنون إليه أو يمتنعون وهناك مثلي من يسرق.

كبرت وما عدت أسرق كالاخرين، لا أقتحم البيوت ولا أروّع النساء، كل ما أفعله أن أغافل البانيان عن

مكتبة ياسمين

قروشهم وأختلسها بخفة، وغالبًا أشتري بقروشهم بضاعة منهم، وأذهب لبيعها للناس الواردين على أول السوق بثمن بخس، لا يهمني الربح ولا الخسارة، أنا لص ولست تاجرًا، آخذ ما يكفيني ولا أزيد.

يسمونني شنون السرسري، لكني والله لست كغيري من السرسرية، فأنا لا أشرب الكاناواتر فيغيب ذهني لا سمح الله. نعم، كنت أجالسهم وأضحك معهم ويسكرني سكرهم، لكني كنت أتركهم نائمين على الرملة، وأذهب لصلاة الفجر في مسجد المنذري.

كنت حريصًا على الفجر، حتى إن مراد داهوك إن صادفني في ذهابي للفجر، ناداني بشيخ السرسرية، أما بقية الصلوات -سامحني الله- فما كنت أجد وقتًا لها.

تعرف مطرح لصوصها واحدًا واحدًا رغم أنها لا تراهم أو ربما كانت تغض الطرف عنهم، ولا تعرف مراد داهوك رغم أنه يسير بينهم ويحمل بضائعهم على ظهره.

يقولون: لص، فتمتد الأصابع إلى هنا وهناك، ويقولون: مراد داهوك، فلا ترتفع إصبع واحدة، بل تتلفت العيون في قلق، فمن يريد أن يصل إلى داهوك خبر عنه أو أن يكون داهوك خصمه، ولطمة واحدة من كفه كفيلة بأن تصيب أيًا كان بالصمم. وحدهن النساء كن يتبعنه متلصصات على حركته، وينشطن في الحديث عنه.

أذهب أحيانًا لمجالسته عند البحر، أفعل ذلك لأني فضولي، أعرف ذلك وقبلت به، رغم أن أمي حذرتني أكثر من مرة، وقالت لي إنه سينتهي بي الأمر أعمى، مقلوع العينين، إن لم أكف عن تتبع كل ما يدور في

مكتبة ياسمين

مطرح.

كنت أريد أن أعرفه، أن أستطيع الإشارة إليه، أن أقول رأيته وعرفته وأدركت مزاجه، ورغم أنه لا حاجة بي إلى الحشيش فإني فتنت بحركة أصابعه المتأنية وهو يفتته ثم يحشو غليونه به ويشعله، وبعد أن يأخذ نفسًا طويلًا ويكح وتحمر عيناه، يردد بالأوردية كلامًا يسميه «غزل».

أفهم الأوردية كحال من في السوق، لكن الكلام الذي يردده مراد لا يفهم، وعندما أطلب منه أن يفهمني إياه يرد بغضب أحيانًا وبشرود أحيانًا أخرى: «ما لازم».

فحفظت الكلام من دون أن أفهمه، وربما لم يفهمه مراد نفسه إلا أنه كان يعجبني. كنت أراه يردد الغزل وفي كل مرة كان الغزل ينتهي بآهة طويلة تخرج من مكان ما في قلبي لا قلبه، وأحيانًا تسيل على خدي دمعة طويلة، دون أن أدري لماذا.

سألته مرة كم عمرك فأخذ نفسًا طويلًا من غليونه «يمكن من عمر أبوك»، وأنا لم أعرف عمر أبي، لكني لحظتها تمنيت لو كان مراد داهوك أبي، بل وجلبت له مرة قشاطًا من عند باسيف الحلاو، أعجبه القشاط وأكل منه كثيرًا تلك الليلة، إلا أنه لم يمت.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

عندما كبرت علمني أبي أسرار زراعة الغليون، فصرت أقيس رطوبة التراب بإصبعي وبرودة الهواء بأذني، وعند قدوم الشتاء كنا نقوم فننظف الضاحية القريبة من الجبل من الأعشاب ونقلب التربة حتى يدخلها الهواء، ثم إذا ما انتصف البرد نثرنا بذور الغليون الدقيقة كالرمل على التربة الحمراء المختلطة بالحصى.

كان أبي حريصًا في قياس سماد الأرض بالقاشع والعومة حتى لا يزيد المقدار فتسمك الأوراق أو يقل فتضعف، وكنا نقتصد في الماء عند سقيها خوفًا على جذور الغليون من كثرة الماء.

بعد أن ننتهي نجلس لنراقب أوراقه وهي تنبت وتخضر وتعرض، ثم ننتظر حتى ينضجه دخول الصيف، وبعد أن ينضج نحصده ونعلقه في العرشان لتفعل فيه الرياح الغربية اللاهبة فعلها فيجف ويتغير لونه. وعندما نتأكد من جفافه، يأخذ أبي منه ورقة يطحنها بأصابعه ثم يضع المسحوق في باطن فمه ويمصه وعندما يصل إلى رأسه يسبل جفنيه ويبتسم، فأعرف أنه راضٍ عن قوته، بعدها نجمع ورق الغليون في رزم نحملها على ظهور الحمير ونهبط بها إلى البندر.

نفعل ذلك مرتين في العام، مرة نزور جدي وأعمامي الصغار، ونشتري سماد القاشع والعومة، ثم بعد الحصاد نعود مرة أخرى إلى مسقط لنبيع الغليون على التجار في سوق مطرح، فيحملونه بدورهم في المراكب ويذهبون به إلى البحرين والحسا.

كنا نبقى في مسقط شهرًا بين موسم حصاد الغليون وبدء موسوم النخل، فنشتري ما يحتاجه

مكتبة ياسمين

البيت وما توصي به جدتي.

تفاخر جدتي بأنها ربت ابنها ليكون شهمًا كجدها الكبير، الذي تحدرت أصوله من قمة الجبل الأسود، وكان كما وصفته شهمًا لم يترك ضعيفًا أو محتاجًا إلا عاونه وأحسن إليه، والأهم في رأيها أنه لم يترك بلاده من أجل امرأة، بل تركها من أجل أن يشق فلجًا من عند مهابط الماء حتى أرض السيح المنبسطة، وليترك لذريته أرضًا وزرعًا ونخيلًا. وكانت تفاخر أيضًا بأن ابنها أخذ عن جده خفة الحركة والسرعة، وأنه في إمكانه صعود النخلة العوانة في لمح البصر ويحدر عذوق عشرات النخيل في نهار واحد.

في صباح هبت فيه الرياح الغربية بقوة خرجت مع أبي إلى الضاحية، فتحزم أبي بحبل الصوع وصار يصعد بقدميه المتشققتين جذع النخلة، أما أنا فوقفت أنتظره أسفل النخلة العوانة.

من مكاني كنت أسمع سريان الهواء بين سعف النخيل، وارتفاع أزيز الصراريخ، وأصوات البابو والصفرقاو، ثم فجأة هدأت كلها، وما انتبهت إلا على صوت ارتطام جسد أبي بالأرض.

وقفت مذهولًا في مكاني، أشاهد عيني أبي مفتوحتين ومقلتيهما جامدتين في دهشة كأنه لا يصدق سقوطه، فهرعت إليه ووضعت رأسه في حجري وصرخت أنادي على البيادير وأصحاب النخل القريب منا، لم يتأخروا لكن عندما جاؤوا كانت عينا أبي قد اختلجتا مرتين ثم سكنتا تمامًا، وكفه اليمنى انفتحت وأفلتت حبات رطب الخلاص الصفراء.

دفنا أبي ثم عدت إلى البيت الذي ازدحم بالنساء حاملًا حبل الصوع المقطوع، فوضعته عند قدمي جدتي وغادرت إلى مجلس العزاء في سبلة القرية.

مكتبة ياسمين

بعد انتهاء أيام العزاء، مدت إلي جدتي يدها بحبل الصوع بعد أن بدلت حبل الليف المقلود الذي انقطع بحبل جديد، رأيت في عينيها نفس الجمود الذي رأيته في عيني أبي وهو يطالع السماء التي سقط منها، فلم أجد بدًا من العودة إلى النخل.

لم أتسلق النخلة العوانة، بل تمددت تحتها وبقيت أنظر إلى السماء كما فعل أبي قبل أن يختلج جفنه للمرة الأخيرة، وعندما لم أر شيئًا قمت ولففت حبل الصوع على خاصرتي وصرت أصعد به النخلة، وحين وصلت إلى قمتها، استللت المجز من خاصرتي وقطعت به العذوق من منابتها، فسقطت حيث سقط أبي، وتناثر رطبها الأصفر على الأرض.

بعد مدة عرضت أمي وجدتي تزويجي بواحدة من بنات خالي، حتى تكثر ذرية الشهم، فيعينونني على الأرض والزرع، وأنا وافقت لكني أرجأت ذلك حتى أعود من البندر بالقاشع والعومة.

بكى جدي عندما عرف بموت أبي، ونصحني كما فعلت جدتي وأمي بالزواج، لكنه خطب لي أصيلة بنت حمدان الأخت الصغرى لآخر زوجاته، لأن بنات البندر أطرى في الفراش، وأنا تزوجت أصيلة ولا أعرف عن النساء وطراوتهن شيئًا، فرضيت بما وجدت، لكني ما كنت أصبر عن أمي وجدتي ولا عن النخل والغليون، فأردفت زوجتي ورائي قبل أن يكتمل الشهر، وعدت بها إلى الغبة في قافلة من عشرة حمير تحمل السماد.

امتدت سنوات الخصب وتوسعت في زراعة الغليون، وصار لي ولد أسميته سيف على اسم أبي.

مكتبة ياسمين

فريدة

ظننت أمي أني نائمة فلم توقظني وانسلت من البيت، بينما كنت أنا واقعة في برزخ ما بين الحلم واليقظة، يتراءى لي أني أغمس قصبة قلمي في ماء البحر فيصير في دكنة الحبر ويثقل، بينما أنفض ما علق بسنّه فيتحول الرمل وجوهًا ترتسم وتمحى في الآن نفسه؛ وجه أبي وعمتي وما مويزي وناصر وقاسم.

كنت قد استويت على الفراش عندما سمعت باب البيت يغلق، وسمعت خطوات أمي المسرعة في السكة المحاذية للبيت.

أطللت من النافذة فرأيت أمي تهرول صوب البحر، ومن بعيد سمعت خطوات مسرعة وأصواتًا تعلو لتصبح أقرب إلى الصراخ.

«غريقة...».

فزعت ومرت في خاطري كل البنات اللاتي يأتين لحضور الدروس عندي، بتول ومعصومة وزمزم وآمنة وشريفة وعائشة، هل الغريقة واحدة منهن؟ أم أنها امرأة داهمها البحر وهي تغتسل أو تغسل ثيابها فأغراها أو أغرته فتطاول.

وضعت عباءتي على رأسي وتبعت الناس، وعندما وصلت بحثت عن أمي لكنها لم تشعر بي من فرط ذهولها، وكان ذهولها في محله، فما توقعت أن أرى مراد داهوك جثة ملقاة على الرمل وفاطمة وحسن ينوحان عليه.

ما كنت أعرف أنهم يؤنثون الغرقى، فلا فرق إن غرق رجل أو امرأة. بوغت لكن لا أخفي أني تنهدت بارتياح، وربما حمدت الله أن الغريقة لم تكن واحدة من البنات اللاتي أعلّمهن، ثم استغفرت، فحتى لو

مكتبة ياسمين

أني لم أعرف مراد داهوك إلا من الكلام الذي أسمعه عنه، فهو روح، روح رحلت إلى خالقها.

كنت قد لمحته مرات يمشي عند الماء قرب المغيب، والصغار يتحلقون حوله، فيرفع هذا ويطوح ذاك، ويضحكون. كان الأطفال يضحكون لمراد داهوك، لكن فاطمة وحسن لم يذكراه إلا والدمعة على أطراف أهدابهما.

لكن ها هما الآن أمامي ينوحان على الرجل الحاضر في كل مطرح والغائب عنهما، وكأن موته صيره من بعد الظن حقيقة لا رجعة فيها، أو وكأن موته كان عذرًا ليتفجعا عليه علنًا بعد أن خزّنا كل ذلك الحزن في حواصل عيونهما.

أريد أن أقترب منهم، فاطمة وحسن وجثة مراد النائم على الرمل، فتصدني أمي وتعيدني إلى الوراء، وتنكب هي لتهدئ فاطمة، التي صارت صديقتها من دون أن يتقاسما سرًا، بل خيوطًا رفيعة من المصالح تحكمهما وتحكم ما يؤخذ وما يترك بينهما.

ما لي أفكر في كل هذا وأنسى الغريق، الموت الذي أمامي، أتراني صرت منيعة على الحزن بعد أن علمني البحر الموت والهرب والغياب، أتراني فقدت شيئًا من روح الشعر الذي عشت عليه مرددة أبيات المجنون وكُثيِّر وجميل، مجترة كل ما كتبوه في الغزل والعشق والتوله، ترى كل ذلك سقط في قلبي عندما سقطت في الحمى، تتناهبني أرض لم أطأها من قبل وخيارات لم تكن لي، ألست من أجل الكتابة أقسمت ألا أكاتب رجلًا ولو بحرف، أن أخرج قلبي من التثني إلى الصلابة، فلا ألين ولا أؤخذ بما في الشعر إلا من حيث هو كلام يقال ولا يتبعه إلا الغاوون، ثم لو أني كاتبت، من سأكاتب؟ ناصر أم

مكتبة ياسمين

قاسم، وماذا كنت سأقول؟

يحمل الرجال مراد ويأخذونه بعيدًا، وتلتف أمي حول فاطمة المتفجعة لتنهضها، وأنا أسير معهما وأحاول أن أعين أمي على فاطمة، وفاطمة بين صحو وغياب تهذي وتلطم وتنوح، هل هذا ما يفعله العشق بنا؟ لكنه لم يحدث مع أمي، لقد بكت أبي ثم عادت وأخذتني تحت جناحها حتى قبل أن نقوم من رصيف الفرضة.

ألم تعشق أمي أبي كما عشقت فاطمة مراد داهوك؟ أم أن فاطمة أمِنت ما حولها فما عادت تخشى فقدان شيء من بعد زوجها، أما أمي ففقدان زوجها يعني فقدان كل ما تملك، هل كانت تعرف أنها محاصرة بالأطماع والكراهية فجعلها ذلك تستفيق مبكرًا من لجة الحزن وتتماسك؟

بعد أن هدأت فاطمة قليلًا تركناها وعدنا إلى البيت، كانت أمي تمشي صامتة، وما إن وصلنا إلى البيت حتى أمرتني بالاستحمام وفعلت هي كذلك وقالت: «الموت ثقيل»، هكذا إذًا نخفف الحزن بالماء ليرحل في الأرض مع الراحلين.

وضعت أمي بعض المال في شق ثوبها وخرجت إلى السوق، وطلبت مني أن أحمل مع النساء بعض القدور إلى بيت فاطمة. هناك حيث جلب الحمالون الحطب وما اشترته أمي من ميرة، وأشعلت النار وأقيم العزاء على روح مراد داهوك لثلاثة أيام، لم نفارق فيها بيت العزاء إلا للنوم.

في اليوم الرابع عاد حسن إلى البيت والسوق، واقترحت أمي على فاطمة أن تترك البيت بعد انقضاء عدتها والعيش معنا، فأمي تقول إن فاطمة لن تجد عقلها إلا إذا دللناها عليه، وأن العمل والانشغال عن الحزن خير دواء له.

مكتبة ياسمين

لا أعرف بم تريد أمي أن تشغل فاطمة، ولا أعرف إن كانت طريقتها ستجدي، لكنها بالتأكيد عرفت كيف تشغل حسن.

سألتني عن طريقة لتعزي بها حسن وعندما لم أجد جوابًا، أطرقت في حزن، ثم أسندت رأسها إلى جدار الصفة وأغمضت عينيها، ثم فجأة فتحتهما ووثبت على قدميها ودخلت الغرفة، وأخرجت بعض الروبيات وقالت حسن بحاجة إلى حمار.

لم تز أمي سيارة من سيارات الجيش أو القصر أو تلك التي يمتلكها هناقرة مسقط ومطرح، ويثيرون بها الغبار كلما مروا في درب مطيرح متجهين إلى بيت الفلج أو ما وراءه. أمي رأت حمارًا، والله وحده يعلم ما الذي أرادته أمي من تسلية حسن بالحمار، لكن طريقتها نجحت وبعد الحزن الذي رأيناه يتغشى حسن صار له رفيق، وصار هناك من يهتم به أكثر من أي مخلوق آخر، بل ربما أكثر من اهتمامه بأمه.

صرنا ثلاث نساء في بيت واحد، أنا منشغلة بمدرسة البنات التي أنشأتها على سطح الدار، بعد أن عمر فيه حسن وبعض الرجال سقيفة تقينا شمس الصيف، وأمي منشغلة بتجارتها وفاطمة منشغلة بأمور البيت، ولم تعد تخرج إلى السوق ولا إلى بيت الماستر علي. ورغم أن أمي كانت تلح عليها أحيانًا لترافقها إلى بعض البيوت، فإنها كانت تهز رأسها رافضة، فصوتها الذي كان يعلو على كل صوت في مطرح، ما عاد يخرج منها إلا متحشرجًا وبصعوبة بعد ذلك النواح الطويل على مراد داهوك.

توقفت أمي عن الإلحاح عليها، لكنها لاحظت أن لمعة عينيها تغيب إذا ما كلفتها بأمر يحتاج براعة، فصارت تكلفها أكثر وأكثر بصنع لبخات ومراهم

مكتبة ياسمين

ومساحيق للنساء، كانت أمي تبيع ذلك في دكانها، وحاولت أن تضع البيسات في يد فاطمة، لكنها ما قبضت على النقود قط، بل كانت تبسط كفها وتتركها تتساقط على الأرض، فاضطررت وأمي إلى جمعها وحفظها في علبة تنك تخبئها أمي في سحارتها وأمرتني أن أحفر على قاعها بمسمار اسم فاطمة.

حسن لبن

أخذت بيبي مريم أمي مني وعوضتني بحمار.

دست الروبيات في يدي وأمرتني فلم أجرؤ على سؤالها، منذ متى أسأل مريم دلشاد عن شيء؟ قالت سيساعدنا الحمار لنتدبر أمورنا، ولم أعرف أي الأمور التي سيتدبرها الحمار، لكني ذهبت إلى مربط حمير سلوم ود الحص. وزنني الرجل بعينيه وقاسني طولًا وعرضًا، ثم سألني إن كنت قد ركبت حمارًا من قبل، وعندما سكت وترددت في الإجابة:

- أظنك ما تحتاج حمار، يكفيك جحيش.

- ما أريد جحيش، أريد حمار، حمار كبير، كما حمار حمدان بن علي.

- ذاك ما حمار، ذاك بغل.

قال سلوم إن حمدان بن علي يملك مئة حمار وله حظائر في مسقط ومطرح وروي، يؤجر بعضها للمسافرين، ويحمل على بعضها الحصى والرمل من ساحل كلبوة وعينت إلى روي ومعسكر بيت الفلج، أما التي رأيتها أنا بعيني فكان يستخدمها في حمل البضائع من مسقط إلى مطرح أو من مطرح إلى دارسيت وروي.

كل أهل مطرح يعرفون حمدان بن علي بدشداشته المزعفرة ومصرّه الذي يترك جانبًا منه منسدلًا على كتفه، وكل أهل مطرح ومسقط وروي ودارسيت يعرفون حماره الذي يسميه العفريت، ويقال إنه كان حصانًا في الأصل، ثم ربما خسفه الله لأنه كان يتباهى به وبسرعته، فجعل له أذنين أقصر من أذني الحمير، لكني والله رأيت حمدان بن علي يركبه ويرمح به، فعرفت أنه حصان.

«خذ لك جحيش، تركبه ويكبر معاك».

مكتبة ياسمين

كيف يكبر معي؟ هل سيصبح الجحش أخي؟ بيبي مريم قالت حمار ولم تقل جحيش، لكني لم أقل له ذلك، احتملت نظرته الطويلة إليّ وكأنه ينتظر ما سأقول «أريد حمار... حماار كبيير.. ما جحيش ولاجحش».

هز رأسه ثم أشار إليّ أن أتبعه فتبعته.

ذهبنا إلى طرف المربط حيث وجدت حمارًا هائلًا، ربما أقل قليلًا من ارتفاع الدروازة.

- هذا يسمى الصعب، متعود يحمل عليه رمل ومسيلة من كلبوة لبيت الفلج، وإن شحج نهض أهل الوشل كلهم.

حاولت أن أمد يدي لأمسح على ظهره إلا أن الحمار لف رأسه تجاهي ورأيت في عينيه حقدًا، ربما على ود الحص أو صبيه، هل كان يضربه؟ لا دخل لي فيما حدث بينهما، لكني خشيت ألا يفرق الحمار بين ود الحص وبيني، فتراجعت وطلبت منه أن نرى آخر.

انتقل إلى الحمار الذي يليه وكان أضخم من سابقه:

- هذا يسمى المتعافي، باعه صاحبه لأنه رفس خادمه وطلع له مصارينه من فمه.

- ما يوجد معك أصغر شوية؟

- ترا قلت لك خذ جحيش.

- ما أريد جحيش، حمار، أريد حمار، بس شوية أصغر.. ما يوجد؟

- ما لك إلا العاصف، هذا يوم يركض ما تلحقه حتى خيول السلطان.

وأشار ناحية حمار هزيل ربط على مسافة من الصعب والمتعافي.

مكتبة ياسمين

- سلوم هذا هزيل، من سماه العاصف؟!

- أنت حسن لبن ما حمد ود الشيخ علي، وهذا على قدرك، بس أول قولي أنت تعرف تركب حمار؟

- أكيد، أنا أعرف أركب حمار، كل حد في مطرح يعرف يركب حمار، الصغير والكبير يركب حمار.

لا أعرف لماذا قلت ذلك، فأكثر أهل مطرح لا يركبون إلا أقدامهم أو البحر، ويتجنبون الحمير لأنها ترفس وترمح، هز سلوم رأسه، وقرب الحمار «زين، قحم من غير حلس».

رفعت رجلي اليمنى لكن ما إن هممت بالاستواء على ظهر الحمار حتى تحرك، فتعلقت رجلي في الهواء حتى كدت أسقط لولا أن سلوم أمسك بي.

في المرة الثانية أمسك هو بالخطم وساعدني صبيه، فاستطعت أن أستوي على ظهر الحمار، لكني ما لبثت أن انزلقت على الجانب الآخر وسقطت.

ضحك سلوم وشخر وتبعه صبيه الذي كان مكلفًا بعلف الدواب وسقيها، وتلفت رجل كان عابرًا في السوق فابتسم، ثم تجمع العابرون عليّ وصفقوا بأيديهم وهم يستغفرون ويحوقلون.

غالبت الغصة التي كادت تخنقني وضحكت معهم، وكأن ما حدث مجرد مزحة بيني وبين الحمار وسلوم، فصار الرجال يربتون على كتفي، من دون أن أعرف إن كانوا يشجعونني أم يحذرونني.

«الغبن باغي يستوي حمَار... ويمكن راعي خيل»، سمعت الكلمة تخرج من فم سلوم فأحرقتني وأردت أن أرد عليه، لكني سمعت مريم تقول «يوم ترد على الردي تستوي ردي مثله»، وسلوم رديء، ولن أرد عليه، وسأشتري الحمار وسأركبه ثم سأجعله ينهق ويضرط في وجهه، فلنر.

مكتبة ياسمين

تجاهلته فوضع الحلس على ظهر الحمار، وبدأ يعلمني أين أضع قدمي وكيف أستوي على الحلس وكيف أشد على اللجام، ففعلت مثلما قال، وما هي إلا ساعة أو اثنتين حتى صرت أركب الحلس بنفسي على ظهر العاصف وأربطه، وأستوي عليه وإن كان بمشقة، وأمسك بالخطام وأضرب على جانبي الحمار بقدمي وأفرقع بلساني حاثًا إياه على المسير كما رأيت البعض يفعل في السوق، وقبل أن أغادر وجهني سلوم إلى بسطة جمعة بن سويلم فاشتريت ربطتي برسيم: «خلي الحمار يشبع».

سرت بالعاصف في أزقة السوق، كان لوقع حوافره في أذني دقة كدقة الطبل في العرس فصرت أقلب رأسي عليها وكأنني طرب. أبتسم في وجوه الناس مداريًا خوف الوقوع أمامهم وفضيحة لن يسكتوا عنها أيامًا بل ربما شهورًا، أو ربما التصقت بي كما التصق بي اسمي القديم، فيقول الناس في مطرح «حسن لبن؟ من حسن لبن؟ آه.. تعني ذاك الغبن اللي طاح من فوق حمار سلوم ود الحص».

فجأة حرن الحمار ورفض أن يتحرك، وصار يتلفت يمينًا وشمالًا وكأنه يبحث عن شيء ما، ظننت أن الحمار قد افتقد صاحبه وأراد الرجوع إليه، فصرت أسليه، أخبره عن نفسي وعن أمي ومريم دلشاد. أخبرته قصتي عندما وقعت في مرجل اللبن الذي كانت تعده، وأنها لم تغضب، بل منحتني اسمًا جديدًا، أمشي به بين الناس ولا أحني رأسي.

أخبرته بأننا سنذهب معًا إلى روي ودارسيت، وربما ذهبنا مع بيبي مريم إلى بلوشستان، وسألته إن كان يعرف بلوشستان، لكنه سكت، لم يهز رأسه ولم ينهق، فعرفت أنه لا يعرف بلوشستان، فوعدته أني سأتركه يأكل من كل شجر الأرض إن هو أطاعني.

مكتبة ياسمين

تحرك الحمار فعرفت أنه فهمني، لكنه ما لبث أن توقف بعد خمس أو ست خطوات، فنكست رأسي عليه حتى اقتربت من عنقه، وصرت أناجيه وأغني له أغنية حفظتها عن أمي عندما كانت تجلس عند الباب تنتظر مراد داهوك، لكنه لم يتحرك، بل ظل يتلفت إلى حيث ربطت حزمة البرسيم، ففهمت أن الحمار جائع ولن يمشي حتى يشبع.

من دون أن أهبط من ظهر الحمار، التفت إلى حزمة البرسيم وتناولت بعض أعواد منها، وقربتها من فمه علّه يتحرك، لكنه ما تحرك خطوة من مكانه، ثم ما لقيت بدًا من استخدام العصا التي وضعها فريش في يميني، فصار الحمار يمشي قليلًا ويحرن قليلًا، يشحج مرة ويضرط مرة، حتى وصلنا عند الطوي العلوية، فهبطت من ظهره وتناولت حزمة البرسيم وفرشتها أمامه، ونزفت دلو ماء من الطوي ووضعته عنده، لكنه لم يقترب، وظل يتلفت إلى ظهره. ما فهمت ما يريد الحمار، ثم خطر لي أن أفك الرباط وأنزع الحلس عن ظهره، وفحصت ظهره فلم أجد فيه شيئًا، لا جراح ولا قراد ولا شيء.

فككت لجامه، وطبطبت على ظهره وهرشته، فاندفع إلى الأكل والشرب، ثم ما إن انتهى حتى دار حولي ونطحني برأسه أكثر من مرة، نطحات خفيفة وكأنه يلاعبني، ثم عاد فأكمل أكل ما وضعته أمامه.

عندما اكتفى تبدت لي نظرة محبة في عينيه، محبة مثل تلك التي في عين أمي وبيبي مريم، ثم ما لبث أن شحج شحجة عظيمة أظن أن سلوم سمعها من مكانه.

صرت أمسح على ظهر الحمار وأدعو على ود الحص الذي يقيد حميره ويجوعها، متكلًا على المكاري أو المشتري في أكلهن وشربهن، ثم وضعت

مكتبة ياسمين

اللجام في فمه، والحلس مرة أخرى على ظهره وربطته، وحاولت أن أركب عليه، لكني ما قدرت، وما كان في وسعي أن أعود إلى مربط سلوم فيسخر مني هو وصبيه، فعدت ونزعت الحلس عن ظهره وحملته على كتفي، واكتفيت بشد خطامه والمشي بمحاذاته.

أعرف أني لن أركب العاصف، وكل ما عليّ فعله هو الإمساك بخطامه وقيادته، كما رأيت الحمارين يفعلون، وهم يصعدون إلى دارسيت أو يهبطون إلى مسقط، سأضع عليه بضاعة الدكان، أو ستركب عليه بيبي مريم، لكن أتعرف مريم كيف تركب الحمار؟ أم ستقع من فوقه وتتأذى وتكون فضيحة كبيرة، وتلومني أمي وفريدة؟ أكيد أنها تعرف، هي ستركب وأنا سأقودها، وأذهب بها إلى حيث تريد، حتى لو أرادت أن نخوض البحر إلى بلوشستان.

هل يعرف الحمار السباحة؟ أتذكر أني رأيت مرة حمار باخلف يدخل البحر، لكنه ما لبث أن عاد إلى الساحل وتمرغ في الرمل، ليتني سألت سلوم إن كانت الحمير تستطيع الوصول إلى بلوشستان سباحة.

قدت الحمار من خطمه وذهبت إلى مطعم شربهار لأشتري سمكًا مشويًا، وخبزًا من تنور عوض لأتعشى به.

في طريقنا إلى البيت أخبرت حماري عن أمي فاطمة، قلت له إنها امرأة طيبة، لكنها كثيرة العمل ولا تعرف الجلوس، وإن جلست بدأ لسانها في العمل، تعمل في البيت والسوق وفي بيوت الناس، تطبخ وتنظف وتداوي، وتجمع الحكايات من البيوت وتصبها في أذني.

أخبرته بأن فاطمة لولاه لم تضربني إلا مرات

مكتبة ياسمين

قليلة، وفي كل مرة كانت تعود وتدهنني بالزيت والكركم والملح، ثم أخبرته عن مراد داهوك، ملت على أذن الحمار وسألته، تعرف أني غبن؟ مراد داهوك علمني الكلمة أول ما تعلمت النطق «قول حسن الغبن... حسن الغبن»، ثم نادتني مطرح كلها باسم حسن الغبن.

كانت أمي فاطمة وحدها تتصدى لمن يضربني، وتنال بيدها ولسانها ممن ينادونني بالغبن، وعندما كبرت سألتها ما معنى الغبن، فغضبت وأخبرتني قصة طويلة، عن الولد الذي نسيته أمه ووجدته امرأة نائمًا في أقمطته، ولم تعرف كيف تستدل على أهله، فربته من فرط لهفتها على العيال.

لم أعرف كيف ينسى الأهل أولادهم، فأنا حتى اليوم ما نسيت غريب، ابني، الذي دفنت جسده الصغير بيدي في التراب إلى جانب أمه صبرية.

بعد أن فقدت ابني وزوجتي، صرت أجد مراد داهوك عند البحر وقد أفقده الحشيش عقله، وهناك كان يخبرني عن الدنيا، ويخبرني عن نفسي.

أخبرت العاصف عن بيتنا الذي صار خاليًا بعد أن مات مراد وأخذت بيبي مريم منه أمي، أخبرته بأني لا أعرف ما تريد مريم من أمي، ولا أعرف لماذا أمرتني فاشتريته.

كان الباب مواربًا عندما وصلت، فشككت أني نسيت أن أرده ورائي وأضع المغلاق في مكانه، لكني سمعت صوت الكنس على الأرض، فعرفت أن أمي عادت، ربطت الحمار عند الباب ودفعت الباب، تركت الحلس على الأرض، وصرت أنادي عليها:

ماه..

فاطمة...

مكتبة ياسمين

... ماه

... ماه.

خرجت أمي إليّ بثياب نظيفة وقد خلعت الخرق التي كانت تلبسها أيام عدتها، ابتسمت، فرحت لأنها عادت إليّ، لكن ابتسامتها كانت ذابلة ووجهها متعب وكأن عمرها صار مئة سنة.

أخذتها بيدها وأجلستها على الأرض وفرشت أمامها الخبز والسمك، وصرت أنتف السمك وأحشي به الخبز وألقمها، فتقبل مرة وتصد مرة.

«حسن... مراد مات؟»

انتبهت إلى لمعة في عيني أمي وهي تسألني، حاولت أن أتذكر، أين رأيت مثلها من قبل؟

زلموك، هذه عين زلموك صارت في وجه أمي، هل انتبهت مريم لهذه اللمعة في عينيها قبلي؟

«ماه مراد داهوك مات، مات، أنا غسلته ودفنته، أنت شفتيه».

قامت وتركتني، أما أنا فبقيت أمام الخبز والسمك، أنظر إليه ولا تمتد يدي وكأن جوع النهار صار حصى يملأ بطني.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

كان لابد لواحد منا أن يكون عسكريا، وبنية عاكف الضعيفة أقنعت أبي قبل كلام أمي بأنه أشبه بأخواله الذين يحبون الذهب أكثر من الدم، ثم إنني الأكبر ومن الطبيعي أن أرث دم رسلان وتكاليفه، لكن ذلك لا يهم، فأنا بنفسي اخترت المعسكر على البندر، ربما كنت أتجنب الناس في مطرح، أو ربما كنت أهرب من طيف كريمة أو من عيني نوران، لا يهم.

تفكر أمي في نسل رسلان فتلح علي في أمر الزواج، أما أنا فلا أفكر إلا في شريط الترفيع في الرتبة، فتزداد عدد الروبيات في معاشي، ثم ربما رفعت ثانية وصرت ضابطًا.

ربما كنت أخدع نفسي، فلا عماني يصل إلى رتبة ضابط في جيش عمان، فهذه رتبة ليست إلا لضباط الإنجليز أو معاونيهم القادمين من الهند أو عدن أو السودان، أما نحن فأعلانا رتبةً لا يتعدى أن يكون رقيبًا. الكل كان يعرف ذلك، حتى أمي، فأبي بعد كل تلك السنين التي قضاها في الجيش عاد مثلما ذهب، بسروال قصير لا يكاد يغطي ركبتيه وبلط تهرأ من طول تحزمه به.

زياراتي لمطرح قصيرة وإن طالت، فلا وقت يكفي كي يخلع الجندي ثوب العسكر ويعود ليصبح ابنًا للناس، لكني أبذل جهدي كي لا أشعر بالغربة في مطرح، أعود لأصبح ابنًا لأمي وأخًا لأختي التي كبرت، وكما تقول أمي إن موعد زواجها قد فات، وأنا لا أجدها إلا الطفلة الغضوب التي تعلمت مني ومن عاكف كيف تستخدم يديها ورجليها في اللطم والركل.

عاكف كان الأقرب إليها، فما تعودت أن تشكي

مكتبة ياسمين

لي ولم تجرؤ على الغضب في وجهي، لكنه أصيب بلوثة ما عندما عيره أحد الصبية في السوق ونعته بالبيسر، فقرر عاكف بهيكله الضعيف أن يعصي أمي ويترك البيت ونوران ويرحل إلى تبريز بحثًا عن خيط دمنا ليثبت أننا عسكر أذري، ولسنا أسرى حروب يبفوا مرة بعد مرة حتى وصلوا مطرح واستقروا فيها.

هذا ما أخبرتني به أمي، أما أنا فعندما عدت من بوشهر وجدت البيت قد نقص رجلين، أبي وعاكف، ثم نقصني.

«البيت خالي يا نظام».

أعرف ما تريد أمي قوله، فأتجاهلها وأخرج إلى السوق.

في السوق رأيت تلك المرأة، كانت ساهمة تنظر صوبي وكأنها لا تنظر، لا أعرف لماذا حدقت فيها طويلا مثل رجل بلا عقل، وعندما لمحتني جفلت وغطت وجهها وهربت، هربت مني، لماذا؟ لا أعرف، بحثت عنها ولم أجدها.

عدت إلى البيت غاضبًا، من دون أن أعرف ما الذي أغضبني، سمعت أمي تناديني وتحاول أن تقول شيئًا لكني دخلت الصفة وأغلقت الباب خلفي، وجلست حيث تكومت كريمة في ليلة زفافنا، أغمضت عيني علّي أتمالك غضبي، لكني رأيتها ثانية، كان وجهها يظهر ثم تخفيه وراء غشوتها، ثم رأيت كريمة، رأيت عينيها تضحكان ورأيت كحلها قد اختلط بدموعها.

ما احتملت وجودي في البيت فخرجت إلى قهوة حاج موسى متجاهلًا صوت أمي وهي تسألني عمًا بي، جلست جوار عبد الرحيم ساهمًا، أستمع إلى الراديو وما يطلبه لنا أحمد بن محمد الجمالي في

مكتبة ياسمين

كرانشي:

كلبك صخر جلمود
ما حن عليه
وأنت بطرب وبكيف والبيه بيه
قولوله قولوله ما بي لوله
بس الخزر بالعين صاير له سوله

ذهبت إلى المقهى هاربًا من تلك العينين، وعدت إلى البيت هاربًا من صوت سليمة مراد وكلامها الذي أخمنه ولا أتأكد من معناه، يوجع؟ نعم كلامها يوجع، لكني لا أعرف ما الذي يوجعني أكثر، كلام الأغنية أم عيني كريمة التي أراها في كل مكان وفي كل وجه؟

في الفجر التالي رحلت وعبد الرحيم إلى المعسكر، قطعنا الطريق من مطرح إلى بيت الفلج مشيًا كعادتنا، لكني لم أنتبه إلى شرودي إلا عندما لمّح عبد الرحيم إليه، وسألني إن كنت أشكو من شيء، ثم فجأة نصحني بالزواج، ربما كان يمازحني لكني ما ضحكت.

بقيت لأشهر في المعسكر، ومع الوقت تلاشت عينا المرأة الغريبة، وعندما عدت إلى مطرح كنت قد نسيتها، ولولا أن مطرح استيقظت في ذلك اليوم على جثة مراد داهوك التي قذفها البحر، ربما ما كنت رأيتها مرة أخرى أو سمعت صوتها الذي أمرتنا به، أنا وجميع الحاضرين، فأطعناه وكأنه يصدر عن قائد كتيبة في الجيش.

ترددت في السؤال عن المرأة، لكني سمعت اسم مريم يتردد أكثر من مرة في همس الرجال وهم يعودون من المقبرة، فخمنت أنهم يقصدونها، لكني ما ارتحت حتى سألت حسن لبن «تعني بيبي مريم؟

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد؟»

بيبي مريم

مريم دلشاد.

هذا اسمها.

شنون السرسري

لم تكن الشمس قد أشرقت بعذ عندما وضعت صرة أمي على ظهر شاحنة البدفورد وساعدتها على الركوب.

ما قاسمنا ظهر الشاحنة إلا رجل وامرأته وأطفاله. مع ذلك حشرت أمي نفسها في الطرف البعيد فتكومت جنب صرتها، ولولا أنها كانت ترفع رأسها بين حين وآخر لما فرقت بينهما.

مررنا بمحاذاة قلعة بيت الفلج في سحابة من الغبار، فلقينا الماء ما زال يسيل في الوادي رغم أنها لم تمطر على مطرح منذ شهور، إلا أننا لم نتوقف هناك، ولم نقف في روي كذلك بل تجاهل حمدون هندل مزارعها وخضرة ضواحيها ومضى مسرعا، ولم يوقف البدفورد إلا عندما اقتربنا من بوابة العشور فانتشرنا لقضاء حاجتنا في الشعاب.

ملأت القربة بماء من الخرس الكبير الموضوع أمام سقيفة الجند، لنستعين به على حر الطريق وغباره، وعدت إلى البدفورد لأجد أمي في مكانها، وعندما رفعت رأسها وكشفت عن وجهها بدت لي متعبة فسقيتها ومسحت على وجهها بكفي المبتل علّها تنشط، لكنها عادت لتتكوم قرب صرتها، فأسندت كتفي إلى كتفها وغفوت.

وصلنا إلى السيب قرب غروب الشمس، همست لأمي أننا وصلنا فلم تجاوبني، هززت كتفها كي تستيقظ، لكنها لم تتحرك. شعرت بتعبها فحملتها على ظهري وحملت صرتها بيدي.

لم أكن متأكدًا من الدرب إلى بيت ما معيسلانة، لكني أتذكر أننا كنا نمشي مدة في اتجاه البحر قبل أن نتجه يمينًا إلى الحارة، ثم ندخل سكة المزارع

مكتبة ياسمين

إلى البيت الذي تسكنه.

حلّ الليل وضيعني الظلام، وأنا ما زلت أمشي من دون أن أسمع صوت البحر أو أشم رائحته أو ألمح نارًا، أنزلت أمي عند سدرة وأسندت ظهرها إلى جذعها، وأخرجت قربة الماء وحاولت أن أسقيها لكن رأسها سقط على صدرها.

هل ماتت أمي في البدفورد أم لمّا كانت على ظهري؟ لا أعرف، لكني جلست إلى جانبها وعاتبتها على المسافة والتعب الذي لا داعي إليه. قلت لها إنها لو ماتت في مطرح لكنا وفرنا أجرة الدرب وهذا التعب، ثم بكيت، بكيت كثيرًا حتى تخيلت وجهي قد استطال وصار مثل وجه مَا معيسلانة ممتلئًا بالشعاب والسيل.

لا أعرف إن كنت بكيت لأنها ماتت أم لأنها كعادتها تفعل ما تريد من دون أن تعود إليّ ولا تقبل مني رأيًا أو لومًا، لكن على ماذا ألومها؟ موتها أم حياتها؟ على إنجابها إياي في هذه الحياة الكلبة أم على كثرة أزواجها أم على اللشطات على ظهري التي لم أعد أفرق بين أصحابها؟ أم على تركها إياي أسير في هذه الظلمة وحدي؟

عاتبتها طويلًا ثم وضعت رأسها في حجري وغفوت، وعند الفجر جاء رجال ساعدوني على حمل أمي إلى بيت خالتها، التي وجدناها تكنس حوشها، ففرحت برؤيتي ثم بكت على أمي وغسلتها وكفنتها مع نساء الحارة، وعندما عدنا من حفر القبر حملناها وسرنا بها صامتين، ودفناها في مقبرة حارة الشعب.

لم أبقَ في السيب رغم أن ما معيسلانة ألحت، قلت لها إن شغلي كثير في السوق ولا بد أن أعود. لا أعرف إن كانت صدقتني أم لا، لكن شعاب وجهها

مكتبة ياسمين

الطويل سالت، ولا أظنها انقطعت حتى بعد أن ركبت الشاحنة إلى جانب حمدون الذي أفسح لي مكانًا إلى جانبه.

وصلنا مطرح قرب المغرب، حملت صرة أمي وتوجهت إلى الوشل، لكن وأنا أمضي مبتعدًا عن الدروازة، حطت كف على كتفي وأمسكته بقوة، وعندما استدرت وجدت علي جولوه، ينظر إليّ بطريقة لم أفهمها، تدافعت الظنون في رأسي، فظننت أنه أراد أن يعزيني في أمي، لكني استغربت أن الخبر وصلهم قبل أن أصل، ثم خطر لي أن الإنجليز قد بلغوا عن نبقهم المسروق، وأنه خمن أني الفاعل وجاء ليحذرني قبل أن يقبض علي عسكر الوالي.

كنت متعبًا وحزينًا ومستعدًا لأن أقر بأني السارق لو أنه سألني، لكنه اكتفى بأن استدار ومشى في اتجاه البحر فمشيت وراءه، وما إن وصلنا إلى الساحل حتى قال إنه كان يبحث عني منذ أمس وأنه تفقد سدرة خب السمن ولم يجدني وأنه ذهب إلى بيت أمي فوجده مغلقًا بسلسلة من الحديد، وأنه سأل عني لصوص مطرح وسرسريتها فلم يعرف أحد لي مكانًا.

كدت أخبره عن تفاح الإنجليز، لكنه قاطعني قائلًا إن مراد داهوك مات.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

هبط جدنا الكبير صالح بن سيف من حيل الشغف قرب قمة الجبل الأسود ومعه أبناؤه الخمسة، علي وسيف وحمد ومبارك وسعيد، فمهدوا السفح وبنوا فلج الغبة. زرعوا النخل والليمون وأشجار الموز والبرسيم لبهائمهم، وابتنوا لهم بيوتًا من الحجارة تشبه تلك التي غادروها.

وعندما محلت البلاد وانقطع الفلج ومات الزرع تفرق أولاد صالح ولم يتبقَّ منهم في الغبة غير سيف، جدي الكبير، وعلي، وهبط حمد ومبارك وسعيد إلى روي، وهناك حفروا الآبار وزرعوا حولها ضواحي النخل واستقروا فيها هم وأبناؤهم.

تخاصم الإخوة بعد ذلك على النخل فترك حمد إخوته غاضبًا، وبدل أن يعود إلى الغبة هبط إلى مسقط وحفر فيها بئرًا واستقر عندها. في حياته تزوج جدي حمد تسع نساء فصارت له قبيلة أسماها أولاد حمد وتشيَّخ عليها.

هكذا انقسم أولاد صالح بن سيف إلى ثلاثة فروع، أحدها في الغبة ويسمون أولاد علي والثاني في روي ويسمون أولاد مبارك، وثالثهم أولاد حمد في مسقط، وحتى لا ينفرط الخيط أكثر مما هو منفرط زُوِّجت أخواتي زيانة وسعدة أبناء عمومتي في الغبة وموزة في روي وسالمة في مسقط. لذا عندما هبطت إلى مسقط مع مثلى والصغار لتزور بهم أهلها، كانت حمولتنا ثقيلة، فزدنا فوق جربان التمر أواني معدن مملوءة بالسمن والقلية والعسل الذي يجلبه الشواوي من أعالي الجبل وصررًا ملأتها جدتي بالسعتر، ولفائف لحم المشاكيك الذي جففته أمي من العيد الصغير.

سرنا سبعة أيام، ووقفنا للمبيت عند مشارف

مكتبة ياسمين

جحلوت والحاجر والمتهدمات، ثم مضينا في مجرى وادي عدي فمشينا حتى تعبنا فتوقفنا لنرتاح ليلة في سيح مريوح. وفي الصباح التالي توجهنا إلى بوابة العشور، حيث عبث عسكر السلطان بحمولتنا كالعادة، ثم أخذوا نصيبهم منها وزيادة، بعدها أكملنا سيرنا إلى روي، حيث قضينا أيامًا في بيت أختي موزة وسلمناها حصتها مما أرسلته أمي وجدتي إليها.

وصلنا مسقط وقد اكتمل قمر ذي القعدة في السماء، فترجتني مثلى أن نبقى عند أهلها إلى ما بعد العيد الكبير، فما خالفتها وقد رأيت التعب الذي أصاب سعيد وأخته، لكني لا أخفي أني تمنيت لو أني لم أطاوعها لا في قبولي بهبوطها معي والأولاد ما زالوا صغارًا، ولا لإطالة المكوث في مسقط بعد أن صرفت ما حملت معي من التمر في مسقط ومطرح، فحياة البندر لم تعجبني يومًا، ومسقط على ما بها من مزارع نخيل وخضرة فإن أهلها يعتمدون على الثيران في جلب الماء ولا أفلاج عندهم.

قبل أن نعود إلى الغبة بأيام اعترض نوح بن سنجور جمعة طريقي، وسألني عن اسمي فتفاخرت وجاوبته وأنا أدق على صدري «اسمي صالح بن سيف بن صالح بن سيف بن صالح بن سيف الشهم»، فما قبض من اسمي إلا على الشهم، وجرني بذراعي وأدخلني بيتًا من بيوتهم وأشهدني أبوه سنجور جمعة على زواج رجل يسمى عبد اللطيف لوماه بامرأة اسمها مريم دلشاد، ما وجدت لها وكيلًا إلا عمها عيسى عبد الرسول، فعرفت أن الفتاة يتيمة، فشهدت على ما رأيت، ثم غادرت قبل أن تدار علينا الحلوى، أو حتى أشرب فنجان قهوة.

مكتبة ياسمين

وعندما عدت إلى سبلة جدي أخبرته بما حدث، فضحك وأخبرني بأني نجوت من سنجور جمعة، الذي لو أطلت البقاء عنده فسينقضي عمري وأنا أستمع لقصصه وأخباره التي لا تنتهي عن الرسل والأنبياء وما حدث في أول الزمان.

ضحكت مع جدي، لكني تمنيت لو أني جلست مع باه سنجور لأسمع منه قصص الأنبياء وأخبارهم، فأنا لا أعرف من ديني إلا الصلاة التي علمني إياها أبي والسور التي ورثها عن أبيه، وصيام رمضان، أما حكايات الأنبياء وقصصهم فلم يحكها لي أحد ولا أظن أن أبي كان يعرفها، وكل ما أعرفه من الحكايات هي التي كانت جدتي تخبرني بها عن جدها الذي هبط من حيل الشغف، أو عن الظبى والقنافذ والوعلان والذئاب والحصينيات، أو ما كانت أمي تخبرني به عن السحرة والمغايبة.

وأنا أغادر سبلة جدي خطر لي أنه كان على هذا الرجل أن يخبرني حكاية الغبة، بلادنا، أفلاجها وناسها ومن أين جاءوا، لا أعرف ما الجديد الذي كان سيخبرني به جدي، لكني كنت أريد أن أسمع الحكاية منه.

ما سبق لي أن حضرت العيد في مسقط، فوجدت عاداتهم غير عاداتنا، فنحن نذبح وندفن لحمنا في الأرض حتى ينضج، أو نشكه في خشب الجريد ونشويه على الجمر، فنلبس خناجرنا ونخرج للصلاة في سبلة تطل على النخيل، ثم نسلم بعضنا على بعض ونشرب قهوتنا. ثم عند العصر يقوم الرجال فيصطفون وينشدون العازي ويرقصون الرزحة، يلعبون بالسيف وينتخون، وما إن يؤذن المغرب حتى ينتهي العيد ونعود في اليوم التالي إلى أرضنا ونخيلنا. أما هنا في البندر فيهبط الناس إلى الوادي

مكتبة ياسمين

من كل مكان، عرب وبلوش وعجم وهنود، حمر وسمر، كبار وصغار، رجال ونساء، يتحلقون حول صواني الحلوى والقشاط، يلعبون ألعابًا لا فائدة منها، يبذُر الصغار فيها بيسات عيدياتهم، ثم يعودون في النهار التالي ويفعلون ما فعلوه من قبل.

لا أعرف كيف يعيش الناس في مسقط، يشكون الجوع وقلة الحيلة، ثم ما إن دق الطبل حتى رقصوا وراءه.

مكتبة ياسمين

كنت أفتح عيني على زعيق الجند وأغمضهما عليه، وما بينها يدخل علي الحارس بصحن عدس في الصباح وقطعة خبز، مرة في الصباح ومرة في المساء، فينتفخ بطني وأبقى أتلوى طوال الليل.

صرت أنتزع خيطًا من إزاري وأربط به إصبعي، أنقل الخيط من إصبع إلى أخرى كي أعرف كم يومًا مر علي داخل البخار. لا أعرف من أين تعلمت ذلك، لكني كنت حريصًا على العد وكأن أحدًا ينتظرني في الخارج، ماذا لو كان أحد ينتظرني ويبحث عني؟

استيقظت وربطت الخيط حول الإصبع الأولى في كفي اليمنى فعرفت أني في اليوم السادس، مضى وقت الصباح وأنا أنتظر وصول العسكري بالصحن لكنه تأخر، تراهم نسوني مثلما نسيت نفسي؟

قبل الضحى فتح الباب وأمرني العسكري بالخروج، أركبوني البدفورد وسمعت العسكري يأمر السائق أن يذهب بي إلى برزة الوالي في مطرح.

تركنا بيت الفلج خلفنا ومضت السيارة في نفس الدرب الذي جئت منه. رأيت الفلج وشجر السدر والحناء. بانت الخيام والبيوت فمضينا بينها وعبرنا الدروازة والسوق ثم انحرفنا قليلًا، وسارت السيارة ببطء حتى وصلنا إلى مكان قرب القلعة.

سلمني السائق الذي يلبس ثياب العسكر لأحد العساكر مع بروة، فساقني أمامه، ثم بعد خطوات أمرني بالجلوس على دكة حذاء باب كبير واختفى هو وراءه، ثم عاد فأدخلني على رجل عرفت من خنجره وجلوسه وسط المجلس وانفراده بالكلام أنه كبيرهم.

مكتبة ياسمين

سألني الرجل من أكون ومن أين أتيت وما عملي ومن أين حصلت على القروش؟ لم أجبه، بماذا أجيبه، وأنا كأني ولدت على البحر لحظة أن فتحت عينيَ على الشمس والرمل؟

لوح بالبروة أمامي «يقولوا إنك لا تسمع ولا تتكلم»، ثم نادى على العسكري «عشر خيازرين ولا تزيده، شوفه يتكلم ولا لا».

تحملت الضربة الأولى والثانية والعسكري يسألني «أتتكلم ولا لا؟»، أتكلم، لكن ماذا أقول إن كنت لا أتذكر؟

بعد الضربة الثالثة اهتز جسدي وتدفق الزبد من فمي وكدت أبتلع لساني لولا أن العسكري وضع عصاه في فمي.

لا أعرف ما الذي حدث بين ذلك وحضوري في برزة الوالي ثانيةً.

- كأنك مصروع، يقول العسكري زين لحق عليك قبل أن تموت.

كنت مشوشًا، لكني أخبرته بكل ما أعرف من لحظة أن استيقظت عند البحر حتى نومي عاريًا تحت سدرة النبق وما حدث في بيت الفلج.

- إذًا أنت ما عجم؟

- بو كماي، ما يعرف اسمه ولا يعرف يدفع عن نفسه، أكيد عجم.

- ما تعرف اسمك ولا من هين جيت، زين والقروش؟

- لقيتهن في حزامي، أكيد مالي.

- أو سارقنهن من حد.

- أنا ما لص.

- كيف تعرف إنك ما لص إذا كنت ما تعرف أنت

مكتبة ياسمين

من؟

هززت رأسي، ربما كنت لصًا أو قاتلًا أو هاربًا، من يعرف، أنا نفسي لا أعرف.

- يمكن.

- تقر على عمرك بأنك لص؟

- ورب الكعبة ما أعرف.

صعدت أمام العسكري درجات القلعة، وهناك رموا بي في زنزانة أخرى، لكنها هذه المرة كانت أكبر وممتلئة بالرجال.

قلت «السلام عليكم». شخصت العيون وهنيهةً صمت الرجال ثم اختلطت أصواتهم في رد السلام، وقفت في مكاني لا أجرؤ على أن أخطو خطوة بينهم. تكاثرت العيون حتى كدت أضيع فيها، لم أعرف أين أضع جسدي، فأشار رجل تكاد عيناه تخرجان من وجهه فتندلقا على الأرض، إلى فسحة صغيرة إلى جانبه «تعال.. هنا مكانك.. عندي.. تعال... لا تخاف».

مشيت إلى حيث أشار وجلست إلى جانبه، عرفني بنفسه

«أنا اسمي مسعود قشاطة، أقشط البيسات من مخابي الرجال في السوق، ما حد يحس بي، فوق العشرين سنة ما حد حس بي، لين خميس سنورة، الله يلعنه، ما أعرف كيف شاف يدي وهي تدخل مخبا علي جولوه»، «وهذا المدكي على الجدار خليفة السورتي، حظ يا نصيب، لكنه يغطي الورقة بالورقة ويقص على الصغيرين»، «أما هذاك فيسميوه ود الشمروخ، طويل، ينقل رجل ورا رجل ويقحم البيوت، وبو يلقاه يشله، وذاك الجالس بعيد وحده فهو البطل سالم بن ناصر، نسميه البطل لأنه

مكتبة ياسمين

ضرب عسكري شافه يتعدى على حرمة تبيع في السوق ويقلب صينيتها، وأنت؟ مو اسمك؟ من هين جيت؟ مو جابك هنا؟».

ما كان ليصدقني لو أني قلت له إني لا أعرف اسمي، وسيظن أني مجنون لو أخبرته بأني ولدت على البحر من غير أم ولا أب، وأني لا أذكر ما كان قبل ذلك اليوم.

«غبن واحد، خبرنا، ترانا كلنا هنا لصوص وأنجاس».

«اسمي غايب العلص، سرقت فلوس رجال كان نايم عند البحر».

لا أعرف من أين جاء ذلك الكلام، ولا كيف ولّفته، لكني بعد أن انتهيت، أحسست بأني صرت أعرفني أكثر، وكأنه صار لي أم وأب وإخوة وأهل، وبلاد أقول إني منها، كانت لي مهنة، لا بد من ذلك، والآن صارت لي تهمة مثلهم.

مكتبة ياسمين

ناصر بن صالح

كان أبي يقول الجبال زينة البلاد، وكنت متى ما ضاقت بي الدنيا هججت من البيت والسوق والفرضة وجلست عند سمرة بأعلى بقعة أصلها في جبل السعالي، فأرى من هناك أزقة الحارات وأسطح بيوتها، وإذا ما رفعت عيني رأيت القلاع والأبراج القائمة على الجبال، وصواري المراكب ومداخن البواخر في مرفأ مسقط.

اقتربت الباخرة من أرض قطر فوقفت عند الحاجز لأرى البلاد التي سأعيش فيها، فوجدتها بلادًا يحيط بها البحر، وبإمكان العين أن تسافر فيها ولا يمنعها شيء غير حد الشوف، مستوية كقاع الكف لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

توقفت السفينة على مسافة من الفرضة، فهبطنا إلى العبارات وعندما وصلنا الفرضة ووطئت بقدمي الأرض شعرت بها تميد تحتي، وكأني عندما خرجت من بحر الماء هبطت في بحر الرمل.

ترددت للحظات وأنا أحاول أن أستوعب حركة الناس من حولي، ثم تبعت المسافرين الذين هبطوا، وبعد مسافة وجدتني أمشي بين الناس حاملًا صندوق سفري وتعب الشمس والتأرجح الطويل على سطح الباخرة.

لمحت سقّاء يحمل قربة جلد ويسكب منها للعابرين، فدنوت منه وجعلت من كفي كوبًا، سألني الرجل، من أين جئت؟

كنت لحظتها أمد يدي في جيب دشداشتي لأناوله ثمن الماء، فقبض الآنة وقلبها ثم أخفاها بحركة ماهرة من يده ولم ينتظر حتى يسمع مني جوابًا.

سألت الناس عن الدوحة، فدلوني على مواقف

مكتبة ياسمين

التكاسي التي لم تكن بعيدة، فمشيت إليها ووجدت سيارة تكاد أن تتحرك، فحشرت نفسي مع مجموعة من المسافرين.

ثم بعد ساعة أو أكثر وصلنا إلى سوق كبير فهبط المسافرون وهبطت خلفهم، أحمل صندوق سفري وأبحث عن أحد أسأله عن خلف بن سويلم، أو أي من العمانيين في هذه البلاد، لكن الناس كانوا ينظرون إلى صندوق سفري قبل وجهي فيعرفون أني غريب، وربما في ظنهم أني عابر لا أبرح حتى أعود إلى الباخرة التي جاءت بي، فلا يردون علي.

مشيت من عند موقف التكاسي حتى مربط الجمال في السوق ثم عدت، وفي درب عودتي لمحت دكانًا أمامه دكك من الخشب مغطاة بقماش من صوف منسوج، جلس عليها رجال يلبسون الغتر أو يلفونها كيفما اتفق على رؤوسهم وكأنهم بحارة، يقلبون جمر الرشبة ويعبون من دخانها، فعرفت أن هذه قهوة مثل تلك التي يجتمع فيها الرجال في مسقط، لولا أنهم في مسقط لا يدخنون علانية، وأمّلت نفسي بأن أجد عمانيًا بين الجالسين أو يدلني أحد على أماكن سكنهم.

دخلت وسلمت فردوا السلام بخمول وعادوا إلى قصبات الرشبة يعبون منها الدخان ثم ينفثونه، يتحدثون العربية لكني لا أكاد أقبض من حديثهم شيئًا.

جلست على دكة خالية، شعرت ببقايا من هدهدة الباخرة فأسندت ظهري إلى الجدار وأرخيت جفني كي أطرد النعاس، وعندما فتحت عيني ثانية ما وجدت من حمرة الشمس شيئًا.

سمعت صوت الأذان، فتنبهت للصلوات التي لم أصلّها مذ هبطت من الباخرة، فحملت صندوقي

مكتبة ياسمين

وعجلت بالخروج لولا أن استوقفني رجل:

- تريد المسجد؟ دع صندوقك هنا وبنسير نصلي رباعة.

بنظرة من عينيه أمر صبي القهوة فتناول الصندوق من يدي وأدخله، ترددت خطواتي لحظة وتلفت أبحث عن صندوقي وفيه كل ما أملك، فرفع الرجل صوته:

«عايل، انتبه على سحارة الرجال».

تقدمني الرجل فمشيت وراءه، ثم أسرعت حتى حاذيته، في فمي ألف سؤال لكني ترددت أن أسأل.

صلينا المغرب جماعة، ثم قضيت الظهر والعصر والرجل ينتظرني في ركن من أركان المسجد حتى فرغت، فنهض ومشى أمامي في صمت حتى عدنا إلى القهوة، فكان أول ما فعله أن نادى على عايل كي يحضر لي الصندوق:

- جيب معاك فنجان شاهي للخاطر، انشغلنا بالصلاة وما سألتك عن اسمك؟

- اسمي ناصر بن صالح، أنا من مسقط، أسكن حارة ميابين، واليوم وصلت بالباخرة، أدور على حد من عمان أو حد يدلني عليهم.

خبط على صدره:

- أنا يسميوني القلهاتي، عبدالله بن سالم القلهاتي، بلادي قلهات من بعد قريات، كان سمعت عنها، وهذا المكان أنا راعيه، أنت اليوم خاطر عندي، بنتعشى رباعة وبتنام هنا وباكر بإذن الله خير.

هززت رأسي موافقًا، وذكر الطعام سيّل ريقي، فمنذ آخر لقمة لي ليلة البارحة لم يدخل جوفي إلا الماء.

- تعرف خلف بن سويلم؟

مكتبة ياسمين

- من يكون؟

- رجّال أعرفه من مسقط، قال لي إنه جاي الدوحة وبيشتغل في دخان.

- واجد عمانيين يجيوا الدوحة وكثير منهم يشتغلوا في دخان، لكن ما أظن أني لاقيته.

غاب عايل ثم عاد بعد قليل، حاملًا صينية يتوسطها صحن ثريد لم أذق أشهى منه في حياتي، حتى أني شممت فيه رائحة بيت لوماه وطبخ عمتي مريم.

صلينا العشاء في المسجد القريب وعدنا إلى القهوة لأجد عايل قد فرش لي داخل الدكان، كنت متعبًا فسقطت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا على أذان الفجر.

لكن كل ذلك حدث وانقضى وحدث كثير غيره في الدوحة ودخان في السنوات الثماني التي أمضيتها هناك، فمالي تذكرته وأنا أقف في حوش عمتي مريم التي استقبلتني بالفرح وإن مزجته بالعتاب.

مكتبة ياسمين

سألني ناصر عن رسائله التي كان يرسلها مع القادمين من الدوحة، فما عرفت كيف أجيبه. أأنكر أن الرسائل كانت تصلني إلى الدكان فأخوّن من ائتمنهم، أم أقر له بأني طلبت من فريدة قراءتها لي مرات ومرات، خاصة حين كان الشوق يغلبني إلى ولجات، فكنت أشم في كلماته رائحة تلك الأيام الهنية، عندما كان ظل عبد اللطيف يأوي القريب والبعيد، فأنام تحته مطمئنة.

تجاهلت سؤاله، لكن عينيه ظلتا تلحان عليّ، فهمست له بأن فريدة لا تعرف كتابة الرسائل، تجاهلت التعجب في رفعه حاجبيه. أنا لم أكذب، فكيف ستعرف فريدة كتابة الرسائل وأنا لم أسمح لها بذلك قط، ولا أظنها جرؤت على مخالفتي.

كنت قد رأيت خطه في الرسائل، فأعجبني وكأنه نقش بخيط بريسم على حاشية، أما خط فريدة فأنا لم أره إلا في الدفاتر التي ندون فيها أسماء الدائنين والمشترين، كم لهم وكم عليهم، أو تلك القراطيس التي تنسخ عليها أشعار المجانين الذين تسميهم عشاقًا، وتدسها في سحارتها، أو تقرؤها لي وهي تحكي لي حكاياتهم التي تغلي الفؤاد. لعنة الله على العشق والعشاق، يا حسرتي عليهم، ما عرفوا من الدنيا شيئًا، قتلهم العشق وشتت عقولهم.

لا، لم يكن خط فريدة يشبه خط ناصر، لم يكن خطها للرسائل، هذا اتفاقنا، ولن أخجل من أن أخبر به ناصر عندما يزورنا في المرة القادمة، وسيوافقني بالتأكيد، فناصر لا تهون عليه فريدة ولا أظن أني أهون عليه.

شاغلته عن فريدة بالأسئلة، عن الدوحة وعمله والحياة هناك، كان صوته يتلون بين كلام وكلام،

 مكتبة ياسمين

يحكي ما حدث معه من لحظة وصوله إلى الفرضة، ولقائه عبدالله القلهاتي، وما حدث بينهما.

كان يتحدث ويعلو صوته، أظنه متقصدًا إسماع فريدة التي هربت إلى المطبخ لحظة أن رأته، وربما لدعوتها إلى الجلوس معنا لسماع حكاياته. كان يضحك أحيانًا ويضحكني، وكانت الدموع تتجمع في عينيه ويغص بها فلا أملك إلا أن أحول النظر عنه.

متعب، أشعر بتعبه، وكأنه يحمل على كتفه أحمال سوق بأكمله.

قربت إليه الصينية، وقد وضعت عليها خبز الست بوري والسمك المقلي والعدس. سألني عن اللومي اليابس في الدال فقلت له هذه طريقة أهل مطرح، وأخبرته بأن فاطمة تولت المطبخ، وأني ما عدت أضع يدي فيه إلا إن غلبني الشوق إلى بيت ولجات.

قبل أن يغادر سلمني حزمة ثقيلة ملفوفة في مَصَرَ وقال هذه لفريدة، حاولت استبقاءه لكنه تعذر بأشغال له في السوق عليه أن يقضيها، ووعدني وهو يودعني عند الباب بأنه سيعود. كان يودعني وعيناه تختلسان النظر إلى داخل البيت بحثًا عن فريدة فناديتها، وعندما جاءت لتودعه بدا عليهما اضطراب لم أعهده فيهما من قبل.

ما إن أغلقت الباب وراءه حتى وجدت فريدة قد فتحت الحزمة وأخرجت منها دفاتر وكتبًا وجلست تقلّبها. اقتربت منها فرأيت على بعض الدفاتر صورًا لرجال حاسري الرؤوس في ثياب كثياب الإنجليز، وآخرين بعمائم لا تشبه عمائم الرجال عندنا، ورأيت صورًا لبعض النساء، حاسرات الرؤوس وفي عيونهن نظرة من لا يخاف أحدًا.

قرب العصر هبت الريح، فثار الرمل حتى كسا كل

مكتبة ياسمين

شيء، ثم هدأ وصارت الريح الخفيفة تجلب معها السحب وتولفها في السماء حتى تعشقت وحجبت الشمس. صار الوقت وكأنه آخر العصر، فركضت إلى السطح ألملم ثيابنا من الحبال.

هدأت الريح فكنست وفريدة الرمل عن السطح وفرشنا عليه الحصر، وجلسنا متكئات على الروشن. تشاغلت أصابعي بفتل خيوط البريسم وقد عزمت أن أصنع لناصر كمة، بينما تشاغلت فريدة بتقليب صفحات الكتب التي جلبها معه. حكيت لفريدة نتفًا مما حكاه لي ناصر، لكنها ما كانت تصغي إليّ بل لم ترفع عينيها عمّا بين يديها، فشعرت أني أكلم نفسي وسكت.

قبل أن تغيب الشمس بدأ الرهام يهمي، فأغلقت فريدة الكتب التي تناثرت حولها، وأعادتها إلى الصرة وهبطت بها إلى الصفة في الأسفل، بينما بقيت أنا على السطح، أستقبل الرذاذ بوجهي، وأسمع صوت أبي

«سيل سيل سيليه..».

يقف على حافة الوادي ويصفق للسيل حتى يندفع.

لو أني أستطيع العودة إلى لوغان فأسأل عنك، لكنت عرفت إن كنت أنت من لمحته في السوق أم أنه خيّل إليّ، لقطعت الشك باليقين وارتحت.

صعدت فريدة ثانية ووقفت إلى جانبي، تنظر إلى السماء وكأنها ترى شيئًا لا أراه، تستقبل بوجهها حبات الرهام التي تحولت إلى رذاذ فاتسعت ابتسامتها.

زاد المطر فلملمنا حاجياتنا وحملنا الحصير وهبطنا، ثم انشغلنا وفاطمة بلمّ النبسط من الحوش وإدخالها في الليوان.

مكتبة ياسمين

انسكب المطر كما لم أره ينسكب من قبل، فصار الحوش بركة يتسرب ماؤها إلى السكة من خلال مثعب صغير أسفل الباب، ونحن نراقبه من الليوان الذي ما لبث أن وصله الماء فاحتمينا بالصفة وأغلقنا الباب، وكأن بابًا من الخشب سيحمينا إن جاء السيل!

اندسسنا نحن الثلاث تحت لحاف من صوف، نسمع طرح المزاريب طوال الليل مختلطًا بأصوات المطر وهدير الموج. لا أعرف كيف نمنا ليلتها، لكني عندما استيقظت سمعت فاطمة تهذي باسم مراد، ورأيت وجه فريدة وقد اكتمل كالقمر.

توقف المطر قرب الفجر وتفرق السحاب، فنفضنا عنا برودة الليل وقمنا كل إلى شغله. نضحنا الماء عن الأرض حتى صب في السكة خارج البيت، ثم أشعلت فاطمة النار في الموقد لنتدفأ، حتى إذا ما أشرقت الشمس، رفعنا الفرش على السطح وعلقناها على الرواشن لتجف.

الهواء مفعم برائحة الأرض بعد المطر، رائحة الوادي الصغير أمام بيتنا في لوغان بعد السيل، رائحة أبي وهو يرفعني على كتفيه ويركض بي قافزًا على حصى الوادي، هو يضحك وأنا أضحك.

أغمضت عيني وصرت أعبّ الرائحة، وكأنها إن ملأت صدري أعادت إليّ تلك الأيام وأبي، ثم فتحت عيني فرأيت مطرح وقد جلاها المطر حتى صارت عروسًا، برواشنها المخرمة، ومآذن مساجدها البيضاء، وبالعلم الأحمر على قلعتها المغتسلة، واعتكار الماء عند مدخل السوق. نبهني صوت حسن وهو يزعق عند الباب «يقولوا الوادي هبط وشل السوق».

«ويلي يا ويلي، ودكاني؟ وبضاعتي؟».

مكتبة ياسمين

هبطت مسرعة وتناولت عباءتي وأسرعت مع حسن صوب السوق، رأيت الناس تخوض في الماء والعتالين يزيحون الطمي والحصى ويرفعون البضائع التي جرفها السيل.

كان التجار وصبيتهم يحاولون إنقاذ البضائع التي لم تتضرر من الماء، وأنا أحاول الوصول إلى دكاني، فخضت الماء حتى وصلت إلى السكة التي تؤدي إليه، وقد انحسر عنها الماء تاركًا بركًا صغيرة موحلة.

وصلت إلى الدكان فوجدت الماء قد تسرب من تحت العتبات والسطح ورشح من الجدران، فأتلف طاقات الأقمشة، غطى بعضها بالطين واختلطت ألوان بعضها ببعض.

لم أعرف ماذا أفعل في هذه المصيبة، فجلست كما جلس بقية التجار عند عتبات دكاكينهم، رأسي منكس بين كتفيّ، حتى طفرت الدموع من عيني من دون إرادة مني، ثم استغفرت وقمت وبدأت في إخراج طاقات الثياب ومراكمتها عند العتبة. أما حسن فاختفى فجأة وتركني وحدي، ثم بعد مدة لمحته يخوض الماء هو وحماره وقد صنع له سرجًا من بقايا الخرق، خضراء وصفراء وحمراء، وعلق على رقبته الجلاجل، حتى بدا كبقرة البانيان في يوم عيد.

يا إلهي! منذ زمن لم تغلبني ضحكتي، لكني عرفت أني لن أستطيع كتمها، فدخلت الدكان وأغلقت الباب ورائي.

لا أعرف إن كان أهل السوق سمعوا ضحكتي، لكني تمرغت على أرض الدكان الرطبة حتى دق حسن الباب وناداني

«بيبي مريم... فتحي.. خلينا نحمل الطاقات على

مكتبة ياسمين

العاصف ونشلها البيت».

قمت فنفضت ثيابي وفتحت الباب وبقايا الضحكة ما زالت عالقة بفمي وصوتي، كان الطين يغطي قدمي حسن لكن ابتسامة واثقة كانت على وجهه، وهو يتناول طاقات الأقمشة ويحكم وثاقها بالحبل على ظهر حماره الذي لم يسكن لحظة.

نقلنا البضاعة إلى البيت على خمس دفعات، ثم جلست بطيني في وسط الحوش أعاين القماش مع فريدة وحسن ونتفكر في حاله. بعضه تلف كله فرأينا التخلص منه أو استخدامه خرقا أو نرتق به الأثواب، وبعضه يمكن تجفيفه على الحبال، وبعضه تأثرت أجزاء منه ويمكن قصها وبيعه بثمن أقل.

أوجعتني بضاعتي التالفة، لكن أكثر ما أوجعني هو تلف طاقة الشنجهاغي الأخضر، فقد كنت قد خبأت ما تبقى منها وهو كثير، لأصنع منه ثوبًا لفريدة تلبسه في ليلة عرسها.

مكتبة ياسمين

فريدة

سمعت شهقة أمي من الداخل فهرعت لأجدها واقفة عند الباب وقد انزاحت وقايتها قليلًا، أسمع صوتها ويصلني فرحه وحرارته لكني لم أتبين من الكلام إلا «هانت عليك مريم وفريدة؟»

ركضت صوب الباب، ثم توقفت، لا تكلم أمي غريبًا هكذا فمن تراه يكون عند الباب؟

لا أبي في هذه الدنيا ولا أبوها، ولا أخ لي ولا لها، فأي رجل تعاتب؟

أطللت من فوق كتفها فرأيته، للوهلة الأولى لم أعرفه، وربما أنكرته، فهذا الواقف أمامي لا يشبه الفتى الذي غادرنا قبل أكثر من ثماني سنين. لقد تضاعف طوله وعرض صدره، وكأن الغربة أكسبته لحمًا وأمدت في قامته، وخلعت عنه ما تبقى من براءة في وجهه وشقاوة في عينيه، فأنبتت في وجه الصبي لحية كاملة، فصار يشبه أباه أكثر.

تراجعت عن الباب، وأفسحت لأمي حتى تدخله، لمحني خلف أمي فبوغت أيضًا، وكأنه ما عرفني، هل تغيرت كثيرًا منذ أن ودعنا وذهب إلى الدوحة وما وصلنا منه إلا رسائل يحملها القادمون من الدوحة، مرتين أو ثلاثًا في العام.

«كبرت فريدة» تغير صوته الذي كنت أعرفه، ما عاد في نعومة ضحكاتنا على سطح بيت لوماه وفي حوشه ولا في خشونة أول البلوغ عندما هربنا من مسقط. أصبح صوته صوت رجل، مثل صوت أبي، أو مثل صوت أبيه.

لا أعرف إن كنت شعرت بالحرج عندما رأيته، لكن خدي أحرقته نارٌ لم أوقدها، وعرفت أني لن أستطيع أن أقترب منه لأقيس طولي إلى طوله كما

مكتبة ياسمين

كنت أفعل على سطح بيتنا في ولجات، فهربت إلى المطبخ أسفل الدرج لأحتمي بفاطمة.

سألتني فاطمة عن الغريب الذي وضعت له الطعام، فأخبرتها بأنه ناصر، فلم تعرفه، لكن اللمعة عادت إلى عينيها وصارت تطل عليه بين لحظة وأخرى، ثم تعود وهي تهمس باسمه في أذني، وتدور حول نفسها ممسكة بطرف ثوبها وتغني، تدفع بكتفها كتفي وتغني

«سالوك باز وشي... سالوك باز وشي».

عريس جميل، تغني فاطمة وترقص مع نفسها.

لا أتذكر أول مرة رأيته فيها لكن أمي تتذكر، تخبرني عن حضنها إياه على سطح بيتنا في ولجات وعن غيرتي منه ورفضي اللعب معه. أما أنا فأتذكر أني كبرت وأنا ألعب معه، ثم صار معلمي يسمّع لي ما حفظته من القرآن في بيت المعلمة الزون، ويعلمني ما تعلمه في المدرسة. علمني أسماء بعض الحيوانات بالإنجليزية، يؤشر عليها في رسمات كتابه فأعرفها؛ بيبيي، ويطيل في مط شفتيه، نحلة، تصنع العسل الذي تحلّي به مريم دلشاد القروص.

فوكس، حصيني، ويشد ناصر عينيه وأذنيه فيضحكني شكله، «يسكن في جبال مسقط وتسمعيه في الليل يوم تسيري ترقدي»، ثم صار يقلد صوته.

لم أكن قد رأيت الحصيني من قبل، ولم أره حتى اللحظة، لكني عرفت الصوت، ما مويزي كانت تسميه العوعو، وكنت أشعر بالعوعو كدغدغة في بطني وأضحك.

علمني الأرقام من واحد إلى عشرة:

ون، تو، ثري... تن.

مكتبة ياسمين

أعجبني رنين الون والتن، وصرت أنط على مربعات أرسمها على تراب الحوش بقدم واحدة وأنا أردد ون تن... ون تن... ون تن.

لكنه كبر، وصار أبوه يكلفه بأشياء يساعده بها في السوق فصرنا نلعب أقل، وكبرت أنا فما عادت أمي تسمح لي بالصعود إلى السطح معه.

جاء ليودعنا قبل ذهابه إلى الدوحة فعرضت عليه خطي، بالرقعة والنسخ والديواني وكتبت اسم أبي بالخط الفارسي. أعجبته كتابتي وطلب مني أن أكاتبه، أن أرد على رسائله التي سيرسلها من الدوحة، فتبادلت وأمي نظرات لم يفهمها.

لو تعلم يا ناصر كم مرة قرأت لأمي رسائلك، وكم مرة تمنيت لو أرد عليك، فأخبرك عن مطرح وما يحدث فيها، عن شوقي إلى رائحة أبي وبيت لوماه، وحتى لعمتي فردوس وما مويزي.

كانت أمي في بعض الليالي تطلب مني أن أعيد قراءة رسائلك، وتقول: سمعينا أخبار ناصر، فأقرب السراج وأخرج لها رسائلك التي تراكمت في سحارتي وأبدأ في قراءتها الواحدة تلو الأخرى. ورغم أنك لا تقول كثيرًا فيها فإن أمي كانت تستأنس بسماع ما كتبته لها، وتدعو لك، تدعو لك طويلًا، ثم تنظر إليّ تلك النظرة الطويلة، التي تقول فيها كل الكلام الذي لا نقوله، لكني حفظته.

ترى أمي أن مكاتبة رجل أخطر من مجالسته أو الاختلاط به في السوق. هل لأننا عندما نكتب يصبح الخط حبلًا مشدودًا بين اثنين فقط، واحد في طرف والاخر في طرف ولا يستطيع أي إنسان آخر أن يدرك توتره؟

طبعًا لم أخبرك ولن أخبرك يومًا، أصابتني الحمى عندما عجزت عن أن أرد على قاسم، وتركته يسافر

مكتبة ياسمين

من دون أن يسمع مني تلك الكلمة التي أراد أن أقولها له، ولا أعرف الآن حقًا ما الذي كنت سأرده عليه، هل كنت أمتلك ما يكفي من النار في قلبي كي أقول: نعم، أم أن كلامه هو ما أشعل النار، نارًا قوية، لكن حطبها قليل، فلم تشتعل طويلًا.

هل كنت قد أحببته حقًا؟ وإن كنت أحببته، هل كنت سأحتاج إلى تلك الرسالة كي أدرك العشق، ألا يبدأ العشق بنار تأكل العاشق بلا تنبيه؟ أم أني أردته المجنون وأنا ليلاه؟ أو ربما أردت أن أخطو خارج بيت مريم دلشاد وعالمها، أن يصبح لي بيت وأطفال وحياة بعيدًا عن خوف أمي وحذرها، أن أتعلم أكثر، وأن أكتب من دون أن تلاحقني عينا أمي وأسئلتها.

أعرف أنها تخاف عليّ، ولكن هذا الخوف ثقل وصار مع الأيام مثل قيد في رجلي.

لم تظل الحمى، سقتني فاطمة مناقيع مُرّة، ووضعت اللبخات على جسدي حتى يبرد، وسقتني أمي حساء الدجاج، فشفيت في غضون أيام.

رممت الأيام صحتي ولم أبح لأحد برسالة قاسم، بل غافلت مريم ودسستها في نار الموقد، فتحولت رمادًا، ولم أترك نفسي حتى أصبح حكاية في فم النساء كما كانت أمي تحذرني، أو بيتا في قصيدة كحال المجانين.

فبعد كلّ شيء، نحن كما قالت أمي وحيدتان في هذه الدنيا وغريبتان في مطرح، لا أهل لنا ولا رحم، ولن يرحمنا أحد.

أيها الغريب مثلي، هل أخبرتك أمي لماذا لم أكاتبك؟ هل عرفت منها أني لن أكاتبك؟

قاسم لم يتأخر عن سفره في انتظار ردي، ولم يرسل رسالة أخرى مع بتول، وربما لم يكن حضوره أكثر من فضول، نظرات نتلصص بها أحدنا على

مكتبة ياسمين

الاخر.

بعد مدة سمعت أنه تزوج واستقر في العراق. بتول أخبرتني بذلك، كانت حزينة جدًا وبدأت في البكاء، فضممتها إلى صدري حتى هدأت. لكني لم أحزن ولم أفرح، كل ما في الأمر أني شعرت بمغص شديد في بطني يومها وتقيأت عصارة سوداء مثل الحبر.

«هذا سم، أكيد شي لدغها وما انتبهت»، سقتني فاطمة يومها منقوعًا مرًا، وضعت فيه من الأعشاب ما لم تخبرنا به.

وجدت في عودتي إلى الدرس في بيت الماستر جهدًا ما عدت أتحمله أو أريده، فاقترحت على أمي أن تصبح لي مدرستي الخاصة في البيت، أعلِّم فيها البنات القرآن والقراءة والكتابة. وعندما ذهبت لاستئذان الماستر علي، رغم أن أمي لم ترَ حاجة إلى ذلك، لم يعترض، بل أهداني عدة صناعة الأقلام التي كانت لقاسم.

فصرت أكثِر من صنع الأقلام ونسخ شعر العشاق، وأقرؤه لأمي كل ليلة. لم تعد أمي تضحك على جنون العشاق، بل صارت تحزن، تحزن أكثر مني، وكان ذلك يعجبني.

أغدتْ يا ناصر أم أن الذي عاد غيزك؟

أهذا ما يفعله الزمن والفراق بنا؟ ينضجنا في البعد، نتغير، نتحول غرباء، هل صرنا غرباء يا ناصر؟

هل سنلعب ثانية؟ هل ستعلمني ما تعلمته في الدوحة، الكلمات الإنجليزية الجديدة، أكيد أنك تعلمت جديدًا هناك.

هل ستخبرني بحكايات البحر؟

كيف وجدت البحر يا ناصر؟ هل خفت منه؟

خفتُ وأمي أن يأخذك البحر مثلما أخذ أبي وأباك،

مكتبة ياسمين

لكن ما كان لنا أن نعترض، وعندما وصلت أول رسالة منك ذبحت أمي شاة ووزعت لحمها على الفقراء، ولم تحتفظ لنا حتى بالكبد والمعاليق.

وها هو البحر قد تكرّم علينا، وأعاد بعضًا منك إليّ، أو بعضًا مني إليّ.

ربما نقلت رسائلك أخبارك هناك، إلا أنها ما استطاعت أن تحمل عقدة حاجبيك عندما تستاء أو الرعشة في جانب فمك عندما تخبئ عني شيئًا لا ألبث أكتشفه.

نعم، أنكرتك عندما رأيتك، أنكرت الفتى الذي طال في تلك البلاد التي لا أعرفها، أنكرت صوتك الذي يخبئ عني كثيرًا، وأظن أني أنكرت نفسي أكثر، هل ما زلت أنا الفتاة التي تركت يا ناصر؟

بعد أن غادرتنا سلمتني أمي صرة كتب وفي عينيها كلام لم أعرف كيف أقرأه، لكني هربت بها إلى الدهريز ولمست مصرك بحذر قبل أن أجرؤ وأفك عقدته، كنت أعرف ما في الصرة حتى قبل أن أفتحها.

قرأت عناوين الكتب ولمست أغلفتها، بعضها ثقيل، «النظرات والعبرات» للمنفلوطي، الحكيم، طه حسين، العقاد، وبعضها خفيف كأنه ورق حزم، تتشابه أغلفتها وكلها عليها عنوان واحد: «دار الهلال».

مكتبة ياسمين

دلشاد

بعد أن تعرفت إلى الرجال في سجن قلعة مطرح، بدؤوا في الخروج منه الواحد تلو الاخر، وما بقي في الزنزانة إلا أنا ورجل آخر اسمه ساعد بن مسعود، عرفت منه أنه محكوم بمدة طويلة لأنه نبش قبر رجل مات من دون أن يوفي له الذين الذي عليه، ورفض أبناؤه أن يسددوا دين أبيهم، وحلفوا بأن أباهم لو خرج من قبره لما كان دفع إليه قرشًا واحدًا، فقام الرجل وأخرج أباهم من قبره وتركه في كفنه على أرض المقبرة، وعندما عرف أبناء الرجل كادوا يقتلونه، لكن العسكر تدخلوا بينهم فشكوه إلى الوالي، فأمرهم بدفع الدَّين ثم أمر بحبس الرجل.

بعد مدة دخل علينا عسكريان فوضعا القيود في أرساغنا والأغلال في كواحلنا، وساقانا من القلعة إلى الجلالي، أنا لا أعرف أين الجلالي ولا ما يكون، لكني خمنت أنه سجن مثل الذي خرجنا من.

في الدرب رأيت الناس يتركون ما في أيديهم ويصطفون ليتفرجوا علينا ونحن نساق مقيدين. كانوا ينظرون إلينا ويتهامسون، سمعت كلامهم وسبابهم، لكني ما رأيت في عيونهم شفقة.

في كل خطوة خطوتها كان الحديد يحتك بجلدي ويجرحه، خاصة عند صعودنا العقبة وهبوطنا منها. وعندما وصلنا الجلالي عند منتصف النهار كانت جراحنا تدمى.

استلمنا عسكر الجلالي أسفل الجبل وغادر عسكر والي مطرح من دون أن يخلعوا عنا القيود، فصعدنا الدرج إلى القلعة. كان الرجل الذي معي يحسب الدرجات وكنت أردد وراءه وكأني إن أفلت الحساب ضاع مني شيء.

مكتبة ياسمين

واحد، اثنان، ثلاثة، عشرة، عشرون، سبعة وثمانون.

تسعة وتسعون درجة حسبها الرجل، ولوهلة خطر في بالي أنه كان يحسب القروش التي استردها من أبناء الرجل الميت وما هنئ بها.

عند باب القلعة شعرت وكأن حك القيد قد وصل إلى عظمي، فتوقفت قليلًا ريثما يخف الألم، إلا أن كعب بندقية العسكري كان كفيلًا بدفعي إلى تجاوز العتبة.

لم يسألنا أحد عن شيء، لا عن أسمائنا ولا عن تُهَمِنا، غير أنهم ما إن فتحوا باب السجن حتى دفعوا بنا إلى زنزانتين مختلفتين.

لا أعرف كم عدد المساجين في زنزانة ساعد، لكن في زنزانتي كان هناك خمسة عشر رجلًا، كلهم بلحًى طويلة، ويتكلمون العربية بطريقة تختلف عما عرفته في سوق مطرح أو القلعة، ثم فهمت أنهم من قبائل نزوى وإزكي والقابل. لا أعرف أيًا من هذه البلاد ولا كم تبعد عن مطرح، إلا أني رأيت في عيونهم شيئًا لا يشبه ما في عيون الناس هنا.

لا أنكر أني خفت منهم ووقفت محتارا لا أعرف إلى أي ركن آوي وهم بدوا متوجسين مني أيضا، إلا أنهم ما إن رأوا جرح القيد في كاحلي حتى قام رجل منهم يسمونه المداوي، فغسل الجرح وربطه بخرقة. توقف الدم، ثم في تلك الليلة أصابتني الحمى فصرت أنتفض وأتقلب في مكاني. نادوا على الحارس وأخبروه عن حالتي، وأن الجرح والحمى سيقتلاني، علّه يحضر لي طبيبًا، لكنه لم يبال، وأنا لم أمت.

سهروا عليّ وعالجوني ولم يسألوني عن اسمي، لكني سمعتهم يرددون «العويق»، فعرفت أن ذلك

مكتبة ياسمين

صار اسمي. حمدت الله أن الاسم قد لصق بي وأراحني من التفكير في الرجل الذي لا بد أني كنته لكني لا أتذكره.

لا يتنادون قبل أن يسبقوا الاسم بالشيخ، الشيخ سعيد والشيخ أحمد والشيخ إبراهيم، كلهم كانوا شيوخًا، ومن كلامهم عرفت أن مشكلتهم كانت مع الحكومة، وعرفت عن معارضتهم حكم السلطان سعيد الذي يسمونه الجبار، والإنجليز الذين يتحكمون في البلاد.

يذكرون الإمام السالمي والإمام الخليلي، وأنا ربما سمعت في القلعة عن السلطان والإنجليز لكني ما عرفت من يكون الرجلان، ولا عرفت ما يعني الإمام ولا من يكون، فكنت أسمع حديثهم ولا أفهم، إلا أن غضبهم أعجبني.

عند كل أذان كانوا يقومون يصلُّون بنا جماعة وأنا لا أعرف الصلاة لكني عملت مثلهم، حتى تنبه لي رجل منهم وسألني فما استطعت إنكار جهلي، فاستغفر الله وسألني عن اسمي. لا أعرف لماذا سألني عن اسمي ولا أعرف إن كان اسمي شرطًا يسبق الصلاة أم لا، فوجدت نفسي أقول له «اسمي سالم بن ناصر»، ثم أضفت «ضربت عسكري شفته يتطاول على حرمة فقيرة في السوق».

علمني الرجل الصلاة، وعلمني سورًا من القرآن عجزت عن أن أحفظ منها شيئًا غير الحمد، لكنهم بدؤوا يسمونني بالشيخ سالم.

يتسامرون أحيانًا فيحكون حكايات عجيبة عن بلدانهم أو يقولون «سمَعنا مو قال أبو مسلم»، فيعتدل واحد منهم في جلسته ثم ينشد كلامًا لا أعرف من أين يأتي به، كلامًا قويًا يهز القلب، إلا أني لم أفهم منه شيئًا، لكنهم يهزون رؤوسهم له، وكانت

مكتبة ياسمين

أعينهم تحمر من غضب أظنه يتسرب إليهم من ذلك الكلام.

يقدم الحراس الطعام مرتين في اليوم، فلا يأكل المساجين منه إلا القليل، وأحيانا لا تمتد أيديهم إليه ويقولون إنهم نووا الصيام، فكنت آكل حصتي وأحيانا أزيد من حصتهم.

للقلعة ساحة صغيرة، فكان يسمح لنا بالخروج إليها، لنمشي مدة قصيرة كل يوم، حتى لا يتعقد الدم في أرجلنا، فيبتلي بنا العسكر، كما فهمت.

أثناء المشي انتبهت إلى أن أغلالهم أثقل من تلك التي في كاحلي، فعرفت أنهم لن يخرجوا من هذا السجن، على الأقل ليس قبلي.

لم أكن أعرف لزوم القيود فما من عاقل سيفكر في الهرب من هذه القلعة اللعينة، المبنية على صخرة يحيط بها الماء، وترتفع تسعة وتسعون درجة، كما حسبها ساعد بن مسعود، إلا إن أراد الموت.

في ليلة انفجر الرعد كمدفع النوبة عند أذني فاستيقظت، سمعت المطر ينهمر، وأردت أن أغسل وجهي فمددت يدي بين قضبان النافذة الصغيرة، وجعلت من يدي كوبًا أجمع فيه الماء، لكن القضبان أرغمتني على فتح كفي كي أستردها فانسكب الماء منها.

إلا أن بعض القطرات كانت تنفذ فتبلل وجهي وشفتي فألعقها.

كان لها طعم غير طعم الماء الذي نشربه، طعم يذكرني بشيء ما، يلوح في رأسي ثم يغيب دون أن أقبض عليه.

تلك الليلة دخل المطر في أحلامي، فرأيتني واقفًا وسط وادٍ أغتسل منه، كان هناك كثير من الأطفال

مكتبة ياسمين

يغنون للمطر ويصفقون

«هوري بهتري

بسي كين تهاري»

كانت الأمهات يركضن وراء أطفالهن لجمعهم والمطر يغسلهم ولا يبالون.

ثم فجأة ظهر قطيع كلاب، ثم صارت تنبح وتركض ورائي، رميت نفسي في الوادي الذي جرفني، لكني علقت في عروق شجرة كبيرة تمتد على ضفة الوادي، أعلى الشجرة رأيت كلبا كبيرا، عيناه مثل جمرتين.

استيقظت ببرودة في ظهري، فوجدت الماء يملأ الأرض والرجال يحاولون دفعه بأيديهم من تحت الباب ليصب في الخارج، لكنه كان يرتد إلى الداخل.

مثلهم قمت أدفع بالماء لكن الماء عنيد.

عندما سمعنا الأذان وقفنا للصلاة وسجدنا على الماء، ثم بقينا واقفين حتى أشرقت الشمس، فأخرجنا الحرس وأمرونا بتعليق فرشنا على جدران القلعة، الجدران التي لم يكن يسمح لنا بالاقتراب منها.

اختلست نظرة فرأيت البحر وجانبا من الفرضة، عببت رائحة التراب بعد المطر مختلطا برائحة البحر، فشعرت أني أعرف هذا المكان، كانت رائحته لا تشبه رائحة المكان الذي جئت منه، لا تشبه رائحة مطرح.

قلبي يعرف هذه الرائحة التي وكأنها تحاول أن تقول لي شيئا، أن تذكرني بشيء، لكني ما استطعت القبض عليه.

مكتبة ياسمين

ناصر بن صالح

طالت إقامتي في قهوة القلهاتي وأنا أبحث عن عمل، لكن كلما دلني أحد على عمل في مكان، ما كنت أوفق فيه، فعرضت على العم عبدالله أن أجعل للقهوة دفترًا يكتب فيه ما له وما عليه مقابل إقامتي في القهوة حتى أجد لي عملًا ومكانًا يؤويني فوافق، لكن كلينا كان يعرف أن القهوة لا تحتاج إلى دفتر، وأن عرضي وقبوله ما كانا إلّا خجلًا مني وكرمًا منه.

كنت أخرج باكرًا من الدكان وأمشي حتى الساحة أمام قلعة الحاكم، أقف هناك وأنتظر، لكن الإنجليزي الذي وصفوه لم يأتِ، حتى إذا ما مر حوالي شهر وجدته واقفًا قرب باب القلعة، يقرأ من ورقة بصوت عالٍ ومعه رجل عربي يترجم للناس ما يقوله، ففهمت أنه يبحث عن عمال لشركة تطوير نفط قطر في دخان.

رضيت بوظيفة العامل، وكما فهمت أن كل عمله أن يحفر الأرض ويمد الأنابيب، فما كان لي أن أختار أو أن أقدم شهادتي إلى الرجل وأقنعه بأني متعلم، وما كنت لأحتمل بقائي من دون عمل مدة أطول خاصة وأن روبياتي أوشكت على النفاد، فقبلت وأملت أن يصيبني شيء من التطوير الذي جاء في اسم الشركة.

بعد أسبوع تجمع عشرون رجلًا عند القلعة، كان هناك عدد من أهل البلاد وبعض العمانيين ورجلان من دبي وآخر من أبوظبي، وفي الصباح التالي ركبنا شاحنة الشركة وغادرنا الدوحة إلى دخان.

أكثر العمانيين كانوا من ظفار ومسقط، إلا أنني لم أتعرف على أحد منهم إلا واحدًا اسمه مبروك جمعة، كان أبوه ناطور السعيدية وكان يأتي معه أحيانًا

مكتبة ياسمين

ويبقى عند الباب، عيناه داخل السعيدية وجسده خارجها.

اتجهنا ناحية الغرب ومضت بنا سيارة الشركة ساعتين أو أكثر، قطعنا فيها طريقًا وعرة على أرض ممتدة من رمل وصخر. عاد إلي الشعور بالتّيه ونحن نقطع تلك الأرض المنبسطة، التي بلا معالم يقبض عليها إلا شجرة هنا أو هناك.

ثم سرنا بمحاذاة الساحل الغربي فلاحت لنا تلال رملية وبرك ملح، حتى إذا ما اقتربنا بدا لنا جبل، ربما كان في ارتفاع جبل السعالي وراء ميابين أو ربما أقل، لكن ما إن رأيته حتى ثار فيّ شعور بالشوق إلى مسقط.

سألت رجلًا من أهل البلاد عن اسم المكان، «ترا قربنا نوصل الكامب، وهذا يسمى جبل دخان، وهناك فوق، شوف فوق، عند طرف صبعي، نعم هناك فوق، تسمى قرين أبو البول، يوم توقف عندها تشوف البلاد كلها».

كان جبلًا وكان اسمه دخان، وأذكر أني ابتسمت، نعم ابتسمت، لا فرحًا لأني لقيت جبلًا في هذه الصحراء فقط، بل لطرافة وجدتها في الاسم، وتخيلت أنه يخادعنا وأني لو حاولت الإمساك به لتلاشى.

وصلنا إلى موقع العمل عند الظهر، ووزعنا على عنابر السكن في كامب الشركة مع بقية العمال، لم يسألنا أحد مع من كنا نريد أن نكون، لكنهم وضعونا والدبيانيين وأهل أبوظبي في عنبر، وأهل قطر في عنبر آخر.

كنا اثنا عشر رجلا، شغلنا ستة أسرّة من الحديد بطابقين، وكان مبروك جمعة ينام على الفراش أعلاي، أرقني شخيره أول ليلة، لكني اعتدت عليه

مكتبة ياسمين

كما اعتدت أشياء كثيرة في الكامب.

وصلنا دخان والوقت شتاء، كان النهار محتملًا أما الليل فكان برده قاسيًا، برودة لم أعهدها في شتاء مسقط، أما في الصيف فكانت عين الشمس فوق رؤوسنا مباشرة، فكأننا كنا في تنور مفروش بالرمل وتحيط به النار من كل جهة.

يبدأ عملنا بعد الفجر فنحفر في الرمل من الشروق حتى الغروب لمد الأنابيب إلى مسيعيد. نجلس لاستراحات قصيرة، نتناول فيها إفطارنا وغداءنا ثم نعود إلى العمل، حتى إذا ما اقترب الظلام عدنا إلى الكامب، تناولنا عشاءنا ونمنا.

في الليالي التي كان يجافيني فيها النوم كنت أخرج من العنبر حاملًا سراجي وقراطيسي وأجلس على الرمل لأكتب رسائل إلى عمتي مريم وفريدة، حتى إذا ما هبطت الدوحة في الإجازة أودعتها عند عمي عبدالله وهو يرسلها مع أحد العائدين إلى البلاد، إلا أنه لم تكن تصلني أي رسالة من مسقط، وبعد مدة شعرت بالقلق عليهن، لكن ما باليد حيلة، لم أكن أستطيع التوقف عن الكتابة ولا عن الانتظار.

لاحظ الزملاء في العنبر أني أختلي بنفسي كثيرًا وأكتب، ومبروك جمعة أخبرهم بأني متعلم في السعيدية، فصاروا يطلبون مني الكتابة لأهاليهم وصاروا ينادونني بناصر الكاتب، لكني في النهار كنت أترك قلمي وقراطيسي وأعود لأحمل الفأس والمجرفة.

كان العم عبدالله يعاتبني على قبولي بهذه الوظيفة التي كانت بحسب رأيه لمن كانت كل قوته في ساعده «أنت رجّال متعلم، قوتك في عقلك وعلمك، خطك تبارك الرحمن كما في المصحف، وتعرف الحساب، مو جابرنك على ذا العذاب

مكتبة ياسمين

والمهانة؟».

لم أحدث عمي عبدالله عن طموحي في شركة النفط، لكني كنت أعرفه، أعرف أن النفط سينقل هذه البلاد من الفقر إلى الغنى كما في الكويت والبحرين، هذا ما سمعت العائدين إلى مسقط من البحرين والكويت يقولونه، وكنت سمعت عمي عبد اللطيف وأبي يذكران ذلك حتى قبل الحرب، يقولان إن السلطان تيمور وبعده السلطان سعيد تعاقدا مع المساحين وشركات النفط وأنهم فحصوا البلاد طولًا وعرضًا ولم يجدوا شيئًا، قالا وحده النفط سيخرج هذه البلاد من عتمة فقرها إلى نور الله.

وأنا كنت أريد موطئ قدم في الشركة كما يقولون، مكانًا أبدأ منه، وأمنّي نفسي بفرصة لا بد أن تلوح في الإدارة وسأغتنمها، لا بد أن أفعل ذلك.

مرت عشرة أشهر وأنا أحفر في الأرض أو أُعين على وضع الأنابيب التي ستنقل النفط من بئر دخان إلى ميناء مسيعيد ومن هناك سيذهب في بواخر إلى العالم، وتلك الفرصة التي أتمناها لم تلُح.

لا أنكر أن اليأس أصابني، وشعرت بأني لن أبرح مكاني تحت الشمس، وأن الوظيفة في إدارة الشركة حلم بعيد ما دام بيننا وبين الإدارة الفورمن الهندي فرناندز والمهندسون الذين ينظرون إلينا من بعيد ولا يخاطبوننا إلا من خلاله، فكان ينقل إلينا الأوامر بعربية مكسرة يضطر أقدمنا في العمل إلى أن يفسرها لنا.

الأكل قليل وسيئ وكأنه بقايا ما يأكله الإنجليز في مطعمهم، نزدرده من جوع، لكني عندما أعود في الإجازات إلى بيت العم عبدالله، تعوضني عمتي أم سالم بالثريد والقبولي ومرق السمك الذي لم أذق أشهى منه، وخبز الرخال الذي افتقدته منذ آخر لقمة

مكتبة ياسمين

أكلتها في بيت عمتي مريم.

في الدوحة أجلس مع العم عبدالله في القهوة، أو أتجول مع سالم أو أحد إخوته في السوق، أو أختلي بنفسي وأجلس عند البحر وأتخيل أني جالس عند الفرضة بين القلعتين في مسقط.

أحيانًا أقف عند واجهة مكتبة العروبة، أتأمل المجلات والكتب والدفاتر والأقلام، لكني كنت أتردد عند العتبة، حتى تتمكن مني عناوين الكتب فأدخل لأتصفحها، ويندر أن أخرج من دون كتاب يرافقني إلى الكامب.

في آخر زيارة أغرتني رواية لتوفيق الحكيم عنوانها «يوميات نائب في الأرياف» فاشتريتها ونذرت ما تبقى من أيام إجازتي لقراءتها، وعندما سألني العم عبدالله عمّا أقرأ أخبرته بما كتبه الحكيم في يومياته من عناء عمله في الأرياف.

لا بد أن العم عبدالله استبطن كلامي أو لمح في صوتي ما يشي ببؤس الحال في الكامب:

- أنت متعلم، تعرف مو يعني متعلم؟ تعرف كم واحد متعلم في هذي البلاد؟ ليش استعجلت ورضيت حال نفسك بشغل ما يكون غير للجاهل، حتى أنا ما رضيت به.

- لكني طولت عليك وثقلت.. وأنا ما متعود أكون ثقيل على حد.

- ثقل علي أنا أحسن عن يثقل عليك الغريب ويدوسك فوق رقبتك ويعطيك كم روبية، اسمعني من باكر ترخص منهم، وموضوع الشغل ذا علي أنا، نحن ما قليلي حيلة، الحمدلله من زمان نحن في هذه البلاد ونعرف الناس.

شكرت العم عبدالله، لكني فضلت العودة إلى

مكتبة ياسمين

دخان، فما تعودت أن أبدأ عملًا ولا أنهيه، وعملي على مشقته كانت له فائدة، فوحده التعب كان يسليني عن مسقط وفريدة، وكانت له لذة الاستغناء التي تأتي من الروبيات التي أقبض عليها آخر كل شهر، وتجعل المسافة بيني وبين ما أطمح إليه أقرب.

ما كان قد تبقى كثير حتى ننتهي من مد الأنابيب إلى مسيعيد، وكنت أريد أن أرى ذلك، أن أشهد تلك اللحظة التي يتدفق فيها النفط خلال الأنابيب التي حفرنا مجراها ودفناها بأيدينا في الأرض، وفعلًا، قبل أن تنتهي سنة تسعة وأربعين سمعنا هدير اندفاع النفط خلال الأنابيب، شعرت لحظتها بالرضا، وفي الوقت نفسه خطر في بالي أن الوقت قد حان للرجوع إلى الدوحة والبحث عن عمل جديد.

احتفل مهندسو الشركة ومديروها في مطعمهم برأس السنة وبتصدير أول شحنة نفط، وسمعنا نحن من بعيد موسيقاهم وقرقعة صحونهم وصراخ ابتهاجهم، وشك بعضنا في سماع أصوات نساء بينهم.

أعطينا مثلهم رخصة لنحتفل، فجلسنا حول نار أشعلناها وقد خمدت حماسة النهار، وصار الجميع يتكلم في أنه ربما سرحنا من العمل بعد انتهائنا من مهمتنا، لم يكن هناك ما هو مؤكد، لكن قبل أن نقوم للنوم فوجئنا بالفورمن يركض ناحيتنا، ويبلغنا بانقلاب واحدة من سيارات الشركة كانت متجهة إلى الدوحة، وللأسف كان أحد كتبة الشركة العراقيين فيها.

لم أكن أعرف الرجل، ربما التقيته عرضًا مرة أو مرتين، بيد أني حزنت عليه كما الاخرين، وذهبت مثلهم إلى سريري مثقل النفس، لكن بعد أيام تسرب

مكتبة ياسمين

خبر بأن الشركة تبحث عن كاتب بديل، فوجدتني أعبر الحد بين كامب العمال وكامب الإدارة من دون استئذان الفورمن الهندي.

طرقت باب المدير، كنا نعرفه باسم السير دوتن، لأن الفورمن كان يسميه هكذا، عندما ينقل لنا الأوامر منه، فيقول السير دوتن أمر بكذا أو لم يعجبه كذا، لم يكن يكلمنا مباشرة، ولا أظن أني رأيته إلا لمحة من بعيد.

بعربية فصيحة أخبرته بأني متعلم وقدمت إليه شهادة الابتدائية التي تخرجت بها في السعيدية. قلت له إني أعرف الإنجليزية أيضا وأجيد الحساب. تأملني الرجل هنيهةً، ثم طلب مني الجلوس وقدم إليّ قلمًا وورقة وطلب مني أن أكتب رسالة إلى الشيخ أبلغه فيها عن الحادث، فكتبتها بالعربية، وعندما قرأتها عليه هز رأسه، ولا أعرف إن كان فهم شيئًا منها، لكني حصلت على الوظيفة، فودعت مبروك جمعة وزملائي في العنبر وانتقلت من سكني في كامب العمال إلى كامب الموظفين.

أعطوني آلة طباعة من نوع كورونا فتدربت عليها ليل نهار، وصرت في غضون أسابيع أطبع تسعين كلمة في الدقيقة. غالبًا كنت أكتب مخاطبات الشركة إلى الحكومة، لكني أثناء العمل تعلمت أشياء أخرى مثل الاختزال، فصرت أحضر اجتماعات الإداريين وأكتب محاضرها. ظننت أن سير دوتن والفنيين الإنجليز قد وثقوا بي، لكن بعد شهرين عينوا مكاني كاتبًا من الشام اسمه عصمت قنواتي. شعرت بالخذلان لكن السير دوتن ما لبث أن انتقل إلى مقر الشركة في الدوحة ونقلني معه.

في الدوحة عرفت أن شركة تطوير نفط قطر، هي امتداد لشركة النفط البريطانية التي قال السير

مكتبة ياسمين

دوتن أن أذرعها تمتد من فارس حتى آخر العالم، وهو يشرح لي تاريخ الشركة، منذ أن شم ويليم نوكس دارسي رائحة النفط في مسجد سليمان في إيران قبل خمسين عامًا، حتى حصولهم على امتياز التنقيب في هذه الضفة من الخليج، في البحرين وقطر.

ثم فجأة قام من كرسيه وأشار إلى خارطة للجزيرة العربية غلّقت على الجدار وراءه، ووضع سبابته على عمان «الآن جاء دور عمان»، وأخبرني أن الإشراف على تنقيب النفط في عمان قد انتقل من شركة امتيازات النفط المحدودة في البحرين إلى شركة النفط القطرية.

بعد مدة دعاني إلى حفل في نادي كبار الموظفين التابع للشركة، كانوا ستة رجال إنجليزيين في بذلهم الصيفية يتحلقون حول طاولة مستديرة، وكنت العربي الوحيد بينهم، ورغم إنجليزيتي البسيطة كنت أفهم أكثر ما يقولونه، لكنهم كانوا يطلقون النكات التي كان من الصعب عليّ فهمها، مع ذلك كنت أبتسم لضحكهم، وعندما دارت الكؤوس على الطاولة اعتذرت، فربت السير دوتن على ظهري وقال «جود تشاب»، ثم في نهاية الحفل قام الإنجليز ورفعوا كؤوسهم وفهمت أنهم يودعونه.

قمت معهم وقد حملت كأسًا من الماء الذي اضطرب قليلًا عندما فهمت المناسبة، لكني ما لبثت أن تجرعت ما فيه دفعة واحدة عندما عرفت أنه قد تم تعيينه كمندوب محلي للشركة في مسقط.

في تلك اللحظة خيّل إليّ أني ربما عرفت سر دعوتي إلى نادي الإنجليز، أو ربما تمنيت ما خطر في بالي.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

في المعسكر تحولت وجوه أهل مطرح إلى أطياف، تعبر في ذهني ولا تستقر، ولم يبقَ لي من إجازتي إلا قلقي على أمي ونوران، وصارت تلك المرأة تعنُّ على بالي أكثر.

امرأة ذكية، والحزم في صوتها يدل على أنها اعتادت أن تكون سيدة، ربما لهذا سماها حسن بيبي مريم، هو أعلم مني بها، أما أنا فما أعرفه عنها كان من تردد سيرتها على لسان أمي ونوران اللتين لم تذكراها بسوء وإن كانت نوران تنكر عليها مزاحمتها الرجال في السوق.

حسن لبن وحده من يرى وجهها، هكذا يتغامز السفهاء في السوق، يخرج كلامهم غيرةً؛ نساء السوق لا يسدلن الغشوة على وجوههن، والسيدات لا يخرجن من بيوتهن، ومريم تخرج بغشوتها وتجلس في السوق وهذا ما لم تعرفه مطرح من قبل.

أفهم حيرتهم وغيرتهم، امرأة في السوق، تبيع وتشتري، وهم لا يملكون دفعًا لها بعد أن لجمتهم في مجلس الوالي. كانت تلك حكاية تناقلتها الألسن في مطرح بين مستنكر على مريم وشامت في التجار، لكني ما كنت أعرف من تكون مريم التي يتكلمون عنها، ولم يدفعني الفضول حينها لأعرف أكثر.

في تلك الليلة عند البحر عرفت أن لهذه المرأة صوتين، أحدهما حازم آمر للغرباء، وآخر رقيق وحنون لخاصتها، تناجي فاطمة بكلمات لم أسمعها من قبل، ولم يهمس لي بها أحد، لم أسمع أمي تنادي أبي بكلمة تودد واحدة، لم تقل جكر ولا جان ولا شيئًا من هذا الكلام الجميل، ولم أكن أعرف أن

مكتبة ياسمين

كلمات مثل هذه يتلفظ بها أحد غير الشعراء.

لم تنادني كريمة بأي اسم، لكن ربما لو عاشت، ربما لو أني لم أقت... علي اللعنة.

لازمني صوتها منذ تلك الحادثة حتى وصلت إلى بيت الفلج، حيث حل ضجيج المعسكر مكان كل شيء آخر، فالعسكر لا يعرفون الهدوء لا في الحرب ولا في السلم، يخترع الضباط لنا العمل إن لم يجدوه، فيأمروننا بالركض طوال الوقت، وحمل صناديق الذخيرة وتسلق الجبال أو الزحف على الرمل، أو الوقوف مصلوبين تحت الشمس ساعات، ثم نتبادل مناوباتنا في دوريات الحراسة والمراقبة، حتى إذا ما حلّت أوقات راحتنا جلسنا ننظف بنادقنا، ونحاول تذكر وجوه أهلنا وطعم البندر.

بلغنا أن السلطان أمر بإنشاء قوة من ٤٠٠ جندي لتحمي شركة البترول في الحقف، على أن يكون كلهم من أهل الباطنة، لكن أهل الباطنة كانوا غير مدربين، وسيختار الكولونيل عشرة منا لنساعد على تدريبهم.

هذا ما أبلغنا به الضابط الباكستاني قدير خان، وهو يمشي بين صفوف القوة ليختار من يثق بخبرتهم أكثر.

لا يملك الجندي إلا أن يقول حاضر ويذهب حيث يؤمر، ولا أظن أن أيًا منا تردد في الانضمام إلى الفرقة الجديدة، فما كنا قد انضممنا إلى الجيش إلا لنذهب للحرب لا لنعيش حياة الثكنات.

أعرف أن أصابعي تشتاق إلى الضغط على الزناد وأذني تطرب لصوت الرصاص، لكن الرصاص شحيح في مخازن الجيش ولا يطلق إلا في المواجهات الضرورية، والأمور ساكنة في مسقط وما حولها، ومنذ سنين لم نواجه أحدًا إلا ربما ذئاب

مكتبة ياسمين

الوادي وحصينياته، ولا أظن أن أيًا منا سبق له أن قتل رجلًا أو حتى أطلق عليه النار وأصابه.

هكذا وقع علينا الاختيار، أنا وعبد الرحيم حسن ومير عبد الرسول وإبراهيم لال بخش وسعيد بن سالم وحمد بن علي وعبدالله فقير وهلال بن سيف ومرهون بن خلف ويعقوب لشكران، فتركنا حراسة القلعة ومطار بيت الفلج ومخازنه والتحقنا بالقوة الجديدة، قوة مسقط وعمان الميدانية.

لم يقدم إلينا الضابط أي معلومات عن مهمة القوة الجديدة، ولم يخبرنا أين تقع الحقف إلا في كلمة واحدة «بعيد»، ثم أمرنا أن نذهب إلى أهلنا في رخصة مدة شهر، نعود بعدها إلى المعسكر لنلتحق بالقوة التي ستسافر من ميناء مسقط.

وصلت مطرح فوجدت أهلها في جلبة عظيمة، مشغولين بترميم ما هدمه السيل من السوق وبعض الدور.

انشغلت أيامًا في مساعدة الناس على نقل بضائعهم وترميم دكاكينهم، لكن عينيَّ كانتا ترصدان ما يحدث في السوق وكلِّي آذان صاغية لأي حديث يرد فيه اسمها، لكني ما سمعت شيئًا، وخشيت أن أسأل عنها أهل السوق فينظر إليَّ كرجل فضولي، لا ينتبه لحرمات النساء.

بحثت عن حسن لبن، حتى وجدته في نازيمويه يقود حمارًا محمّلًا بطاقات الثياب، ويتجه به إلى حارة الشمال.

ناديته فجفل وتوقف، ارتسم شيء من الخوف على وجهه، فشككت في أنه قد سرق الثياب، لكني لم أتعجل في غضبي بل تلطفت معه وسألته عن السوق وما حدث فيه، فبدت الراحة على وجهه وأخبرني بأنه في طريقه لإيصال ما نجا من الثياب

مكتبة ياسمين

إلى بيت بيبي مريم، بعد أن أغرق السيل دكانها، أردت أن أسأله أكثر، لكني خشيت أن يجفل مني ثانية، أو أن يظن بي ظنًا سيئًا.

تبعته على مبعدة، لا متحرّيًا صدقه، ولكن كي أستدل على بيت مريم دلشاد. وفي أحد الأيام وأنا أمضي في حارات مطرح كعادتي قاصدًا البحر، وجدت نفسي أمام بابها فطرقته، ثم طلبت من المرأة التي فتحت لي الباب أن تنادي مريم دلشاد. لم تتحرك المرأة من مكانها بل بقيت واقفة هناك تتفرس في وجهي بعينيها الزائغتين، ونظرت أنا طويلًا إلى وجهها فعرفتها، هذه فاطمة لولاه التي كانت تصرخ وتهيل الرمل على رأسها عند البحر.

أعدت طلبي أكثر من مرة، لكن المرأة لم تتحرك من مكانها، ثم قبضت على صدر دشداشتي، وصارت تصيح «رجّع لي مراد... روح جيب مراد».

حاولت أن أهدئها، أن أجعلها تُفلت دشداشتي، لكنها ما أفلتت وما هدأت، بل صارت تصيح بأعلى صوت منادية مريم، ثم صارت تنادي أهل حارة الشمال ومطرح أن يساعدوها في القبض على اللص الذي سرق زوجها منها.

خرجت مريم من بيتها، وما إن رأتني وفاطمة ممسكة بدشداشتي، حتى جفلت، تراها ظنتني لصًا؟ ثم وكأنها استدركت وعادت محاولة تهدئة فاطمة لولاه بالكلام، إلا أنها رفضت أن تترك دشداشتي حتى تجمع الناس علينا، بعضهم ضحك وبعضهم ضرب كفًا بكف، وأنا واقف في مكاني، لا أريد أن آتي بأي حركة قد تؤذي تلك المرأة المجنونة.

خرجت شابة من البيت، وبدأت في قراءة بعض سور القرآن على رأس فاطمة، ومريم تمسح على وجهها ورأسها، حتى هدأت وأفلتت دشداشتي،

مكتبة ياسمين

فأدخلتها مريم إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها، من دون أن تنظر إلى وجهي.

عندما وصلت إلى البيت سألتني أمي عن المزق في شق دشداشتي، فأخبرتها بأني التقيت فاطمة لولاه ولم أخبرها أين، لكن ما إن سمعت اسم فاطمة حتى خبطت بكفيها على ركبتيها، وبدأت تحكي لي كل ما حدث في مطرح منذ أن تركتها بعد دفن مراد داهوك حتى عودتي من المعسكر.

شنون السرسري

تركت الحيشان للسرسرية واللصوص، وعدت إلى بيت أمي الذي ما عاد فيه إلا نفحة من رائحة صندلها وبقايا من خرقها.

حبست نفسي حتى دوخني الجوع والبكاء، ثم قمت أبحث عن ما آكله في الركن الذي نصبت فيه أمي حجارة موقدها ووضعت عليه حديدتها التي كانت تخبز عليها.

بحثت عن ما تبقى من التمر والقهوة التي خزنتها في علبة من الحديد جلبتها لها من إحدى شاحنات الإنجليز، وجدت الدويبة قد بدأت في أكل التمر فأكلتها معها حتى شبعت، لكني لم أجد في الدار حتى شربة ماء.

خرجت إلى السوق علّي أجد سقّاء يصب في كفي بعض الماء فأشرب منه وأغسل وجهي، ثم أذهب إلى المقهوي عند أول السوق فيصب لي فنجانًا يعيد إليّ حواسي.

في طريقي صادفت حمدون هندل وبعض الرجال وهم يدفعون البدفورد فدفعتها معهم، حتى وصلنا إلى حوش المصلح غلام.

كنت أعرف حوش غلام، لكن ما كان لي شغل فيه، فسيارات الإنجليز وشاحناتهم لا تلقي ما في بطونها في الدروب فأجدها وأحملها إليه لأبيعها، إلا أني كنت أحب التلصص عليه من الشقوق وكانت يداه الغارقتان في الشحم الأسود تغوصان في بطن السيارة، ثم يتبعها جسده، ولا يخرج إلا وقد اصطبغ وجهه بالزيت الأسود، أو يقعي فيرتق دواليب السيارة ثم يعيد تركيبها في أماكنها.

أوقفنا السيارة أمام الحوش، ووضعنا حجارة

مكتبة ياسمين

كبيرة خلف دواليبها حتى لا تدرج، وعندما خرج غلام حسن لم يلتفت إلينا، بل توجه إلى بطن السيارة ففتحه، فأطلقت بخارًا أحسست بسخونته من مكاني، لكنها لم تكن أسخن من الشتائم التي كانت تخرج من بين شفتيه الغليظتين للسيارة وصاحبها، ومن ساعد على جلبها، والإنجليز، وأهل مطرح والوالي والدنيا كلها.

تفرق الناس وبقي حمدون هندل يناظر سيارته بقلق، فصرفه غلام وأمره ألا يعود قبل ثلاثة أيام، أما أنا فمشيت حتى صرت في الجهة الخلفية من الحوش، ثم قحمت الجدار وقبعت على الجانب الآخر، أتلصص على عمله ويداه تغوصان في بطن السيارة وتخرجان كل مرة بحديدة أو مسمار. استمر هكذا حتى شعرت أنه لم يبقَ من أحشائها شيء، ثم دار حولها واختفى ولم أنتبه إلا ويده تمسكني من قفا دشداشتي ويسحبني خارج الحوش ويدس بيسات في كفي «إذا باغي تسرق ما بتلقى عند غلام شيء، شوية حديد وزيت وخردة، لكن كان باغي تخلي عنك التسرسيرة وتكون منك فايدة، سير وجيب لنا ماي نشربه، وبعدين خطف مخبز عوض وجيب معاك ربطة خبز تنور».

قبضة غلام حسن قوية وإن كان الشيب قد غطى لحيته وشاربه ووصل إلى حاجبيه، له عينان كعيني فتى في فورته، حتى إن البعض كان يقول إن في إمكانه أن يسند البدفورد بظهره ويسحبها بأسنانه بل وأن يقلبها على ظهرها إن أراد.

لم أجبه إلا بهزة من رأسي وركضت مبتعدًا، لكني بعد قليل تنبهت للجحلة في يميني والبيسات في يساري فوجدتها فرصة لأرتوي وأغتسل من الطوي، ثم ما إن انتهيت حتى ملأت الجحلة، وذهبت إلى

مكتبة ياسمين

تنور عوض فاشتريت الخبز، ثم عدت إليه وأذان العصر يرتفع من مسجد الوشل، فوجدته قد استقبل القبلة.

عندما انتهى ناولته ربطة الخبز والجحلة وهممت بالخروج، لكنه أشار لي بالجلوس فقعيت إلى جانبه، عندها أخرج من الصندوق خلفه زجاجتي سمن وعسل، وصار يسكب منهما على الخبز ثم يقطعه ويحشو به فمه، وأنا أنظر إليه علّه ينتبه لتلمظي.

عندما انتبه لتلمظي دفع إليّ بخبزة بعد أن حلاها بالسمن والعسل، فالتهمتها والتهمت التي بعدها والتي بعدها بسرعة حتى غصصت:

«آستا... آستا... بتشك... آستا آستا».

تمهل يا ولد، تمهل.

ضرب بقبضته على ظهري، حتى خرجت اللقمة وكادت كبدي تلحق بها، ثم قام إلى البدفورد مرة أخرى، وغاب رأسه في بطنها بينما بقيت أنا أراقبه، أريد أن أمد يدي لأعاونه لكني أخاف أن يطرق رأسي بالحديدة التي بين يديه.

بث ليلتي وأنا أفكر في يدي غلام حسن، في الدواليب التي يفكها بحديدة معقوفة ثم يحملها ويعيد تركيبها، وفي أحشاء السيارة التي يخرجها قطعة قطعة، في وجهه المغطى بالزيت الأسود والسخام.

في نومي سمعت الغزل الذي كان مراد داهوك يردده ولم يشرحه لي، تراه كما قال لي يحس ولا يفهم أم أنه ظن أن فهمي قليل ولا طائل من شرح الكلام لي؟

استيقظت والكلمات تتردد في رأسي ويكاد لساني ينطق بها، ثم عاد إليّ ما تبقى من حلم البارحة الذي

مكتبة ياسمين

رأيت فيه أمي وقد تحولت إلى صرة من الخرق، ما كدت أحملها حتى تناثرت فصرت ألملمها وأبكي.

تظهر أمي وتختفي بسرعة، مرات تضحك ومرات تبكي، ثم وكأني حملتها في صرتها إلى البحر فوجدت مراد داهوك جالسًا يحشي غليونه ويبكي، سألته إن كان يبكي على أمي فلم يجبني، بل صار يردد الغزل. ثم رأيت أمي تقوم من صرتها وتجلس إلى جانبه، ورأيتني أعود صغيرًا وأقول له: «أنا لا أتذكر أبي»، لكن الكلام تحول إلى الغزل الذي كان يردده بالأوردية عند البحر كل ليلة:

هاستي أبني هباب كي سي هي

آي نوما اش كي سي هي

بدا مراد حقيقيًا، حتى إني لو مددت أصابعي للمسته، لكني لم أفعل، بل استيقظت وأنا أسمع كلماته في أذني، وعندما جلست سقط الكلام في قلبي وشعرت به ثقيلًا ولا يطاق، لكن الشمس كانت توشك على الشروق وغلام حسن ينتظر أن أجلب له الماء الحلو.

قبل الفجر كنت أقف أمام باب غلام حسن وفي يدي جحلة ماء، وفي نيتي أن أسأله عن معنى تلك الكلمات، فرجل مثله لا بد أن يفهم الأوردية، كل الناس في مطرح تفهم الأوردية، حتى أنا أفهمها، لكن كلام مراد داهوك لا يُفهم.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

كنت واقفًا تحت العريش أتحسس أوراق الغليون لأتأكد من جفافها، عندما رأيت غبرة قادمة نحونا من بعيد، ما لبثت الغبرة أن تكشفت عن ناقتين تخبان بنشاط، حتى وصلتا قرب البيت، فأسرعت لاستقبال الضيوف.

اقتربت فتبين لي أن الرجلين اللذين هبطا من على النوق هما جدي صالح وأحد أعمامي الصغار، ورغم استغرابي لزيارتهما فرحت وهششت لهما، لكنهما لقياني بوجهين جهمين وسألاني عن جدتي وطلبا أن آخذهما إليها من فوري ففعلت.

وجدنا جدتي في الزريبة تعشي البقر، ناديتها فخرجت، وقبل أن تتبين الوجوه بادرها جدي بطلب صكوك الأموال، فنظرت طويلا في وجهه لكنها لم ترد عليه، ثم مشت نحو البيت. عندها وضع جدي عصاه أمامها، فتوقفت وطلبت منه أن يغرب عن وجهها.

لم يتزحزح جدي وعمي ولا تزحزحت جدتي من مكانها، وصارا وجهين مقابل وجه، ستة عيون تقدح شررًا، ولأن أربعًا أقوى من اثنتين، ولأني خفت على الغليون والنخل انضممت إلى جدتي فتعادلنا، حينها طلب جدي أن ندخل إلى الدار ونسمع منه، وليتنا ما سمعنا.

أنجب جدي في مسقط تسع بنات ماتت منهن اثنتان في أقمطتهن، وسبعة صبيان ما تبقى منهم غير ثلاثة، أحدهما تعلم في نزوى والثاني في الرستاق أما أصغرهم فقد كان لا يصلح لا للعلم ولا للزرع ولا للقلع، متبطلًا، يجلس في الأسواق أو عند الوادي، أو يمشي بين الحارات يبحث عمن يتعارك معه.

مكتبة ياسمين

عجز أبوه وأخواه عن رده عن الناس، فصار الناس إذا ما رأوه مقبلًا في سكة دخلوا غيرها، وإن انضم إلى مجلس تركوه.

وعندما آن أوان زواجه رفض أهل الحارة تزويجه، فقرر جدي أن يخطب له بنتًا من بنات أولاد مبارك في روي، فشد جدي وأبناؤه رحالهم وقطعوا الجبال الغربية وهبطوا عند بيت الفلج ومنها ساروا إلى روي، وعندما وصلوا فرح بهم أبناء عمومتهم وقربوهم وذبحوا لهم.

قايض جدي بحميدة صغرى بناته وزوجها ابن عمها حمود بن مبارك مقابل أن تتزوج شريفة أخت حمود بابنه المخبول فقبلوا به جاهلين بطباعه، ومكتفين بسمعة أبيه وبالدم الذي يربطهم. بعد مدة زُفّت حميدة من مسقط إلى روي وعادت نفس الراحلة بشريفة زوجة لعبدالله بن سيف، عمي.

وما إن أغلق عليهما الباب حتى فهمت شريفة سر نظرات النساء وهي تزف، فما لبثت أكثر من أسبوع حتى شمع صراخها وهي تشتكيه إلى أبيه وتكشف لأمه عن جسدها المرضوض.

ما طالت المدة حتى هبط أخوها حمود مع زوجته في زيارة لأهلها، فانتحت به وأخبرته بالضرب الذي يصبحها ويمسيها به زوجها المجنون، فذهب الأخ غاضبًا إلى سبلة عمه المطلة على الوادي الصغير، فوجد زوج أخته هناك فهجم عليه وارتفع صياحهما.

يقول جدي إن حمود بدأ بالتعدي على عبدالله وطلب منه تطليق شريفة، فطالبه عبدالله بتطليق حميدة في المقابل. رفض حمود تطليق زوجته، وغضب غضبًا شديدًا ورفع عصاه على عبدالله، فصدها هذا وحمل ابن عمه وألقى به في بطن الوادي، وصارا يتقلبان على الحصى، كل يمسك

مكتبة ياسمين

برقبة الآخر، والناس غير قادرة على فك تشابكهما، ثم خمدت حركة حمود.

يحلف جدي، إنهم ما رأوا يد عبدالله ترتفع بالحصاة، لكن دم حمود كان في كل مكان، فحمله الرجال إلى بيت عمه وهناك صرخت حميدة «وافقري..»، وبكت على زوجها الملقى في دمه أمامها.

عالجت العودة، أم زوجة جدي، الشج في رأس حمود، وبعد عشرة أيام استعاد حمود عافيته، لكنه فقد النظر في إحدى عينيه، فحلف أولاد مبارك أن يقتصوا من أولاد حمد، ولولا تدخل القضاة والمشايخ لثارت بين أولاد العمومة حرب لا يعلم إلا الله كيف كانت ستنتهي.

رضي أولاد العم بمئتي قرش ترضية بدل العين التي انطفأت، وأن تعود شريفة إلى بيت أهلها في روي وأن تبقى حميدة في بيتها تخدم زوجها الأعور الذي فكها من شرط المقايضة.

كان جدي يحكي ما حدث معهم منكسًا رأسه ووجه جدتي يزداد حمرة وعيناها تزدادان سخطًا، ثم طلب أن تعطيه صكوك الأموال كي يبيعها ويفدي ولده، لكن جدتي هبت واقفة فوقف جدي مقابلها، دقت جدتي بعصاها على الأرض قبل أن تتكلم: «سنين ونحن نكد في النخل والزرع، وأنت حتى يوم مات ولدك ما وقفت في عزاه، ولا حتى جيت تعزينا فيه، غسلت يدينك من كل شي، والتو تبغاني أبيع حالي ومالي ونخلي وزرعي من أجل تفدي ولدك المجنون؟».

لكن جدي لم يتزحزح من مكانه، وحلف ليحرقنّ النخل إن هي لم تعطه الصكوك، وهي حلفت بذبحه إن فعل، فتدخلت أنا وعمي بينهما، وطلبت من جدي

مكتبة ياسمين

مدة نفكر فيها في الأمر ونقلبه على أوجهه.

ثم قمت وأمرت بالغداء فوضع، وجلسنا نحن الثلاثة نتباحث كيف نقنع غنيمة بنت علي بأن تجنب أولاد صالح هذه الحرب التي ستهلكهم جميعًا إن لم تُطفأ الآن.

ونحن نتقهوى خطر في بالي أن نقنعها بألا نبيع المال، بل نرهنه عند أحد التجار في مسقط، على شرط أن يضمن جدي أن يعيد المال ويفك الرهن قبل موعده.

اعتزلتنا جدتي يومًا وليلة، ثم عندما وافقت حلفتني برؤوس أولادي وأخذت عليّ المواثيق، أن أعيد إليها صكوك أموالها ما إن تنتهي مدة الرهن، وإلا فإنها ستشكوني إلى ربي يوم القيامة.

مكتبة ياسمين

فاطمة لولاه

يظنون أني جننت عقب غرق مراد داهوك. أرى ذلك في عيونهم وإن لم يقولوه، ليست مريم وحدها بل حتى فريدة وحسن، لكنهم لا يعرفون، هم لا يعرفون شيئًا، وأنا لن أخبرهم. لا أريد أن أخبرهم، فلا دخل لأحد منهم بما يجري بيني وبين مراد، هذه أمور تخص المرأة ورجلها، نرضى أو نتخاصم، ما علاقتهم بذلك؟

غرق مراد ونُحث عليه وبكيته، ثم بعد أن أخذوه بعيدًا عني ووضعوه في التراب، أحضر حسن رجلًا غريبًا قال لي إنه لا يجوز لي أن أغادر البيت مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وعملي في بيت الماستر من سيقوم به؟ وبتول التي لن تجد من يخدمها من سيعد لها الغداء؟ وأهل السوق من سيقلي لهم اللولاه؟ لا أحد يجيد قلي اللولاه مثل فاطمة، كل مطرح تعرف ذلك.

قال الرجل إني لن أضع الطيب، وكأني تعودت أن أتقلب في الصندل والياس والمحلب، أو أني كنت أتعطر لمراد داهوك كل ليلة، ثم قال هامسًا إنه لا يجوز لي أن أتزوج قبل انقضاء العدة، فضحكت، لكنه لم يضحك معي لا هو ولا حسن ولا النساء اللاتي كن يملأن البيت.

ثم جاءت النساء وقلن إنه لا يجوز لي أن أرى القمر، فالقمر ذكر، وألا أخرج من خيمتي إلى الحوش إلا تحت الشمس فالشمس أنثى، وأن أنام وأتوسد الأرض من دون فراش، فالفراش ذكر والوسادة أنثى.

لعنة الله عليهن، جئن إلى بيتي ليعلمنني الذكر والأنثى، وأنا التي أدخلت يدي في أرحامهن لأعدل ما التوى منها وما تنكس.

مكتبة ياسمين

لا يفهمن بكائي عليه، يظنن أن الرجال يكونون رجالًا بطول المكث في بيوتهم، ولا يعرفن أن الرجل يحضر في غيابه أكثر، لكن حتى أمي لم تفهم عشقي إياه، وحدها مريم فهمت ذلك، وحدها لم تعاتبني على بكائي عليه.

هناك رجال وهناك خِرَق، وكان مراد رجلًا، يحمل السوق على كتفيه ولا يتعب، حتى عندما يعود مترنحًا يملأ الدخان رأسه، وعندما أرفع صوتي عليه وألعنه وأشتمه، وعندما يعطيني ظهره وينام، كان رجلًا، ولم يكن مثل رجالهن، خرق ربطنها بحبل قصير من الأولاد.

نحن لم نعرف ذلك، لم يكن لنا أولاد، رغم أني أردت ذلك أكثر من أي شيء في الدنيا، إلا مراد، فمراد كان كل شيء.

عندما أخذت حسن ووضعته في حضني، غاب هو، لم يرضَ بأن يكون له شريك فيّ، وأنا ما كنت أريد له شريكًا فيّ ولا أن يكون لي شريك فيه، لكن الله أعطاني حسن، وضعه خلف خيمتي فسمعت بكاءه وتحرك قلبي وصار ابني.

لم يسامحني مراد على حسن أبدًا ولم يقبله، وحتى بعد أن كبر وصار رجلًا لم يجد حسن في مراد أبًا، مع ذلك بكيته أنا ودفنه حسن، من كان سيدفنه لو أني لم أضع حسن في حضني؟ أأتركه للغرباء؟

لست مجنونة، ولكن النساء اللاتي يملأن بيتي في النهار يغادرن قبل الغروب ويتركنني وحدي، فأجلس أنتظره، وكان يأتي أحيانًا وأحيانًا يغيب، وعندما سألتني مريم عن الصحن الذي أخبئه، أخبرتها بأني أبقي لمراد صحنًا من طعام الغداء وأنه يأتي في الليل ويأكله، ثم ينام إلى جانبي.

مكتبة ياسمين

لم تقل مريم شيئًا، لكن ما إن أنهيت الشهور الأربعة والأيام العشرة التي تلتها، حتى طلبت مني أن أنتقل إلى بيتها. قالت إن بيتها أقرب إلى البحر وأن مراد لن يضطر إلى المشي مسافة من البحر حتى يصل إلى جبروه، أردت أن أقول لها إن مراد لا يتعبه المشي إليّ، لكنها قالت إن بقائي في جبروه يُحزن فريدة، وأنا لا أطيق حزن فريدة فذهبت معها، صار مراد يزورني كل يوم، لكن أحدًا لم يره غيري، وأنا خبأته في بطني وصار يسبح في داخلي مثل السمكات الصغيرة التي حلمت بها.

سمعت حسن يكلم نفسه ويقول «مثل لمعة عين زلموك»، فنظرت إلى المرآة التي تعلقها مريم في غرفتها، لم أجد اللمعة، لم يكن زلموك من أطلّ من عيني، لم أجد إلا وجهي وعيني.

يظنون أني مجنونة لأني أرقص عندما أرى مراد قادمًا نحوي، هم لا يسمعون الطبول التي أسمعها، كما في ليلة عرسنا، النساء تغني فأغني معهن، يقترب مراد فأدور حول نفسي وحوله وأتغنج له.

هم لا يعرفون شيئًا، وأنا ما عدت أهتم ما داموا يتركونني معه.

مكتبة ياسمين

ناصر بن صالح

ترك لي والدي بيتًا في ميابين، ليوان وصفة وزاوية كنا نستخدمها مطبخًا، وحوشًا به كنيف في طرفه. بالطبع لم يكن بيتنا مثل بيت لوماه، ولا حتى كبيت عمتي مريم في مطرح، لكنه كان مبنيًا بالحجارة والصاروج ومصبوغًا بالنورة البيضاء، له نوافذ من الخشب وباب كبير حفر إطاره بأغصان وورد، وفي جانب من الحوش بئر صغيرة يأتي ماؤها من شراج جبل السعالي.

أراد أبي أن يعمر صفة جديدة لتكون لي وأتزوج فيها، قال إن وقت الحرب مناسب للبناء، فالرجال عاطلون والرمل كلفته بكلفة الحمارين اللذين يجلبانه، وتجارة عبد اللطيف لوماه راكدة لا تستدعي الركض طوال النهار بين الفرضة والمخازن والدكان، فاستأجر رجالًا جلبوا الرمل من ساحل كلبوة واقتطعوا الحجارة من طرف جبل شطيفي، لكنه غرق قبل أن يبدأ الرجال في مزج الرمل بالماء.

وضعت البيت في عهدة الأستاذ علي إلياس، فاعتنى به ورمم نواحي منه كنت أهملتها، وأجّره لعائلة من صور كما أخبرني في رسائله، وكان يحتفظ لي بالمال، إلا أنني أخبرته في رسالتي الأخيرة بأني عازم على الزواج، وطلبت منه أن يخليه من المستأجر، وأن يأخذ إذنًا من السيد ليبني صفة إضافية، بما تجمع عنده من المال.

كنت واثقًا بأني سأعود وسأتزوج فريدة، ولم يخطر في بالي ولا للحظة أن تكون لغيري. ثماني سنوات أرسل رسائل لا يرد عليها أحد، لكني لم أفقد الثقة بأنها تنتظرني، لا بد أنها تنتظرني. متأكد من أن ما نبت في صدري، لحظة أن ناولتها خلخالها في سوق مسقط، نبت في صدرها وأن الغصن الذي

مكتبة ياسمين

تفرع في قلبي ونما تفرع في قلبها أيضا.

عندما انتقلت إلى العمل في الدوحة سكنت مع جماعة من العزابية من عمان. كان بيتًا صغيرًا وكان الحر والرطوبة يحولانه إلى جحيم في النهار، أما في الليل فيجتمع الرجال على السطح ويسهرون في لعب الكوت والدومنة، أما أنا فما كان لعب الورق يروقني ولا نقل الحجر، فكنت أعتزلهم وأستغرق في القراءة.

بعد مدة تركت البيت وسكنت مع جماعة من العرب يعملون في دائرتي الصحة والمعارف، وعلى الرغم من أني بدوت غريبًا بينهم فإنني تعلمت منهم كثيرًا عن بلدانهم، العراق ومصر والشام، وعندما رأوا انكبابي على القراءة بعد عودتي من عملي في الشركة، حفزوني لإكمال دراستي.

قال لي الأستاذ أحمد عيسى إن ترقيتي في الشركة ستحتاج إلى ما هو أكثر من شهادة السعيدية، وإن المستقبل للعلم، وإن قطر تعتزم خلال مدة قصيرة افتتاح مدرسة ثانوية، ووعدني أن يعمل على أن أكون من منتسبي الدفعة الأولى، وهذا ما كان فعلًا، فصرت أعمل في الشركة حتى وقت الذهاب إلى المدرسة مساء.

بعد أن غادر السير دوتن إلى مسقط صار السيد جون ميلكوي رئيسي بدلًا منه، وشجعني مثلما شجعني الأستاذ أحمد عيسى على استكمال دراستي فتحصلت على شهادة الثانوية، وعندما قدمتها إليه ربت على كتفي كما فعل السير دوتن من قبل وقال: «جود تشاب»، لكن الجود تشاب هذه لم توصلني إلى مكتب الشركة في مسقط، بل نقلتني إلى قسم الاتصال التجاري لأصبح واحدًا من مساعدي رئيس القسم السيد وليم سكوت.

مكتبة ياسمين

لا أعرف إن كان للسير دوتن فضل في اختياري، لكني أعرف أنه ليس من قبيل الصدفة أن أختار لأكون في مكتب السيد سكوت، ليس فقط لأنه يرأس قسم الاتصال التجاري، بل لأنه كان المسؤول عن الاتصال بالمندوب المحلي في مسقط، الذي عن طريقه كانت تردنا البيانات عن تطورات العمل في آبار مناطق الاستكشاف، وعرفت منه ما كان يحدث داخل عمان من حروب ومواجهات بين السلطان والإمامة.

نويت أني بعد أن أتزوج سأعود وأكتري بيتًا صغيرًا قرب بيت العم عبدالله القلهاتي، وفي غيابي في العمل ستعتني العمة أم سالم بفريدة كما تعتني بزوجات أبنائها: «خليه بس يجيب حرمته ولا يحاتي، لها بدل العين ثنتين»، هذا ما بلّغني به العم عبدالله عن زوجته، العمة صفية، أو أم سالم كما يسميها عايل.

للعم عبدالله خمسة أولاد، أكبرهم سالم الذي يصغرني بسنوات قليلة، متزوج بابنة خاله القريب من بيت العم عبدالله، وله ابنان ناصر، وعبدالله الذي أخذ اسم جده، رأيتهم يتسللون من داخل البيت ليلعبوا في المجلس ويتعاركوا بين وسائده، ولم يكن العم ينهرهم بل يحملهم كلًا على ذراع ويدخلهم البيت ثم يعود.

كنت قد عزمت على أن أخطب فريدة، ولا أظن عمتي ستردني، لكني بقيت مترددًا، ولم أجرؤ على ذلك إلا في زيارتي الثالثة لهما.

«عمتي أريد فريدة، أريد أتزوج فريدة على سنة الله ورسوله».

هذا ما قاله لي العم عبدالله عندما سألته عن صيغة الخطبة

مكتبة ياسمين

«قول بغيت بنتكم على سنة الله ورسوله».

خشيت أن طلبي باغت عمتي، فقد ظلت تنظر إليّ مدة ثم وضعت كوب الشاهي والدلة من يدها، وقامت من دون أن تقول كلمة.

نظرتها الطويلة ثم فراغ المكان الذي جلست فيه قبالتي، أشعرتني بأني ربما أخطأت في طلبي.

أوجدتني عمتي مريم لا أناسب فريدة بنت عبد اللطيف لوماه؟ هل كان طموحي أعلى مما ينبغي لابن ماسك الدفاتر؟

طال غياب عمتي حتى يئست من عودتها وما جرؤت على مناداتها. شعرت بأن بقائي ما عاد له ضرورة، فقمت إلى الباب، وقبل أن تمتد يدي لتزيح خشب مغلاقه، سمعت صوت عمتي «هين ساير؟ ما لك مستعجل؟».

توقفت مكاني والتفت ناحيتها، كانت تحمل صينية الغداء، وتكاد تضعها فأسرعت إليها لأتناولها منها.

في عينيها نظرة غير تلك التي كانت قبل أن تقوم «مد يدك ولا تستحي من عمتك»، ترددت في مد يدي وعيني مشغولة بالبحث عن فريدة «لا تدور فريدة، ما عندنا بنات يجالسن معاريسهن».

وابتسمت بملء وجهها وعينيها، فاضطربت حتى كدت أغص باللقمة، فناولتني كوب ماء.

«فريدة بنتي وريحة عبد اللطيف وكل ما أملك، وأنت كما ولدي، ربيتك في بيتي وتحت عيني وعين عبد اللطيف، وفي مطرح نحن غرب، وما حد يعرف خبرنا وكيف جينا من مسقط غيرك، وأنت سافرت وتأخرت في الدوحة ولو ما رسايلك كانت قلوبنا يبست، قلت لفريدة ناصر طابت له الدوحة ويمكن ما بيرد، لكنها ما ردت علي.

مكتبة ياسمين

خطبوها كثير من الناس، تجار ومتعلمين، لكنها ما قبلت حد من خطابها، ويوم أسألها تقول: بعده النصيب ما جا، وأنا ما أعرف إن كنت أنت نصيبها.

أنت تعرف أن الزواج ما غصب، وبو غصبت ما عمرت، لكن تعال زور عمتك بعد كم يوم، وإن شاء الله بناكل حلواكم قريب».

كل ما استطعت قوله هو إن شاء الله، وبقيت أرددها في سري بعد أن توقف لساني، ثم قبلت يد عمتي وخرجت.

سالوك... سالوك باز وشي.

كان صوت المرأة الغريبة يأتي وكأنه يغني وسمعت صوت صفقة كفيها، أم أني كنت من فرط فرحتي أتوهم؟

حملت نعلي ومشيت على الساحل، تاركًا قدميّ تغوصان في الرمل الرطب، فسرت برودة الماء من باطن قدمي حتى رأسي، وشعرت برعشة تسري في كتفي، فالتفت إلى البحر والسماء والجبال، وأردت أن أصرخ.

لم أعرف ما الذي كنت أشعر به، هل أنا فرح؟ ما الفرح؟ كيف يُحَس به؟

انتبهت إلى أني لا أعرف الفرح، أو ربما لا أتذكر متى كانت آخر مرة شعرت فيها بالفرح أو ما يشابهه.

تركت نفسي للهواء، فصارت عيناي تدمعان وفمي يتسع بابتسامة تكاد تصير ضحكة، أو ضحكة تغالبها ابتسامة خوف أن تفور فتتبدد، لكني كنت أريدها أن تتبدد وأن أتبدد معها ثم أعود بعد أيام وأقف عند باب بيت بيبي مريم لتفتح لي وتدخلني ويطل وجه فريدة، وتقول لي نعم، هل ستقول نعم؟

مكتبة ياسمين

كانت الشمس توشك أن تسقط في البحر عندما اقترب الهوري واكتمل حمله ووجدتني بين الرجال عائدًا إلى مسقط، أسمع ضربات المجاديف وكأنها خبطات على قلبي وهو يسير بنا على الماء، وتذكرت تلك الليلة التي سرينا فيها من مسقط، وهي ملتفة تحت جناح أمها وأنا أتصدى لليل جاعلًا من ضعفي قوة أحتمي به، وأحاول حمايتهما من فردوس والبحر والظلمة.

كم يومًا قالت عمتي؟ يومين أم أسبوعًا أم عشرة أم شهرًا؟ لماذا لم أخبرها بموعد عودتي إلى الدوحة فتستعجل.

لا أعرف، ولا أعرف كيف يقاس وقت المنتظر، بالأيام أم بالساعات أم بالدقائق أم بعدد أنفاسه.

وصلت البيت وفتحت الباب وما كدت أخطو داخله حتى أردت أن أستدير وأجتاز العتبة مرة أخرى وأغادر من فوري إلى مطرح.

هل سأطيق الحزن لو أنها ما قالت نعم؟ لو أن لاها كانت صريحة وإن دارتها عمتي مريم بالكلام الجميل كعادتها.

هل سأعود وحيدًا وخائبًا إلى الدوحة، وإن فعلت هل سأرسل الرسائل التي لا يرد عليها أحد؟

مكتبة ياسمين

فريدة

سمحت لي أمي فصرت أجالس ناصر وأسأله ما يخطر لي من أسئلة حول ما قرأته في الكتب التي أحضرها، سألته عن المنفلوطي والعقاد وتوفيق الحكيم. كنا نقضي ساعات نتناقش في بعض الحكايات التي أوردها المنفلوطي في العبرات والنظرات، ولم يعجبه عندما قلت له إن لغة المنفلوطي أعجبتني وإني وجدت العقاد يكاد من فرط جفافه أن يتكسر، وإن كتابته لم تعجبني، لكنه انبرى ودافع عنه بحماسة وكأني نقدت أحدًا من خواصه.

«اليوم ناصر خطبك مني».

قالت أمي وهي تفك ضفائري وتضع في شعري المشط، ولم تضف إلى ما قالته كلمة واحدة، وكأن ما قالته لا يزيد على أنه خبر من أخبار السوق، أما أنا فنظرت إلى مرآة الطاووس أمامي وبقيت عيني مثبتة على طرف عرفه ولم أنبس بكلمة.

ضعت في أفكاري، يتقاذفني ما شعرت به من اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه عند باب بيتنا وسمعت صوته، المشاعر التي اعتملت في داخلي وحاصرتني، والأسئلة التي شاغلتني في الأيام الماضية.

هل كانت الكتب التي أحضرها معه هي التي أشعلت في الحلم والتمني، أم أن حضوره بعد الغياب الطويل جعلني أراه كما لم أره من قبل؟

انتهت أمي من دهن شعري وتسريحه وتضفيره في شريط من الأطلس، ثم مسحت يديها وقدميها بما تبقى من الدهن، ووضعت جنبها على الفراش ونامت. أما أنا فبقيت في مكاني أمام المراة، أنظر

مكتبة ياسمين

إلى وجهي حتى انتظم صوت تنفسها، فقمت وأطفأت السراج، واستلقيت بجانبها، لكني لم أنم، بقيت طوال الليل أحاول استكناه ما أرادته مني وهي تبلغني بالخبر من دون أن ألمح في صوتها شيئًا من الرضا أو السخط.

نامت وتركتني لا أغمض عيني إلا لأفتحها حتى غلبني النوم، وقبل الفجر استيقظت كلماتها قبلي: «اليوم ناصر خطبك مني»، فشعرت برجفان في قلبي ووهن، حتى إني ما أردت القيام من فراشي.

سمعت صوت الأذان وشعرت بلكزة من أمي فقمت، صليت وحاولت ألا أفكر في كلامها، لكن العبارة ظلت ترن في أذني طوال النهار، بماذا سأجيب أمي؟ لو أن ناصر خطبني فعلًا هل كنت سأرفضه كما رفضت عبد المجيد ابن الصايغ عبدالله الميمني وسالم بن سليمان الرحبي تاجر الحبوب، وغيرهما أم سأصمت كما فعلت مع قاسم؟

وإن أجبت بنعم، فما معنى ذلك؟ هل أنا راغبة فيه حقًا؟ أم أني خائفة أن أكبر كما تقول أمي ولا أرى أطفالي يملؤون حضني؟ ألم أعلّم البنات الصغيرات ثم بعد سنتين أو ثلاث أتين ليبلغنني بأن قرانهن قد عقد ويدعونني إلى زفافهن؟ ألم تحضر أمي أعراسهن وبقيت أنا في حوشنا أستمع إلى أغاني الأعراس من فاطمة لولاه؟ ألم تغد بعضهن وقد حملت رضيعها لنباركه ونضع قرش الفضة داخل قماطه.

هل أحببت ناصر طوال عمري أم أنني أطمئن إليه؟ هل الحب ما أبحث عنه حقًا أم الطمأنينة؟

لكن لو تزوجت ناصر كيف ستكون حياتنا؟ هل سأبقى هنا في مطرح أم سيأخذني إلى مسقط فنسكن البيت الذي تركه له أبوه؟ أم سأسافر معه

مكتبة ياسمين

إلى الدوحة؟

لا أنكر أني في شرودي سافرت كثيرًا إلى الدوحة وتخيلت الحياة التي يعيشها هناك، وأني تمنيت سرًا، لو أنه أخذنا معه ولم يتركنا وحيدتين في مطرح ننتظر رسائله، لكن لو ذهبت هل ستأتي أمي معنا؟ لا بد أن تأتي معنا، لن أتركها هنا وحدها بلا أحد إلا فاطمة وحسن.

ما طقت صمت البيت والضجيج يملؤني، وما عرفت كيف أستطيع إكمال الدرس مع البنات اللاتي يأتين بعد العصر، فخرجت معهن إلى البحر.

كان البحر منحسرًا فمشينا حتى مطيرح، وهناك جلسنا، عين البنات جهة مطرح وعيني جهة مسقط وكأني أنتظر عودته.

قاطعت البناث شرودي وطلبن أن أحكي لهن حكاية البنت التي نصفها من ذهب وآخر من فضة، فحكيتها للمرة العاشرة ربما، وتساءلت وأنا أختمها، ما الذي يعجب البنات في قصة امرأة مقسومة بين ذهب وفضة، لم تعرف كيف تدافع عن أخيها الذي مسخه الساحر ظبيًا ولا أطفالها الذين يحملهم ماء الفلج ويغيبون؟ ما الذي يعجبهن في امرأة ابتلعت خاتمًا وفقدت صوتها، فما استطاعت أن تحكي أو تشكي أو تستنجد، ولولا تدخل الآخرين لكانت ماتت من الغم في فراشها عاجزة.

رحت في أفكاري ولم أنتبه إلا والبنات ينبهنني إلى ارتفاع الماء، فركضنا نتسابق حتى لا يقطع علينا المد الطريق.

عدت إلى البيت فوجدت أمي قد بسطت العشاء الذي تحبه خفيفًا من خبز التنور الذي تغمسه في الشاهي، ثم وقبل أن نقوم سألتني ما رأيك، بماذا أرد على ناصر؟

مكتبة ياسمين

شعرت بأن حيرتي فاضت على أمي فلم تحاول أن تدفع بي إلى القبول أو الرفض.

علقت عيني بعينيها طويلًا ورأيت فيها ما كنت أريد وأخاف.

انسحب الضوء تمامًا وبدأت فاطمة في إشعال السرجان في الحوش، فقمت لكن أمي أمسكتني بذراعي وطلبت مني الجلوس.

«أنا ما سألتش ولا راجعتش يوم رديتي خطابش الواحد تلو الثاني، قلتي لا، فرديت على الناس لا، بس اليوم سمعيني، صح أنه ناصر تربى في البيت معاش لكنه ما أخوش، فهمتي؟ وأنا تراني أشوف وأسمع، ولو طلبتي شوري، بقولش ما بتلاقي حد يقدرش ويحشمش كماه، والبارحة شفت في عيونه اللي كنت أشوفه في عيون عبد اللطيف، فهمتي؟ الوحدة يوم تتزوج تتزوج واحد فواده منصب على يدينها ما واحد صابه عمرها فوقه».

«وإنت مَاه؟ كيف تزوجت أبوي؟».

«خبرتش، أنا ما حد شاورني، من الليل للصبح لقيت عمري متزوجة، لكن لو شاوروني بقول عبد اللطيف، نعم، بالأكيد عبد اللطيف، الله كتب أنه يشلني بشدة وينزلني برحمة، ولو الله طول في عمر أبوش ما بيلاقي حد أخير عن ناصر، كان بيشوف في عيونه بو شفته وكان بيشتريه بالذهب، المحبة ذهب يا بنت لوماه».

«وأخليش؟».

«هيه، خليني، من بونها الدنيا كذا، لازم كل بنت تخلي أهلها، تتزوج وتستوي حرمة وتجيب لها صغيرين، صح أنا الله ما رزقني غيرش، بس الله قادر يرزقش ويكون تحتش بدل الصغير عشرة، وأنا لا تحاتيني، عندي بيتي وتجارتي قايمة، وفاطمة

مكتبة ياسمين

وحسن عندي».

ابتسمت وأنا أتخيل البنات الصغيرات والأولاد يملؤون الدار.

«ناصر رجال ويعتمد عليه، ومن صغره فيه عزة نفس، والرجال العزيز يعتز به».

«وكان شلني الدوحة؟».

«سيري وشوفي بلاد جديدة، أبوش كان دايمًا يقول السفر مدرسة، وأنت تحبي العلم، سيري فتحي عيونش وتعلمي، وآخرته الغريب يرجع بلاده، هترجعي لي وفي ثبانش بنات وصبيان، أو أجي أنا وكان طابت لي الدوحة جلست».

أطرقت، ثم رفعت عيني فوجدتها ما زالت تنتظر مني إجابة.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

كان عمري تسع سنوات عندما ركبت البحر أول مرة مسافرًا إلى بوشهر للالتحاق بمدرسة السعادات، وركبته ثانية عائدًا إلى مطرح وعمري يقارب الثامنة عشرة، ولم أقترب منه مذاك إلا ماشيًا على شاطئ مطرح أو سابحًا من مطيرح إلى غربق.

لم يكن حسن عبد الخالق أبو عبد الرحيم عسكريًا مثل أبي لكنه كان أقرب أصدقائه إليه. كانا على وفاق دائم على العكس من علاقته ببقية أهل أمي، الذين كان في نفور منهم، فتربينا أنا وعبد الرحيم معًا مثل أخوين، حتى جاء الوقت الذي أرسلني أبي فيه إلى بوشهر، فرحلت أنا وبقي هو، وعندما عدت وجدت عبد الرحيم قد سبقني إلى العسكرية.

أدينا التحية العسكرية وخرجنا بعد الفجر من قلعة بيت الفلج راجلين نتبع شاحنات الجيش، المحملة بالأمتعة والمؤونة والحطب، لم يملك عبد الرحيم نفسه من التلفت ونحن نمضي في الدرب الذي يقطع حارات مطرح من الوشل حتى العريانة ثم يهبط في مطيرح. ربما كان يتلفت بحثًا عن وجوه أولاده بين الناس، وأنا لم أملك نفسي كذلك فصرت أنظر إلى وجوه الناس الذين كانوا يقفون لتحيتنا على جانبي الطريق، علّني ألمح صدفة وجهًا أتمنى أن أراه ولو من بعيد، لكنني لم أر إلا وجوه الرجال المتغضنة وبعض الأطفال الذين وقفوا منتصبين في دهشة.

كنا عشرة رجال في طابور قصير يقودنا الملازم قدير خان، الذي أُعير من الجيش مثلما أُعرنا نحن لإنشاء القوة الجديدة وتدريبها.

اخترقنا مطرح وتجاوزنا دروازتها وعقبتها حتى حاذينا الجبل عند مطيرح، ومن هناك سلكنا سكة

مكتبة ياسمين

الخيل حتى وصلنا عقبة ريام ومنها انحدرنا صوب الفرضة، حيث حملنا على ظهر السفينة، ولم نرسُ إلا في صور للتزود بالماء والمؤونة.

قضينا عدة أيام في بحر لم أعرف ما يشبه اضطرابه من قبل، خاصة بعد خروجنا من صور إلى البحر، فما اضطراب الخليج وموجه إلا لعبة إذا ما قيس بصخب موج بحر العرب وارتفاعه الذي ازداد ونحن نقترب من الدقم، فبقيت والرجال متشبثين بالحبال، بل وربط أحمد لشكران ومرهون بن خلف جسديها بالآليات من دون أن ينتبها إلى أن في ذلك موتًا محققا في حال غرق السفينة، وقد حاولت وعبد الرحيم أن نكلمهما في ذلك لكنهما لم يصغيا إلا عندما نهرهما الملازم قدير خان، ففكا وثاقهما من الآليات وبقيا يتأرجحان في مكانهما أو يستفرغان ما في بطونهم في البحر عند حواجز الحديد.

لم أركب مثل سفينة الإنزال «الجسورة» من قبل، لكنها ليست أكثر من هيكل معدني، يبحر محشوًا بالرجال واللوريات والخيام والمؤونة، ولها برج في الخلف وباب كبير يفتح من الأمام فيهبط منه الجنود إلى الرمل كالسكارى، لا يعرفون مواطئ أقدامهم، ورأيت أكثر من واحد من المجندين الجدد يسقط على وجهه فور وصوله إلى الرمل.

بعد أيام وصل موظفو شركة نفط العراق ومهندسوها ومساحوها وبعض الضباط مع الكولونيل بيرسي كوريات على «الجميلة»، ولحق بنا شيخ الجنبة وإنجليز آخرون عرفنا أنهم من موظفي الشركة القادمين من عدن على السفينة «جوادة».

تبعنا بقية المجندين من الباطنة على دفعات، ووصلوا كما وصلنا دائخين، يترنحون من طول

مكتبة ياسمين

الرحلة واضطراب البحر، ووجدناهم أضعف من الذين جاؤوا معنا في الدفعة الأولى، ولا أظن أنه قد دُرّبوا بما يكفي ليصبحوا جنودًا مستعدين للقتال أو غيره.

بقينا في الدقم حتى اكتمل الجند ثم توجهنا إلى «نفون» حيث أقمنا معسكرنا على مسافة من معسكر الشركة وأكثر قربًا من البحر، حتى إنه كان في إمكاننا رؤية «حصاة حمر» التي أبحرنا قربها من مكاننا، وبقي بعض الجند لحراسة مخيم الشركة.

في نفون يهب بعد العصر هواء تكاد برودته تثقب العظم، وتزداد حدته مع مغيب الشمس ثم تهدأ مع تقدم الليل، عندها نوقد نيرانًا أمام خيامنا ونخرج ما قسم لنا من مؤونة ونتناولها متدثرين بالبطانيات التي وزعها الجيش علينا.

كان للملازم قدير خان خيمته الخاصة، بينما تكدسنا نحن كل خمسة في خيمة، وكنت وعبد الرحيم ومير عبد الرسول ويعقوب لشكران وإبراهيم لال بخش في نفس الخيمة، فأكثرنا من الضحك، فوالله ما عرفت رجلًا يجيد خلق الضحك من أي شيء ومن لا شيء مثلما يفعل، وأكثر من يضحك منه هو نفسه، ولا أعرف كيف يفعل ذلك، كيف يقدر على الضحك من نفسه دون أن يوحي إلى أيٍّ منا بأنه قادر على أن يحذو حذوه فيسخر منه، بل إننا والله نخاف من لسانه السليط أكثر من خوفنا من قدير خان، الذي كان ينال القسمة الأكبر من سخرية عبد الرحيم.

الملازم قدير خان كما عرفنا من البنجاب، عمل في الجيش في الهند مدة طويلة ثم نقل إلى مسقط، وأشرف على تدريبنا في بيت الفلج. نعرف أنه يتكلم الإنجليزية والبنجابية والهندية، كما أخبرنا عن

مكتبة ياسمين

نفسه، وكنا نشك في أنه يفهم البلوشية، أما العربية فكانت لنا، وكنا نستخدمها عندما نريد أن نوصل الرسائل لبعضنا البعض أو نسخر منه. ونحن ننصب الخيام أبلغنا قدير خان متباهيا بأنه من اختار نفون موقعًا لنا ليجنبنا العواصف الرملية في الصيف، لكن في الصيف لم ينفعنا اختياره في شيء، إذا كان هو من اختار فعلًا، فقد ترك رمل العواصف ندوبًا في وجوهنا وأجسادنا من شدته.

في إحدى جولات الاستطلاع تسلقت وعبد الرحيم مع بعض الجند ربوة قريبة من المخيم، ومن تلك النقطة استطعنا أن نرى المعسكرين، معسكرنا في نفون ومعسكر الشركة في الدقم، وكم بدا معسكرنا بائسًا بخيامه التي يميل لونها إلى لون الرمل مقارنة بخيام الشركة البيضاء، المرفوعة على قواعد من الحجارة، وقد فرش الحصى حولها كبساط.

«خليك من قدير خان، أولاد الحمرا يريدونا نحميهم ونحارب عنهم، لكنهم ما يريدوا حتى يجاورونا، شوف هين هم وهين نحن، حتى خيامهم بيضاء مثل وجوههم ونحن خيامنا كما وجوهنا غبرا»، يضحك عبد الرحيم فنضحك معه.

ما كنا سنعرف شيئًا مما يدور في معسكر الشركة لولا مير عبد الرسول، الذي صار الجندي المكلف بمرافقة الكولونيل كوريات ومدير الشركة والموظفين الكبار في لقائهم بشيوخ القبائل وموفدي الحكومة، يفهم الإنجليزية وإن كان لا يتكلمها.

بعد أن نشبع من حكايات عبد الرحيم والضحك، واجترار ذكرياتنا في بيت الفلج، يبدأ إبراهيم لال بخش بجر مير عبد الرسول إلى الكلام، فيخفض صوته حتى يصبح همسًا ويخبرنا بما فهمه من تلك

مكتبة ياسمين

الاجتماعات.

منه عرفنا أن قائد القوة الكولونيل كوريات لم يكن مرتاحًا لمهمته، وأن السلطان سعيد يقيده بأوامر عدم تجاوز الشركة للدقم وجدة الحراسيس وما حولهما، ولم يكن سعيدًا بالملازم قدير خان ولا بمعاونيه السودانيين، الذين لم يكونوا ليخفوا بدورهم تذمرهم من وضع المعسكر وقلة الطعام ورداءته، لذا فإن مير عبد الرسول يظن أن الرجل سيستقيل ويغادر القوة قريبا.

لم يكن فيما يسربه إلينا من أخبار أي شيء يفرح أو يؤملنا في ما هو أفضل، فوصفه لحفلات موظفي الشركة والمنكر الذي يشربونه والأكل الذي يأكلونه، يراكم الغضب في داخلنا، الغضب الذي نخففه بأن نكرر على أنفسنا ونحن نأوي إلى مهاجعنا بأننا جند، وليس للجندي أن يتذمر.

مكتبة ياسمين

حسن لبن

كنت في طريقي إلى مربط سلوم ود الحص عندما صادفت شنون السرسري، مكسؤا بالسخام والشحم الأسود وهو يركض خارجًا من حوش غلام حسن، حتى كاد يرتطم بي.

استوقفته لكنه لم يقف، بل ركض وكأن نارًا لحقت بإزاره، فأكملت طريقي، ثم نسيت لماذا كنت أريد أن أستوقفه.

اكتريت حمارًا جديدًا وعدت به لأربطه أمام بيت بيبي مريم، حيث كان العاصف ينتظر وأمامه حزمة من البرسيم، فبدأ بالشحيج وأظن أنه ربما غار من الحمار الجديد، لذا همست في أذنه أن هذا حمار للشغل، اكتريته لأيام فقط ثم سأعيده إلى مربطه عند سلوم فهدأ.

قال سلوم إن رجلًا من صيا باعه له، وأن اسمه كحيل، لأن عينيه كعيني الظبي، وأنا لم أرَ الظبي لكن سلوم قال إنه رأى قطعانًا منه ترعى في السليل. سألت العاصف إن كان يعرف أين السليل، لكنه ما اكترث لسؤالي، ودسّ رأسه في حزمة البرسيم التي أمامه.

ساعدت أمي وبيبي مريم على وضع الصرر والزكائب على ظهر الحمارين، ثم وأنا أفك رباطهما مالت بيبي مريم عليّ وسألتني إن كان بإمكاني التحكم في الحمارين أم نستأجر من يعينني عليهما، فاستنكرت ذلك ولم تجادلني، لكنها عادت وأوصتني بالحمولة.

لم أكن أعرف أين هي ميابين التي تقصدها ولا كيف أصل إلى مسقط، لكن مريم طمأنتني وقالت إن كل ما علي فعله هو سؤال الناس في طريقي.

مكتبة ياسمين

أمام باب السور لقيت شنون مرة أخرى، وكان قد اغتسل فبان وجهه. ناديته فتوقف هذه المرة، واقترب مني، فسألته عن ميابين، «ميابين في مسقط، من مطيرح سير ريام ومن ريام اركب العقبة ومن تهبط سأل الناس وبتدلك»، أجابني وخطا خطوتين منصرفًا ثم عاد إليّ مرة أخرى: «تدل ولا أسير معك؟ مو محمل ذيه الحمير وحال مين؟»

أراد أن يدس يده ليعبث في حمولة الحمارين، فرددت يده عنها، ومشيت مبتعدًا عنه، لكنه لحق بي: «هيا، امشي وبسير معاك وكان شي أجرة نتقاسمها»، لم أرد عليه ومضيت في الطريق الذي أشار إليه، لكنه ما لبث أن حاذاني وأخذ بخطام كحيل.

بقيت متوجسًا وخفت أن يغافلني ويهرب بالحمار وما عليه، وأظن أنه فهم خوفي فأخبرني بأنه بعد موت أمه عزم على ترك الحرام والتوبة عن خفة اليد وتعلُّم تصليح السيارات، وأنه يتعلم على يد غلام حسن، وهو رجل طيب، كما وصفه، لكنه كاد أن يقحف رأسه عندما وجده يدخل يديه في بطن سيارة أحد تجار مسقط.

في الطريق أخبرني شنون عن العمل في حوش غلام حسن، عن السيارات الميتة التي تأتي إليه ثم كيف يحييها غلام بعد أن يدخل رأسه في بطنها ويحرك أشياءها، عن دواليبها التي يرقعها بقطع من دواليب قديمة ثم ينفخها وتعود فتدور.

«غلام حسن دختر سيارات كما طومس دختر أوادم، كل جنس وله دواه، الناس يعطوهم أباري دوا والسيارات أباري زيت»، وضحك.

لا أعرف ما الذي أضحكه، لكني ضحكت معه حتى أقصَر الطريق، وبقيت أفكر في إبر الزيت، وهل لو

مكتبة ياسمين

أعطى غلام العاصف إبرة تنشّط وركض وقصّر علينا الطريق؟

صعدنا عقبة ريام ونحن نجر حمارينا مرة وندفعهما مرة، حتى وصلنا أعلاها وقد تقطعت أنفاسنا، وعندما نظرت وجدت بحر مسقط بعيدًا عن بيوتها، حتى إنه لا يُرى من مكاننا ونحن فوق، أما بحر مطرح ففي مطرح، يدخلها أحيانًا حتى يكاد يغرق بيوتها.

«ميابين تحت ذاك الجبل البعيد»، وأشار إلى نقطة بعيدة، فتاهت عيناي وأنا أحاول أن أرى طرف إصبعه.

بعيدة جدًا هذه الميابين، وخشيت على البيبي أن تتعب إن أرادت زيارة ابنتها وبعيدة إن خطر في بالها أن ترسل إليها شيئًا من مطرح معي.

هبطنا العقبة وتلقانا درب طويل يلتف بين البيوت حتى صرنا بمحاذاة ذاك الجبل الذي قال شنون إن ميابين تحته، فجاء رجل يهرول نحونا. كان ناصر بن صالح، هكذا قال، فعرفته، ناصر الذي سيتزوج فريدة، وتذكرت أني رأيته عندما خرج ضاحكًا فرحًا قبل أسابيع من بيت البيبي ثم طلب أن نتبعه فتبعناه.

ثلاثة أيام صار شنون ينتظرني أمام بيت مريم عند الصباح ولا يتركني حتى نعود في المساء فيذهب هو إلى بيت أمه في الوشل وأذهب أنا إلى جبروه. ثلاث مرات صعدنا العقبة وهبطنا منها ونحن ننقل أشياء فريدة، وعندما أعدنا كحيل إلى مربط ود الحص كان قد حكى لي عن أمه وأزواجها وموتها وعن خالتها في تلك البلاد البعيدة، لكن عندما أردت أن أحكي له عن أبي لم أعرف ما أقول وهو لم يسألني، مع ذلك شعرت بأنه يعرفه، لكن من

مكتبة ياسمين

لا يعرف مراد داهوك في مطرح!

في حضنها مصحف أبيها وعلى رأسها شال من الحرير الهندي الأخضر المطرز بعروق الذهب، وقدماها المحناتان مغمورتان بالماء في حوض من النحاس يطفو على وجهه الياسمين.

وضعت أمامها سفرة العقد عليها آنية ملئت بعضها بمكعبات القند وأخرى بالعسل وثالثة باللوز والجوز وصينية ملأتها فرشوه بسبع بهارات من مطبخها، اليانسون والقرنفل وجوزة الطيب والهيل والزنجبيل والزعفران والحلبة، والبيض الذي لوّنته الطاووس بنقيع العصفر وقشر الرمان. كان إلى جانبيها شمعدانان من الفضة، جُلبا من إيران، ورثتهما عن أمها وأمها عن جدتها.

أمامها المرآة التي ستنظر إليها لتتأكد من سريرتها وهي تجاوب السيد الذي سألها ثلاث مرات إن كانت موافقة على الزواج، بينما وقفنا وراءها أنا وهاشمية حسن نفرك على رأسها مخروطين كبيرين من السكر، لتكون حياتها في حلاوة السكر المجروش والمتناثر على شالها.

كنت أشهد سفرة النكاح لأول مرة، فكل ما أعرفه عن الزواج في حارتنا هو زفة العريس وطبل العرس ورقص النساء، وعندما تزوجت لم تنصب لي سفرة مثلها، لا مصحف ولا شمع ولا مرآة وبالتأكيد لم يتل عليّ السؤال مرة بعد مرة كي أوافق.

غرت من فردوس، بل ربما حسدتها، لا أنكر ذلك، وبدا لي أن هذا هو الفرق الذي بيننا. تُسأل لأنها حرّة، لها أن تقبل أو أن ترفض، أما أنا وإن لم أولد عبدة، فإن الرجال اتفقوا على زواجي ثم أخبرني عبد اللطيف كما أخبر ما مويزي لتعدّني له، لا أكثر ولا أقل. موافقتي أمرٌ مفروغ منه، فأي فقيرة معدمة

مكتبة ياسمين

مثلي سترفض عبد اللطيف لوماه؟!

في المرة الثالثة أجابت فردوس بنعم موافقة على الزواج بموسى حسن، وهكذا أخذ السيد موافقة فردوس على زواجها بابن خالتها ومضى إلى المسجد حيث عقد نكاحها بإذنها وأمر وكيلها عبد اللطيف لوماه.

بعد أن أفسد السيل طاقة الشنجهاغي بحثت في السوق عن حرير يضاهيه في خضرته، فلم أجد إلا قطعة من الأطلس خالية من النقش عند جمليك لال، فابتعتها وطلبت من شفيقة علي، خياطة السور، أن تخيط ثوب استنطاق فريدة، وبعد أن صار جاهزًا شككت على نحره وأطراف ردنيه حروف الذهب التي كنت أشتريها بما يفيض من ربح الدكان لتكون كما قال عبد اللطيف زينة وخزينة.

أوكلت للماستر علي أمر تزويجها، وبحت له باسم أبيها كاملًا، فبدا على وجهه شيء من التعجب، بل كاد يسألني عن شيء ثم تدارك فصمت.

ستعرف مطرح كلها عندما يُردّد اسم أبيها في المسجد من تكون معلمة البنات التي تسكن حارة الشمال، وسيعرفون من أمها التي تمشي معهم في السوق وتبيع وتشتري لهم ومنهم. لكن ما عاد ذلك يضيرها ولا يضيرني، ففردوس كما أكد لي ناصر قد استقرت في البحرين، وفريدة كبرت الآن وستتزوج وتسافر مع زوجها قبل أن ينتبه لنا أحد.

ألبستها حرز الفضة الموشى بالذهب، الحرز الذي أهداني إياه عبد اللطيف وحلّفني ألا أفرط فيه. وفرشت لها سفرة مثل تلك التي فرشت لعمتها بمساعدة النساء القائمات على مأتم السور. وجاء السيد مرتضى الموسوي ليسألها ثلاث مرات إن كانت موافقة على زواجها بناصر بن صالح بن أحمد،

مكتبة ياسمين

وجعلت أمامها المرآة لتتمعن في جوابها ومصحفها الذي تعلمت فيه القرآن في حضنها ليكون شاهدًا على سريرتها.

بحثت في السوق عن مخروطي سكر كبيرين كالمخروطين اللذين حُكّ بهما رأس فردوس فلم أجد، إلا أني وجدت مخروطين صغيرين، ربما أكبر بقليل من كفي، لكني لم أقف وراءها لأحكهما على رأسها بل أوكلت الأمر إلى فاطمة عبدالحسين زوجة ماستر مصطفى، بينما وقفت أنا على يمينها أحمل في يدي حفنة الريحان التي نثرتها على رأسها ما إن انتهى السيد من أخذ موافقتها.

تعالت أدعية الحاضرات وزغاريد فاطمة التي بدأت ترقص وتدور حول نفسها وهي تغني حتى خرجت إلى الحوش فقامت نساء الشجيعية معها وانتظمن في دائرة يغنين بصوت واحد ويصفقن ويرقصن. أما أنا فقد كنت أراقب وجه فريدة وهو يشع من وراء شالها وقد انعكس عليه بريق قشرة الذهب الذي كسيت به الفضة.

سبعةَ أيام وسبع ليالٍ بعدها، لم يخلُ بيتنا من نساء الوشل والشجيعية وكهبن وجبروه والعريانه. جئن فكسون غرفة العروس بالحرير والمرايا وغطين الكاتلي بستائر من الأطلس، وطبخن ولائم العرس.

سبعة أيام أعملت فيها كولجان الخيط في وجه فريدة، فزادها تزجيج حاجبيها حُسنًا على حسن، وصار وجهها في نعومة الحرير، ثم دَهن وجهها وجسدها بالجلو بعد أن خلطن دقيق الرز وقشر البيض بالصندل والزعفران والكركم ومزجنه بماء الورد الجبلي.

غُسل شعرها بالياس وماء الورد وعُطّر بالمسك

مكتبة ياسمين

والعنبر، ولبست أثوابًا من الحرير والأطلس بعدد أيام جلوها، ونثر على قدميها الريحان وعطّرت بالمسك والعنبر.

سبع ليالٍ أُوقِد فيها الجمر وفاح اللبان، ولم تنطفئ فيها سرجان البيت، سبع ليالٍ صاح فيها المزمار وذقّت الطبول ورقص الرجال الليوا ثم أكملوا باللارو والكتميري، وجلست النساء من بلوش وعرب ولواتيا وهنود داخل حوشنا وغنين الكوزاك والدان دان.

سبع ليالٍ صاح فيها الهبان من أول الرمل حتى آخره، واختلط فيها الضحك بشتائم النساء، وبكاء الأطفال بالزغاريد، ودقات طبول الوقافي بأقدام الصبية الراكضة بالصواني من البيت إلى حيث تجمّع الرجال على الرمل.

سبع ليالٍ ابتدأت باكتمال القمر، وعندما تناقص وكاد يغيب اعترضت فاطمة دخول ناصر الذي جاء مزفوفًا في جماعة من النساء من ورائهن الرجال، وقد لبس بشته وتحزّم بخنجره ولفّ عمامته في طيات رفيعة كما كان يفعل عبد اللطيف.

اعترضته وجعلت من ذراعها حاجزًا فما استطاع الدخول حتى وضع في كفها قرشًا من الفضة، فأقامت فريدة من مكانها وجعلت تحت قدميهما طستًا غسلتهما فيه بماء الورد.

ثم انسحبت هي والنساء وتركنهما بمفردهما، وأنا انسحبت مثلهن، وتركت الصفة للمعاريس، وقضيت ليلتي مع فاطمة ننظف الحوش ونعيد البسط والوسائد إلى أماكنها، ثم أوينا إلى الصفة الأخرى ونامت هي بينما حاولت أنا ذلك.

ما ادخرت شيئًا في عرس فريدة، كما كان عبد اللطيف سيفعل لو أمد الله في عمره، لكني كنت

مكتبة ياسمين

أعرف أن كل ما قد أبذله لن يغنيها عن غيابه، كما لم يغنني عبد اللطيف عن أبي.

قبل أن أغمض عيني فتحت فاطمة عينيها فرأيت تلك اللمعة قد عادت.

«مريم أيه عسكري كوجا شو؟».

لم تنتظر إجابتي بل انقلبت على جنبها وظلت تهمس بأغاني العرس حتى غاب صوتها.

ما أدراني أين ذهب العسكري يا فاطمة، كان أمام بابنا ثم اختفى، انتظرت أن يعود أو يأتيني إلى الدكان أو أن أصادفه في السوق، لكنه لم يأتِ، وأنا لم أسأل عنه، كيف أسأل عنه ولماذا أسأل عنه؟ إن كانت له حاجة عندنا فسيعود.

هبط عليّ تعب الأيام الماضية، لكن الطبل تعالى في رأسي ثانية، دق خطوات النساء على الأرض، الفرح ينطق في وجه ناصر، العصا المتمايلة في يد حسن وهو يرقص مع الرجال، اختلاط الفرح بالخوف في عيني فريدة، كفوف النساء وزغاريدهن والدان دان، ووجه العسكري الذي أغلقت الباب عنه وظل يراودني.

بعد الأيام الثلاثة ركب ناصر وفريدة الهوري إلى مسقط، أخذت ملابسها وأدوات الكتابة والقراطيس التي كانت تنسخ فيها الشعر وتركت صيغتها كلها عندي.

ضممتها طويلًا إلى صدري عند الباب، وعندما أفلتها لم تتردد، ولا أعرف إن أفرحني ذلك أم أحزنني، لكن عندما غادرت شعرت بذلك الخواء الذي شعرت به عندما ولدتها، خواء لا يمكن لشيء أن يملاه.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

وصل السلطان سعيد برفقة الميجور تشاونسي إلى مخيم الشركة في الدقم على ظهر سفينة تابعة لجيش الملكة، وجمعنا لتشكيل طابور عسكري لتحيته. كانت هذه المرة الأولى التي أرى السلطان فيها فوجدته رجلًا ذا هيبة، له عينان لا تخلوان من قسوة. بدا غاضبا وهو يمشي بين الصفوف بتأنٍ متفحصًا هيآتنا من رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا. ترى هل أزعجه بؤس مظهرنا وأسلحتنا القديمة؟ أم أنه كان بينه وبين الإنجليز اتفاق لم يوفوه؟ لا أعرف، لكن الرجل ما لبث أن غادر كما جاء بعد أن أصدر أوامره إلى القادة الإنجليز.

رحل السلطان فعقبته رياح الصيف المحملة بالغبار، رياح شديدة أثارت البحر وحالت دون دخوله، ثم هبط الضباب فصارت الرؤية لا تتعدى أمتارًا قليلة، ومع اضطراب البحر لم تغد السفن قادرة على الوصول إلينا، وشحّت المؤن فاضطررنا إلى الاقتصاد ما استطعنا طوال الصيف، حتى إذا ما دخل الشتاء أُمرت وحوالي خمسين جنديًا آخرين بركوب الشاحنات، والانطلاق في قافلة بقيادة الكابتن أوكلي وشيوخ الدروع وبعض موظفي الشركة من مهندسين ومساحين.

عبرنا صحراء مثل البحر لا حد لها ولا معالم، لولا مرتفعات صخرية تظهر هنا وهناك. شعرت في لحظات بأننا تائهون، لا نكاد نعرف شمالنا من جنوبنا ولا شرقنا من غربنا لولا البوصلة في النهار ومواقع النجوم في الليل.

في ليلتنا الأولى نصبنا خيامنا في وادي مسلم وشوينا القطا والحباري التي صدناها، وقلبناها على نيران أضرمناها في حطب السمر الهش،

مكتبة ياسمين

تبادلنا الأخبار التي تسربت من حديث الشيوخ والإنجليز، وعرفنا أن رجال الإمامة تقدموا إلى عبري واحتلوها، وأن الدروع يريدون من الجيش مرافقتهم إلى تنعم ففيها آبارهم ونخيلهم وسوقهم. عسكرنا في وادي العميري في الليلة الثانية، عثرنا على ماء بئر عذبة في المقيبرة فشربنا حتى ارتوينا، واغتسلنا وطبخنا عشاءنا بالماء الحلو للمرة الأولى منذ شهور، لكننا أصبحنا في نهار اليوم التالي على أوامر بمصاحبة المساحين إلى فهود للبحث عن أنسب مكان لإقامة مدرج لطائرات الشركة.

مضيت على رأس مجموعة من الجند لنستكشف المكان، هبطنا وديانًا من الرمل وصعدنا كثبانًا هائلة كأنها الجبال، كنا نمشي وراء الإنجليز الذين يحددون اتجاهنا، حتى وجدنا سيحًا مغطى بالحصباء، ترتفع فيه حدبة صخرية، وقف الإنجليز أمامها طويلًا قبل أن يقوم المساحون بغرس علاماتهم في مكان قريب منه.

بدا الإنجليز فرحين في طريق عودتهم، ويربتون بعضهم على أكتاف بعض، ولا أعرف إن كانوا فرحين بالمدرج ومستبشرين بالطائرات التي ستصلهم فيها مؤونتهم وآلياتهم أم بتلك الحدبة العجيبة التي يطلقون عليها جبل فهود.

بعد أيام تلقينا أمرًا بالتقدم إلى عبري، وعرفنا أن رجال الإمام قد سبقونا وهددوا الدروع بتدمير نخيلهم إن لم يستسلموا، فتحركنا إلى تنعم وأقمنا معسكرنا على أطراف البلدة، لكننا لم نجد أحدًا من رجال الإمامة، فهل كانوا هنا فعلًا أم هي حجة للإنجليز للتقدم؟ لم يظل تساؤلنا، فقد عرفنا لاحقًا أن رجال الإمام يتحصنون في قلعة الدريز.

توجهنا إلى عبري، مسلحين بالبنادق ومدفعي

مكتبة ياسمين

هاون، وخيمنا على مرتفع خارج تنعم، وشاهدنا توافد بعض شيوخ القبائل للقاء ممثل السلطان الذي يبدو أنه نجح في كسب ولاءات القبائل في قرى السليف والدريز والعينين والعراقي وبات. وفي الصباح التالي طوق رجال الدروع القلعة ودخل شيوخهم للقاء الرجال وإقناعهم بالانسحاب، وقد تم لهم الأمر، فأزيل علم الإمامة من دون أن تطلق رصاصة واحدة.

بعد حوالي أسبوعين غادر الشيوخ الموقع، وعاد أغلب القادة إلى نفون والدقم، أما نحن فتمركزنا في عبري ولم تأتِنا أي أوامر بمغادرتها، ولفترة من الزمن لم نسمع إطلاق رصاص ولا عَذو خيل، لكننا لم نتوقف عن المراقبة وتسيير الدوريات لاستكشاف المناطق القريبة.

بعد أسابيع انضمت إلينا قوة من مشاة مسقط، فتوجهنا معها إلى نزوى عبر فهود وأدم حتى وصلنا إلى فرق، وهناك منعتنا قوات الإمام من دخول نزوى فبتنا على مشارفها، لكن ما إن لاح الصباح حتى هاجمنا نزوى مستعينين بالرشاشات والمدافع الجديدة التي حملها فوج مشاة مسقط معه.

قصفنا تحصينات جيش الإمام غالب وقلعة نزوى وسيطرنا عليها، وعرفنا أن قوات السلطان سيطرت على قلعة الرستاق وأن واليها خرج بعد مقاومة شديدة.

كان رجال الإمامة ذوي بأس، لا يخافون ولا يتراجعون، وكنا لا نعرف من أي الجهات يهاجمون، فتارة عن ميمنة وتارة يباغتون الميسرة، يحاصروننا بسرعة ركضهم، لكنهم كانوا أقل عددًا وأضعف تسليحًا، قتلنا منهم عددًا لم نحصه وقتلوا منا ثلاثة عشر جنديًا وضابطًا، كان أربعة منهم من رفاقي في

مكتبة ياسمين

بيت الفلج، إبراهيم لال بخش وعبدالله فقير وحمد بن علي وسعيد بن سالم، ثقبتهم الرصاصات أمام عيني، ورأيت كيف حولت خطوة واحدة في المكان الخطأ أجسادهم إلى أشلاء تناثرت في الهواء. علقنا لمدة طويلة بين النار والدم، ولم ينجُ أحد منا من علامة يحملها في مكان ما من جسده أو وجهه.

انتهت الحرب، وفر الإمام إلى السعودية، وتوحدت البلاد تحت راية السلطان، فعدت مع الكتيبة إلى البريمي، وهناك بقينا عدة أشهر بين مهام استطلاعية وتمشيط للمنطقة، كي نتأكد من عدم عودة الثوار.

مكتبة ياسمين

شنون السرسري

مددت يدي داخل بطن السيارة أبحث عمّا كان يبحث عنه غلام حسن فطردني من حوشه.

صرت لا أدري ماذا أفعل، فيشهد الله أني قد تبت عن السرقة ولا أعرف لي شغلة أترزق منها، ولا يأمن لي أحد في السوق فيشغلني عنده.

أنام في بيت أمي وأصحو لأتسكع في السوق أو أجلس على الرمل، حتى الذين كنت أسهر معهم ملّوا مني عندما عدت غير قادر على ملء جلساتهم بالحكايات والضحك.

رافقت حسن لبن إلى ميابين، فقد تعودت مرافقة أمي عندما كانت تزور المعلمة الزون في حلة العور، ومعها كنت أزور بيوتًا أخرى في حلة النساسيل وأخرى في الصفافير، ومرة ذهبنا لزيارة امرأة في حارة الدلايل، وسمعتهن أمي والمعلمة، يتهامسن أنها تنصّرت منذ أن عملت في بيت البادري، ويستغفرن الله بدلًا منها.

عندما هربت من بيت أمي ذهبت إلى حلة العور، ولجأت إلى بيت ما الزون وسكنت عندها أيامًا قبل أن أشتاق إلى أمي وأعود إلى مطرح.

مسقط مثل مطرح، لولا أن سوق مطرح أكثر حركة، لكنها أعجبتني، ربما لأن لا أحد يشير إليّ فيها بإصبع أو نظرة، لا أعرف، لكني كنت أهبط إليها لنصف نهار أحيانًا، أقضيه متسكعًا في سوقها أو على فرضتها، وعندما أتعب كنت أنام داخل مسجد من مساجدها أو أذهب لأسلم على المعلمة فأتغدى وأقيل عندها. وعند المساء كنت أركب هوري مع الصيادين وأعود إلى مطرح.

يعجبني ركوب الهوري من فرضة مسقط إلى قرب

مكتبة ياسمين

ريام مروزًا بكلبوه ودوحة الكثيريين. يعجبني أن أرى البلاد من الماء، أشعر كأني أراها كلها ولا أرى شيئًا منها في الوقت نفسه.

رافقت حسن لبن طامعًا في أجرة أحصل عليها من مريم دلشاد، أو على الأقل أضع لقمة في بطني، أو ربما توسط لي حسن فشغّلتني أجيرًا عندها، سأحلف لها إني تبت فربما أحسنت إليّ وقبلتني كما قبلت حسن لبن.

في يوم العرس رقصت مع حسن لبن والرجال عند البحر، ورأيت تمايل النساء وسمعت صهيلهن وكلامهن وقد خرجن من بيت مريم متقلبات بين عجب وغيرة وهن يذكرن العروس: حسنها، وزينتها وذهبها.

بعد انتهاء العرس عدت لأتسكع في السوق، ثم صارت قدماي تقودانني إلى السكة التي فيها دكان مريم دلشاد، فأظل أذهب وأجيء مرات قدامه، وعندما انتبهت مريم إليّ أرسلَت حسن لبن في طلبي فذهبت إليها.

سألتني عن نفسي وحالي، وأنا لم أكذب عليها، أخبرتها حكايتي كلها من لحظة ختاني حتى لحظة وقوفي بين يديها، وكان وجهها يتقلب، حتى رأيتها تبتسم عندما أخبرتها قصة غلام حسن ودقه لرأسي بالحديدة.

حلفت لها بأني تبت عن السرقة وخفة اليد ومصاحبة السرسرية، وأني أبحث عن عمل، أي عمل: حمالي، مطراش، أي شيء، توسلتها قائلا إني من قوة توبتي لا أكل أيامًا. مع ذلك قلبت شفتيها وقالت إن لا حاجة لها بأجير إضافي.

غادرت الدكان ومشيت ساخطًا باتجاه مجرى السوق، وفي نيتي الذهاب إلى حيث تجلس بائعات

مكتبة ياسمين

الدنجو واللولاه عل أحدهن تشفق علي وتناولني خبزة. لكن قبل أن أصل أول السكة سمعت حسن لبن يعدو في إثري، ويبلغني أن مريم وافقت على تشغيلي عندها معاونا له، شرط أن أعمل مقابل أن أكل في بيتها غدائي وعشائي مدة شهر حتى تختبرني، ثم ترى إن كنت أصلح أو لا.

في بيت مريم تعرفت إلى أم حسن لبن، واستغربت أن مراد تزوج هذه المرأة بعينيها الزائغتين، وفهمت لماذا كان يهرب من البيت إلى البحر كل ليلة، لكنها رغم جنونها كانت تعطف على حسن لبن أكثر مما كانت أمي تعطف عليّ.

عندما جلست لأكل مع حسن لبن أول مرة عاملتني كأني عدو، وكادت ترميني بجحلة الماء، لكنها بعد ذلك صارت تضع لي الطعام ولا تتركني حتى أشبع، وفي كل يوم ترسل معي سلامًا إلى أمي التي ربما كانت تعرفها، فلا أقول لها إنها ماتت.

نعم كانت عيناها تشبه عيني زلموك، تمامًا كما وصفها حسن، لكن كان فيها شيء من أمي.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

وجدنا درامكي لال جالسًا وأمامه منضدة صغيرة وضع عليها دفترًا كبيرًا، على يمينه ميزان صغير ينقل المثاقيل والبيسات بين كفتيه، وعلى يساره صندوق خشبي مغلق بقفل كبير.

جلسنا أمام الرجل، أنا وجدي وعمي، فابتدأ جدي الكلام، وأخبره عن حاجتنا إلى رهن نخيلنا عنده مقابل مئتي روبية وناوله الصك. ابتسم الرجل وقلب رأسه ببطء وهو ينظر إلى الصك.

لم أكن أعلم أن جدي يعرف الهندية، ولا أعرف ما الذي قاله للرجل، لكني خمنت من التماع عيني الرجل أن جدي أخبره بحاجتنا وعن مقدار غلة الغليون والنخيل، ثم قال البانيان كلاما لجدي فهز جدي رأسه موافقا.

لم أفهم مما قالوه شيئًا، إلا أن جدي مال ناحيتي وقال إنه سيعطينا مئتين وسنعيد إليه ثلاث مئة، وإن تأخرنا عن الحولين صار الصك والنخل له.

أدخل الرجل يده في صندوقه وأخرج الروبيات ثم مدها ليناولها جدي، للحظة نظرت في كفي الرجل، اليسرى قابضة على الصك واليمنى ممدودة بالروبيات، وليست اليمنى كاليسرى، فنزعت الصك وخرجت من دون أن أنتظر جدي.

لحق بي جدي غاضبًا، قلت له إن عين الرجل على الأرض لا على استرداد المال، فأسمعني من الكلام ما لم أسمعه من قبل. غذذت السير لأخرج من السوق، وما إن صرت خارجه حتى سمعت الأذان يرتفع من المسجد فدخلته.

عندما عدت إلى البيت استسمحت جدي وقبلت كفه ورأسه، ووعدته بأن أتكفل بالمئتي روبية على

مكتبة ياسمين

شرط أن أرهن المال عند تاجر عربي، يفهم مني وأفهم منه، أستوثقه ويستوثقني وأن نجعل بيننا شهودًا وورقة، فأعطاني مهلة أسبوع وحلف أن لا يرافقني ولا يتوسط لي عند أحد من تجار مسقط.

لم أجد في سوق مسقط من التجار العرب من يقبل الرهن، قالوا إن تجارة المال ليست لهم بل للبانيان.

عندما يئست منهم قررت العودة إلى درامكي لال وآخذ المال وأسلمه لجدي، الذي تغيرت قسماته وتبدلت هيأته بعد أن أرسل إليه أولاد مبارك رسولًا يطالبونه بما تعهد به على نفسه.

ذهبت إلى دكان الفرابي، لكني وجدت دكانه ودكاكين أخرى مغلقة بالسلاسل، وعندما سألت، قيل لي إن اليوم عيد من أعيادهم، وإن كل البانيان ذهبوا ليحتفلوا في معبدهم خلف حارة البلوش، ففهمت كثرة الهنود في الوادي الصغير ذلك الصباح.

وأنا في طريقي خارجًا من السوق صادفت عبد اللطيف لوماه، الرجل الذي شهدت على زواجه بمريم بنت دلشاد قبل سنوات فعرفته. وقفت وسلمت عليه وذكرته بنفسي، ابتسم الرجل وربت على كتفي ودعاني إلى دكانه، لكني اعتذرت منه وأصررت على إكمال طريقي مدعيًا أني على اتفاق مع بعض التجار في السوق وأخشى أن أتأخر عليهم.

مضيت في دربي لكن وقبل أن أخرج من السوق خطر لي أن أعود فأخبر الرجل عن المشكل الصعب الذي أنا فيه، علّه يدلني على تاجر يقبل الرهن على أن أوفيه من غلة النخل، أو ربما قبل هو بها وأعطاني المال.

وجدت الرجل جالسًا في دكانه مشغولًا بحرز فضة يقلبه بين يديه، لكنه ما إن رآني واقفًا أمامه حتى

مكتبة ياسمين

وضعه داخل صندوق وراءه، ثم أدار فيه مفاتيحه وقام ورحب بي، فجلسنا وشربنا القهوة التي صبها لنا غلام صغير من العاملين معه.

وبعد أن استفسر عن بلادي ومن أين جئت، سألني عن حاجتي، وكأنه عرف أن حضوري إلى دكانه ما كان إلا لحاجة بدت لي، فأخبرته بأني أبحث عمن أرهن نخلنا عنده مقابل مئتي روبية.

لم يسألني الرجل عن سبب حاجتي أو المشكل الصعب الذي اضطرني، إلا أنه طلب مني الصك وعندما ناولته إياه، قرأه ثم أطرق مفكرًا حتى استبطأته وظننت أنه سيرفض كما رفض من قبله، أو يضع شروطًا لا أقدر على الوفاء بها فأرجع من عنده مكسور الخاطر.

رفع الرجل رأسه وقال لي إن مئتي روبية قليلة مقابل أموالنا من نخيل وضواحٍ وجلب غليون كما وصفتها له، وأنني كنت محقًا عندما رفضت رهنها للبانياني، وعرض عليّ أربع مئة روبية، وأن أحتفظ بربع غلة نخيلنا لأطعم بها عائلتي أو أبيعها وأستنفع بها، على شرط أن أضاعف زراعة أرض الغليون وأن تكون غلتها له وحده مدة عشر سنين، يصرفها كيف يشاء.

وجدت في رأي الرجل نباهة وأمِنت للصدق في نبرة صوته وعينيه فوافقت، التفت الرجل وأعمل مفتاحه في قفل الصندوق وراءه وأخرج روبيات عدّها أمامي، وما إن وصل إلى أربع مئة حتى ناولني إياها، ثم أخرج الحرز من الصندوق وطوى الصك حتى صار أصغر من قياس بيت الحرز فحشره داخله وأغلق بابه، ونادى على معاونه وطلب منه أن يأخذ الحرز إلى الصائغ في طرف السوق ليلحمه.

غاب المعاون ساعة من الزمن ثم عاد وعندما تأكد

مكتبة ياسمين

عبد اللطيف من قوة اللحام أشهدني وأشهد معاونه، ألا يُكسر اللحام إلا بعد أن يُستوفى الدّين «وكلٌ يسير في حال سبيله».

سلمت مئتي روبية لجدي ولم أخبره عن المئتين الأخريين، وبعد أيام عدت إلى الغبة، وأخبرت جدتي بما كان بيني وبين عبد اللطيف لوماه، فدعت له ثم أردفت

«ما هتشوف من جدك لا روبية ولا حتى آنة، والدّين هترده وحدك من أرضك ومالك، وأما الصك فأنا أمنتك اياه قدام الله ورسوله، وإن ما رديته بيبقي في رقبتك ليوم الدين».

مكتبة ياسمين

وعدني ناصر بأنه سيرسل برقية من الدوحة أول وصولهما، كلمة واحدة كانت كل ما أريده، أن يقول وصلنا لأستريح، لكن لم يصلني شيء وقد مر على سفرهما شهر وأسبوع.

قلت لفريدة أكتبي لي رسائل بها كلام كثير، ورقة واحدة لا تغنيني، اكتبي عشر ورقات أو عشرين ورقة، اكتبي لي كل شيء، حدثيني في رسائلك كما تحدثينني عندما نختلي قبل أن نغمض أعيننا وننام، لكنها سألتني ومن سيقرؤها لك يا أمي؟

صدقت فريدة، من سيقرؤها لي؟ إحدى البنات اللاتي علمتهن القراءة؟ بتول؟ أو ربما أخذتها للماستر علي وطلبت منه أن يقرأها، ولن يردني، لكن كيف ستحدثني عن الأشياء التي لا تقولها البنت إلا لأمها؟ أعرف أنها لن تكتب ذلك الكلام، وستكون رسائلها مثل رسائل ناصر، قصيرة بكلمات تقول وتخفي، وأنا سأفهم، الأمهات يفهمن.

لا بأس، عندما ستعود ستحكي لي كل الأشياء التي خبأتها عن عيون الناس، لكن من أي بحر يُغرف الصبر؟

تزوجت فاطمأن قلبي إلى أن يدًا لن تطالها، لن يؤذيها أحد، لا فردوس ولا غيرها، ومتأكدة من أن ناصر يعرف كيف يحميها ويداريها ويفهم تبسمها عندما تجلس وحدها، ولا أعرف إن كانت تبتسم لأطياف تزورها فتفرحها أم أنها الكلمات التي في رأسها تسليها وتتسلى بها.

لم يكملني شيء بعد رحيل أبي إلا حملي بها، وعندما ولدتها عدت خاوية كما بدأت، ثم كبرت في حضني وبين يدي وأمام عيني، فاكتملت أنا

مكتبة ياسمين

بها، والآن رحلت فعاد ذلك الفراغ إلى قلبي. تراني أحسنت صنعًا عندما تركتها تسافر مع ناصر وما اشترطتُ أن تبقى معي فيعاودها في الرخص؟ لكن أي حياة هذه؟ رجل في الشرق وامرأة في الغرب!

تراني عندما زوجتها فعلت ما فعله أبي من قبل؟ هل تخليت أنا عن ابنتي أيضًا عندما هونت عليها فراقي والسفر مع زوجها؟

ما أدراني الآن كيف هي هناك؟ هل وصلت في خير؟ هل طابت لها الدوحة؟ هل لاقاها أهل عبدالله القلهاتي ملاقاة حسنة؟ أم أنهم ما قدروا قلة كلامها وانشغالها بقراطيسها؟

أهي لعنة نتوارثها؟ دلشاد تخلت عنه أمه وتخلى هو عني فتخليت أنا عن ابنتي؟ لكن هل تخليت حقا عن فريدة أم أن الدنيا هكذا؟ تكبر الواحدة منا فتفارق بيت أهلها، تتزوج وتصبح أمًا ويكون لها بيت وولد.

فريدة تأخرت في ذلك عن البنات، تأخرت كثيرًا، حتى تزوجت كل فتيات مطرح اللاتي في سنها، وهي ترفض خطابها الواحد تلو الآخر، وقلبي يهجس بأنها تنتظر أحدًا ما، هل كانت تنتظر ناصر؟

ربما، لكن لا يهم، فقد تزوجت الرجل الذي من نصيبها، كما تزوجت أنا من كان نصيبي، وكانت فرحة وهي تضع زينتها، وعندما فارقتني كانت الدموع في عيني أنا، أما هي فلم تنزل دمعة واحدة على خدها، هل كانت تداري دمعها؟ أم أن عين البنت كانت على البحر وما وراءه مثل أبيها؟ أظن لو كان الله قد رزقني ولدًا من عبد اللطيف لكان ركب الباخرة وهرع إلى الدنيا قبل أن يخط شاربه.

عزيت نفسي بأني لست وحيدة، ما دامت فاطمة تسليني بالحكايات التي يحكيها لها مراد داهوك،

مكتبة ياسمين

الذي أصبحت تراه في موته أكثر مما كانت تراه في حياته، وحسن الذي صار رجلًا، وله حمار يعتمد عليه فيعينني على أمور دكاني، وأهل مطرح الذين لا يتوقف كلامهم، خاصة بعد زواج فريدة، فصار ما يقال في جلساتهم يصلني في دكاني، وعرفت عن نفسي ودنياي وحتى عن عبد اللطيف أشياء ما كنت أعرفها من قبل. ربما ظنوا أن عرس فريدة وزينتها من إرث عبد اللطيف ولا يعرفون أننا ما ورثنا غير الديون. سمعت أن لي مزارع في دارسيت وغلا وحيل الغاف، وأن تجارتي ما كانت لتقوم لولا أنها امتداد لتجارة بيت لوماه وشراكة قديمة بين عبد اللطيف والبانيان وبعض التجار من اللواتيا.

كان كلام الناس يغضبني ويسليني، أما فراغ قلبي فكنت أملؤه بالانشغال بتجارتي، في اختيار الأقمشة الجديدة والنقوش والتفكير في طرق جديدة أصل بها إلى النساء وأجذبهن إلى بضاعتي، التي أنوي أن أنوعها وربما إذا خلا دكان تورينهام الذي يقابل دكاني اكتريته، وبعت فيه القدور والمواعين والملاليس والصرجان، وغيرها مما تحتاجه البيوت، أما فريدة فمهما طالت غربتها فستعود.

ازدادت زيارات أبي لمنامي، أراه في السوق، أكاد ألمسه فيبتعد، أو أراه واقفًا وسط الوادي يناديني ثم لا يلبث أن يجرفه السيل.

عزمت على أن أحمل أشولة الميرة من رز وسكر على حمار حسن وأهبط إلى مسقط، أزور با سنجور جمعة، لأني إن لم أفعل فسأظل معلقة بخيط من الرجاء أخاف أن أفلته، وأخشى أن أتمسك به فأبقى معلقة ما حييت.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

تمنيت القتال منذ التحاقي بالعسكرية، أن أطلق الرصاص أو أشتبك مع عدوي وأغرس سكيني في بطنه أو أشق صدره أو أذبحه، أردت أن أكون جنديًا مثل جدي وأبي، رجلين ينظران إلى عين الموت، ولا يخافان كما خاف جدنا الناجي من مجزرة قلعة لنكران، وهو يوجه بندقيته في الاتجاه الخطأ ويردي ذلك الجندي الأذري، الخوف الذي طارده من لنكران إلى تبريز وأصفهان ثم دفع به إلى الاستقرار في بوشهر.

ترى هل بقي شيء من ذلك الخوف الملعون في دمنا؟ نتوارثه، نغلبه أحيانًا ويغلبنا أحيانًا أخرى، لا بد أن الأمر كذلك، وإلا فما لي جزعت عندما وجهت بندقيتي إلى صدر رجال القبائل، ولماذا خفت، عندما رأيت أجساد رفاقي تتحول إلى أشلاء، وأحشاءهم تندلق خارج بطونهم؟ أليس القتل عمل الجندي؟ أليس الجندي في الحرب قاتلًا أو مقتولًا؟

في القابل ونحن بعيدون عن الموت زادت هواجسي، ماذا لو أني لن أعود إلى مطرح، ما مصير أمي ونوران في هذه الدنيا وهما بلا رجل، ولا أعرف إن كان عاكف سيعود يومًا من تبريز أم سيطيب له المقام هناك وينسى أن له أهلًا في مطرح.

في أحلامي أرى انفجار لغم وأراني أتحول إلى أشلاء تتناهشها الذئاب والنسور، أو أراني أحاول لملمة جثتي التي تتفسخ أمام عيني. في أحلامي رأيت نفسي قد خلعت زي العسكر ومشيت عاريًا حتى ابتلعتني الرمال.

أستيقظ فيثقل علي شعوري بالخجل، لكني ما استطعت الحديث عن هواجسي مع أحد، حتى عبد الرحيم الذي كان سيسخر مني بالتأكيد، سيسخر

مكتبة ياسمين

مني ومن سلالة رسلان التي كنت أعتز بأني سليلها.

مطلع العام الجديد وصلت كتيبة مشاة مسقط إلى عبري، وأمرنا فتحركنا للتمركز في القابل حاضرة بلاد الشرقية، بينما توجهت سرية منا لتعزيز حماية المعسكر في الدقم. هلال بن سيف ومرهون بن خلف ويعقوب لشكران بقوا في القابل، بينما أمرنا أنا وعبد الرحيم حسن ومير عبد الرسول بالالتحاق بسرية الدقم، لكن قبل أن نتحرك إلى الدقم بيوم أو يومين، تعطلت سيارة تابعة للشركة بين المنترب والغبي، فتم الإبراق إلى القلعة وأمرنا أنا ومير عبد الرسول وعبد الرحيم حسن وبعض الجند بالذهاب إلى الموقع والمساعدة في إصلاحها.

تحركنا من القلعة مع أحد الميكانيكيين وثلاثة جنود آخرين، وعندما وصلنا وجدنا سيارة البدفورد التابعة للشركة قد ارتفعت حرارتها وغرزت إطاراتها في الرمل، سحبناها بالحبال، ثم قام الميكانيكي بصب الماء في أحشائها حتى تبرد.

ما إن تحركت سيارة الشركة، حتى رأينا مجموعة من رجال القبائل المسلحين يتجهون من القابل إلى الغبي، فأخذنا مواقعنا ووجهنا بنادقنا، ثم وصل الميجور دينسون في سيارته اللاندروفر وهبط منها، وأطلق رصاصة.

لم نعرف ما إذا كانت الرصاصة لتحذيرنا أم أن الميجور يأمرنا بالهجوم، فأطلقنا الرصاص احتياطًا، عندها رد رجال القبائل بالرصاص على الرصاص.

أصيب الميجور برصاصة في ساقه وبقي على الأرض حتى سحبه الرجال ونقلوه إلى سيارته اللاندروفر ومن هناك أعطى أوامره لنا بالانسحاب إلى قلعة المنترب.

قُتل منا جنديان، حمود بن مصبح من أهل الباطنة

مكتبة ياسمين

ومير عبد الرسول، وأصيب عبد الرحيم بخدش في ذراعه، بينما لم يلحق بي شيء، مع ذلك لاحقتني الرصاصات في أحلامي.

كنت وعبد الرحيم نقوم بالدورية الليلية حول القلعة، عندما سمعنا وقع خطوات تأتي من ناحية شجرات السمر خلف القلعة، فأشرت إليه أن نفترق حتى نحيط بالمهاجمين، فمضى إلى اليسار وذهبت أنا إلى اليمين.

بعد قليل تعالت أصوات خطوات تركض نحوي، فانبطحت ووضعت اصبعي على زناد بندقيتي متأهبا، ثم سمعت من ناحية عبدالرحيم صوت رصاص، بقيت منبطحًا في مكاني، مترصدا الأصوات التي خمدت.

قمت وسرت ببطء ناحية عبد الرحيم، ثم فجأة تسارعت الخطوات، لم أعرف كم رجلًا كانوا لكنهم كانوا كثيرين، ويهاجمون من كل ناحية، من أمامي ومن ورائي، ومن اليمين ومن الشمال، فصرت أطلق الرصاص من دون تمييز، إلا أن الأصوات ظلت تقترب، أشباح تحيط بي ولا أراها، ثم شقت بطني بضربة خنجر، فسقطت.

صرخت أستغيث بعبد الرحيم لكنه لم يجاوبني، ثم رأيت شبحًا يركض نحوي، فأطلقت ما تبقى من الرصاص في مخزن البندقية.

سقط جسد قربي ثم ابتعدت أصوات الأقدام، فعرفت أن المهاجمين قد انسحبوا، من دون أن أعرف إن كانت رصاصاتنا أنا أو عبد الرحيم قد أصابت أحدًا منهم.

لمست بطني فأحسست بلزوجة الدم، ثم بدأ الألم يزداد، أين عبد الرحيم؟

صرت أزحف في اتجاه الجهة التي ذهب إليها،

مكتبة ياسمين

أنادي باسمه بأقصى ما أستطيع لكن صوتي لا يخرج. أتذكر أني كنت أضغط على جرحي وأحاول أن أقوم، لكني كنت مرة بعد مرة أسقط، ثم شعرت بدوار والخدر يسري في جسدي، فتمتمت بالشهادة، وانتظرت أن يأتي ملك الموت.

لا أعرف أي ليل ابتلعني، ولا أعرف كم المدة التي بقيث فيها غائبًا عن الدنيا، لكني استيقظت على يد أحد الجنود تهزني، حملوني، فنظرت حولي فلم أجد أثرًا للرجال الذين هاجمونا، لكن على مبعدة انكب بعض الجند ليرفعوا جثة كانت تلبس زيًا عسكريًا.

غبت عن الدنيا وما استيقظت إلا في غرفة الطبيب بمخيم الدقم، كانت النار في أحشائي تستعر، حاولت تحسس جرحي، لكن يدي ما طاوعت رغبتي، فبقيت ممددًا أتأوه، والطبيب يأتي بين حين وآخر فيقيس حرارتي.

شعرت بالإبرة تخترق جلدي مثل لدغة عقرب، ورأيت العقارب تتساقط عليّ، عقارب الصحراء الصفراء، رأيتها تمشي نحوي، الواحدة بحجم الكف، أحاول أن أستنجد، أن أقول شيئًا للطبيب، لكني كنت أنسى ما أريد أن أقول وأغيب ثانية.

مكتبة ياسمين

انتهت أصابع كفي وقدمي فضيعت الحساب، علمني الرجال الذين كانوا يراقبون تنقل الخيط من إصبع إلى أخرى كيف أجرح الجدران وأضع علامات للأيام. كانت جدران الزنزانة مثلمة بالأسنان الصغيرة التي كأنها تأكل من يسكنها، لكني لم أكن أعرف العد فضاع مني الحساب، فما عرفت إن كان مرّ على وصولي إلى الجلالي شهر أم شهران، منذ متى وأنا هنا؟

أسأل الشيخ إبراهيم فيقول عد السطور التي صنعتها، لكني ما عدت أعرف ما جرحته مما جرحه غيري، ولا أعرف كيف أعد أكثر من عشرة، والخطوط التي أجرح بها جدران الزنزانة صارت مثل أنياب كلاب تطاردني.

في أحلامي كنت أرى كلبًا ضخمًا، فمه مفتوح ولعابه يسيل على الأرض، يبحلق إليّ بعينين متقدتين كالجمر، يكشر فتظهر أنيابه، أنياب طويلة وحادة، ينبح فيرتد صوته وكأنه ألف كلب، ثم يعدو صوبي وأنا واقف في مكاني لا أستطيع الحركة، أنظر إلى قدمي فلا أجد الأغلال في كاحلي، لكني واقف في وسط الوادي والماء يرتفع حتى يكاد يغرقني، والكلب يقفز في الماء ويقترب لينهشني.

أستيقظ صارخًا فيستيقظ الشيوخ، يقرأ الشيخ إبراهيم بعض السور على رأسي ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فأهدأ قليلًا، ثم يمر النهار فأنسى حلم الليل.

يتكرر الأمر كل ليلة، وفي كل ليلة أرى الكلب ينهشني، حتى صار الشيخ يقرأ على رأسي القرآن قبل أن أنام، لكن الكلب كان يعود في كل ليلة، بل صاروا أكثر من كلب وكلها تركض نحوي، وكلها تريد

مكتبة ياسمين

أن تنهشني.

توقف صراخي فجأة، عندما رأيت الكلب يقف عند حافة الماء ورأيتني أغرق.

يقول الشيخ إبراهيم إني توقفت عن الصراخ بسبب الآيات التي يقرؤها على رأسي كل ليلة، لكني لست متأكدًا من ذلك، هل كان ذاك ما نفعني أم غرقي؟

عند استيقاظي كل صباح أشعر وكأني على وشك أن أتذكر، وأكاد أفعل، أقترب جدًا، أشعر أني ربما كنت على بعد خطوة، ثم يختفي الهاجس، لحظة تقترب ثم تفلت مني، فكأن ذاكرتي تلوب عليّ وأنا ألوب عليها.

أصبحت الزنزانة أضيق عندما أدخلت علينا مجموعة جديدة من المساجين، كانوا خمسة رجال، رحب بهم الشيوخ وكأنهم يعرفونهم من قبل، وعرفت أنا من أحاديثهم أنهم جاءوا من عبري وتنوف ونزوى.

أخبرونا عن الحرب، حرب بين الإمام غالب والسلطان، وأن الجيش احتل نزوى واستولى على قلعتها وقلعة الرستاق، وأن أخ الإمام غالب اضطر إلى ترك البلاد واللجوء إلى السعودية.

كنت أسمعهم ولا أعرف البلاد التي كانوا يتحدثون عنها ولا من يكون الإمام غالب ولا من هو أخوه، ولا لماذا يتحاربون.

وعندما سألهم الشيوخ عن تهمهم قال الشيخ خالد بن زاهر «مسكونا نهرب سلاح، كنا ثمانية، قتلوا منا ثلاثة وبقينا نحن الخمسة، حملونا في البدفورد وجابونا هنا».

أمسك بي الحراس بعد انتهاء جولتنا في باحة

مكتبة ياسمين

السجن، انتزعوني من بين الشيوخ وقادوني إلى زنزانة أخرى وأغلقوا الباب دوني، كانت الزنزانة مثل الزنزانة التي كنت فيها لكن وجوه الرجال تغيرت.

نظرت إلى الوجوه التي طالعتني، في عيونها حمرة كتلك التي للكلاب في أحلامي، لكنهم كانوا بلا أنياب، بل أغلبهم مثلي فقد أكثر أسنانه. كانوا تسعة رجال وكنت عاشرهم، وكنت أعرف أنهم سيطلبون مني أن أخبرهم عن اسمي وتهمتي.

جلست قرب الباب فاقترب مني رجل يطفح الشر من عينيه وركلني في خاصرتي «قوم من هنا»، فابتعدت، فجاء رجل آخر فركلني وقال مثل سابقه فابتعدت ثم جاء ثالث فقمت له، لا أعرف من أين جاءتني القوة، لكمته على أنفه فسقط ونهض الرجال، صاروا حلقة حولي ويقتربون مني، لحظتها رأيت الكلاب التي تأتيني في الأحلام، ورأيت أنيابها تقطر دمًا.

لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك، لكن عندما استيقظت كان الرجال يجلسون على مبعدة مني.

«هذا الرجل فيه جني، شفته كيف انتفض؟».

«هذا مصروع، كما ولد عمي، مرة حضرت عليه ينتفض خلاف يبس، وشفت عمي يحط خيزرانه في فمه عن ياكل لسانه».

قرب إليّ رجل كوز الماء وسقاني، كنت متعبا فأغمضت عيني ونمت، وعندما استيقظت وجدتهم قد احتفظوا لي بنصيبي من الأكل، فأكلت.

«أنا اسمي عبيد الشون، لص، بو أشوفه قدامي أشله، أدخل السجن في السنة مرة أو مرتين، يلشطوني بالخيزرانة ويسجنوني كم شهر وبعدين يفلتوا لي».

مكتبة ياسمين

«يسميوني بخيت بن ثابت، ما فعلت شي، لشطني حبابي بخيزرانته، وقال إنه يمازحني، مازحته بالمثل، لشطة بلشطة، لكنه ما عجبه، قام واشتكاني عند السيد شهاب فحبسني، وعاد لي شهر هنا».

«أخوك سالم بن عدي، قلعت عين رجل بنشاب، قال السيد العين بالعين، وأمر لي بحبس شهر وإن شاء الله الشهر الجاي برد بيتي بعين وحدة، وأنت؟».

وأنا؟

«أنا الشيخ إبراهيم بن زاهر، أهرب سلاح للثوار في الجبل، مسكوني في الرستاق وجابوني هنا، حكموا علي بعشرين سنة».

تراجعوا حتى التصقوا بالجدران، وأنا أعجبتني القوة في صوتي، أحسست أني صرت شيخًا مثل الشيوخ الذين عرفتهم، صرت مثلهم أحمل السلاح، أثور على البغاة وأقاتل.

لا أعرف إن كان الرجال خافوا من القوة في صوتي أم أن ذكر الشيوخ أرهبهم؟

لكن عندما ارتفع أذان المغرب توضأت، ثم رأيتهم يفعلون مثلي، وعندما أقمت الصلاة وقفوا خلفي سطرًا، كبرت فكبروا، ركعت وسجدت ففعلوا مثلي، ومن همهماتهم ورائي عرفت أنهم مثلي لا يعرفون الصلاة.

مكتبة ياسمين

فريدة

كنت أظن أن البحر خصيمي حتى ركبت الباخرة، ففهمت الشوق الذي كان في صوت أبي وهو يحدثني عنه. عرفت أن السفر فيه هو أن تكون في حال بين حالين، لا أنت بخائف ولا أنت بمطمئن، ولن ينجدك إلا التوق إلى ما لا تعرفه.

ترددت قبل أن أركب العبارة التي نقلتنا من الفرضة إلى الباخرة، كنت أراها تتأرجح وهي تقترب، وكلما صعد عليها أحد من المسافرين تأرجحت تحت ثقله أكثر، كيف لا تغرق بالناس وما يحملونه؟

تذكرت تلك الليلة التي ركبنا فيها الهوري من مسقط إلى مطرح، كنا كالهاربين من خوف إلى خوف، لا نعلم أي الجهتين أخطر، بيت لوماه أم بحر مسقط؟ خطت أمي مسترشدة بسراج ناصر وأنا خطوت خلفها واضعة يقيني فيما اختارته لي ولم أتردد.

وها أنا أفعل ذلك ثانية، أمشي خلف ناصر وإن كان من دون سراج يحمله في يده، فما حاجتنا إلى سراج والشمس على الرؤوس، والبحر أكثر زرقة من اليوم الذي مات فيه أبي. أفعل ذلك مطمئنة إلى الرجل الذي صار إليه ناصر والعزيمة التي في عينيه.

عندما وصلنا قرب الباخرة كان يجب عليّ أن أصعد سلم الحبال الذي ذلّي لنا، فنظرت إلى وجه ناصر فهز رأسه مشجعًا، مطمئنًا كما كنا ونحن صغار، وكأنه ضمن أن كل شيء سيمضي كما يريده أو ربما كما قدر له، أو وكأن كل ما يقدر له سيكون ما يريده، لا أعرف.

يحيرني بهدوئه، فأشعر دائمًا بأن هناك ما يخبئه،

مكتبة ياسمين

شيئًا يخصه ولا يقاسمه أحد، شيئًا يجعله واثقًا بكل حركة يقوم بها ولا يخاف أن تزل قدمه.

«كما تطلعي الدرج في بيتكم، لكن خلي قوتك في يديك، اعتمدي عليها وطلعي».

أتردد، لكن النظرة في عينيه تحثني فأقبض على سلم الحبال وأصعد فيصعد خلفي، وعندما أخاف وأتوقف آخذ نفسًا وأستجمع قوتي. تضج أصوات الركاب المستعجلة خلفنا، فأنظر إلى وجهه بقلق فيبتسم ثم يغمز بعينه تلك الغمزة التي كنا نتآمر بها ونحن نراوغ فرشوه وعساكر، فأحمل جسدي على ساعدي وأرتقي سلمة بعد أخرى.

تركني ناصر واقفة على السطح، وذهب ليستلم مفتاح القمرة، استندت إلى الحاجز، أنظر إلى مسقط التي بعدت حتى ما بقي منها إلا خيط رفيع كزينة للأفق.

رأيت البحر ينشق تحتنا وكأنه يوسع للباخرة حتى تجد دربها فيه، عببت رائحته وقلت لناصر عندما عاد ليحمل صناديق سفرنا ويأخذني إلى القمرة إن ريحته تدوخ، لكني لم أُصَب بالدوار كما حذرني ناصر، في البداية شعرت بأني أتأرجح في مشيتي لكني تمالكت نفسي سريعًا واستقمت.

عندما أخبرتني أمي، قبل ليلة زفافي، بالذي يجري بين المرأة وزوجها، خفت واستحلفتها أن تشترط على ناصر ألا يقترب مني حتى آنس بخلوتي معه «الرجال ما فيهم صبر والحرمة في فراشهم»، حاولت أمي أن تقنعني بأن هذا ما يفعله الناس، لكن ما لي أنا والناس يا أمي، لا أريده أن يقترب حتى آنس إليه.

لا أعرف كيف بلغت أمي ناصر بطلبي، لكنه التزم طوال مكوثنا في بيت أمي ثم في بيته في ميابين،

مكتبة ياسمين

رغم أني كنت أرى الشوق في عينيه، وكنت أشعر بالشوق يسري من قلبي فتختلج أطرافي من نظرته المثبتة على وجهي عندما أكون ساهمة، بيد أني كنت أريد أن أختبر العشق وما يقوله العشاق، وكيف لهم أن يقتربوا ولا يذوقوا، هل هذا جنون أيضًا؟

قمرتنا الضيقة لم تسمح لنا بإكمال اللعبة، فكان جسدانا يتصادمان في كل حركة نقوم بها، والسرير الصغير لم يكن يمنحنا السعة في قياس المسافة بين جسدينا.

بقينا في البحر أسبوعًا، ونادرًا ما كنا نغادر قمرتنا، مشغولين بالكلام وبلعبتنا الجديدة، لا نفيق منها إلا على جوع بطوننا.

توقفنا في فرضة دبي، لكننا لم نهبط من الباخرة، وحتى لا يبقى في خاطري شيء منها، صعدنا إلى السطح، ورأينا تلك البلاد المخلوقة من الرمل وسمعنا ضجيج السوق في فرضتها، وشاهدنا هبوط المسافرين إلى العبارات وصعود غيرهم إلى الباخرة.

كان السطح مزدحمًا بالرجال، ولم ألتقِ إلا عائلة سافرت معنا من مسقط وأخرى ركبت معنا من دبي قاصدة المنامة.

خالتي شيخة وعائلتها ركبوا من مسقط، كان لها ولدان وابنتان كما حكت لي، لكني لم أر معها على الباخرة إلا شابًا واحدًا يرعاها ويطوف حولها وحول أخته التي ربما كانت في سن بتول، وعندما سألتها عن بقية عيالها، تندت عيناها وأخبرتني أنه فرّق بينها وبين ابنها البكر عندما تطلقت من أبيه وهو ما زال صغيرا، وأن ابنتها من زوجها الثاني زُوّجت لرجل أخذها إلى زنجبار فانقطعت أخبارها.

سألتني خالتي شيخة من أي البلاد نحن، فقلت لها نحن من مسقط ومطرح، فأخبرتني بأنها سكنت

مكتبة ياسمين

مسقط مدة، لكنها لم تر منها إلا الدرب من الفرضة إلى بيتها الذي لم تخرج منه إلا عائدة إلى بلادها هاربة، ثم قالت وهي تبتسم «تبيني عروس وبعده ما تحتش بذرة»، فتحسست بطني، وتخيلت البذرة فيه ورحمي يتحول إلى باغ كباغ الزواوي، الذي كنت وناصر نطل عليه من سطح بيت لوماه، فنرى نخله ووورده وياسمينه. كانت فرشوه تقول إن فغوة الياسمين فيه بمقدار الكف، وكنت أتخيل كفوفنا الصغيرة تتحول ياسمين، فنرفعها إلى أنوفنا ونشمهما.

لاقيت الخالة شيخة مرات على السطح وكنت آنس لحكاياتها عن زواجها الأول وعن زواجها الثاني ورحيلها إلى الدوحة مع زوجها، لكن ما إن هبطنا في مسيعيد حتى ألهتني الحركة من حولي وأنا أتبع ناصر بنظري، خائفة أن أضيعه في الزحام، فذهبت من دون أن أودعها.

في فرضة مسيعيد حركة نشيطة والناس تصطف طوابير أمام الجمرك، وكما قال ناصر لا توجد جبال في هذه البلاد، لكن ورغم أننا وصلناها قرب الظهر فإن هواءها كان أرق وأبرد بكثير من هواء مسقط.

حمل العتال صناديق سفرنا ومشى أمامنا، يتبعه ناصر وأنا خلفه ملتفة في عباءتي التي خاطتها لي أمي من الحرير، وشغلت نساء مطرح حاشيتها بعقد متشابكة من الخيوط السوداء. لم أكن متعودة على لبس العباءة في مطرح، فصرت أمشي فيها بحذر خوف أن تسقط من راسي أو أن أتعثر بها فأسقط أمام الناس، حتى وصلنا عند موقف سيارات الأجرة فاكترى ناصر سيارة وتوجهنا إلى الدوحة.

نزلنا أول شارع الكهربا، ومشينا فيها حتى وقفنا أمام بيت، فدق ناصر الباب وعندما فتح تراجع

مكتبة ياسمين

وجعلني أتقدّم، ومن ورائي خاطب المرأة التي كانت ترتدي ثوبًا فوقه قطعة من القماش الأسود الخفيف، وتغطي نصف وجهها بطرف وقايتها

- عمتي أم سالم، هذه فريدة، حرمتي، بخليها عندش لين أشوف عمي عبدالله وأرجع لكم.

- استحقيتوا السلامة، قربي فريدة، قربي.

لم يكن بيت العم عبدالله كبيرًا كبيتنا في ولجات، لكنه كان أكبر قليلًا من بيتنا في حارة الشمال، في وسطه حوش واسع مفروش بالحصى وعلى جانبيه تصطف الحجرات.

أشارت أم سالم إلى حصير تحت سدرة تتوسط الحوش وتلقي بظلالها على أطرافه، فجلست عندها.

أنست لحديث المرأة عن بيتها وأولادها وأحفادها والدوحة، لكن كان لها صوت يشبه صوت مَا مويزي وهي تحكي لي القصص، وشعرت بأني أنود في جلستي، لولا أنها عالجتني بفنجان قهوة، ثم وضعت خادمتها عنبور صينية عليها صحن من الخبيصة أمامنا، ما إن وضعت منه لقمة في فمي حتى تذكرتُ دموع أمي تسيل على خدها وهي تودعني عند الباب، فتحولت اللقمة إلى غصة.

لم يتأخر ناصر كثيرًا وعاد بصحبة رجل، عرفت أنه العم عبدالله القلهاتي الذي سأل عن حالي والبلاد التي جئت منها، ثم ناول ناصر مفتاح البيت الذي اكتراه لنا، فخرجنا إلى بيتنا الذي كان يقابل بيت العم عبدالله.

يشبه بيتنا بيت العم عبدالله لكنه صغير، أصغر بكثير من بيتنا في حارة الشمال، «أشوف أولادنا يتراكضوا في هذا الحوش»، قال ناصر ذلك وابتسم وكأنه يحلم.

مكتبة ياسمين

طلبت من عمتي أم سالم عودًا من شجرتها حتى أغرسه وسط الدار، حتى إذا ما كبرت سدرتي نشرت ظلالها في الحوش وبددت وحشة الطين فبرد، بعدها صرت أغرس الريحان في صفائح السمن الخالية، وأصفُّها على جوانب الحوش، وهكذا صار بيتي باغًا صغيرًا، وصار يذكرني أكثر ببيت لوماه.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

تلفت حولي فلم أجد شيئًا قد تغير وكأن أكثر من عشرين سنة لم تمر منذ أن عدت إليها مع ما مويزي لأقدم نذوري عند أبي الشقص، البيوت هي البيوت، والعشش هي العشش، والحيشان المهجورة على حالها، الدروب والسكك والكلاب والذباب كلها في مكانها.

تركت حسن وحماره ومشيت صوب حافة الوادي، فرأيتني طفلة أبني بيتًا من الطين، ملأته أطفالًا وشياهًا وزرعت حوله نوى التمر التي جرفها السيل فنبتت وتفرعت في أرض الوادي، لتصبح نخلًا وليتوسط بيتي الباغ الذي زرعته.

أراني طفلة أركض وأتعثر وأقوم، أدعك الخدوش والسحجات عن ساقي وذراعي وأنهض، أتشاجر مع مستورة بنت خلف على من يملك الشياه ومن له حق في النخل، من يطبخ الغداء، ومن يجلب الماء من الطوي البعيدة، ترى أين صارت مستورة؟ هل كبرت وتزوجت وصار لها أولاد؟ أم أنها ورثت عن أمها ذلك المرض الذي نخر رئتها فماتت صغيرة؟

أرى السيل يندفع فيخرج أهل الحارات من عرب وبلوش وحتى بانيان المعبد، كبارهم وصغارهم عاقلهم ومجنونهم، يقفون على حواف الوادي، ينظرون بوجل إلى ما أخذ السيل في طريقه وما ترك. أرى أبي يمسك بيدي عندما يهبط السيل خوف أن أذهب إلى الماء أو يأخذني الماء إليه.

مشيت ومشى حسن بحماره خلفي، اقتربت من قلعة الراوية، والحوش الذي كنا نتلصص من شقوق جدرانه على الثيران وهي تأكل عشاءها، فتدوخنا رائحة طعامها الحار، ونعود وقد علق في ثيابنا شيء من أبخرتها.

مكتبة ياسمين

كل شيء كان على حاله تقريبًا، بل ربما ما تغير شيء إلا أنا.

عندما سألت با سنجور عن أبي، قال إنه سافر لكنه لا يعرف إلى أين، الهند أم زنجبار؟

هل عاد أبي من تلك البلاد أم أنه تزوج في الهند أو زنجبار وصار له أولاد غيري ونسيني؟ هل نسيني دلشاد؟ أم أنه مات ولن أعرف خبره أبدًا، فأظل معلقة بضحكته التي صار رنينها يخفت في قلبي.

تركت حسن وحماره بما حمل يستظل بسدرة نبق عند الوادي ومشيت صوب لوغان، كان الوقت ظهرًا والشمس كأنها تصب صباً على رأسي، مشيت إلى بيت بَا سنجور كما أذكره، جانب منه في لوغان والآخر مطل على الوادي الصغير والمقبرة وضريح أبي الشقص.

طرقت الباب، فخرجت امرأة، وسألتني عمن أكون وماذا أريد، أخبرتها بأني أبحث عن سنجور جمعة، فأشارت إلى المقبرة، هل مات بَا سنجور؟ كيف لم يخطر في بالي أن الرجل ربما قد مات، كيف لم يخطر لي أن زهاء عشرين سنة مرت على آخر مرة رأيت فيها الرجل الذي لا أذكره إلا عجوزًا يحكي لنا الحكايات.

بعد قليل خرج من ورائها رجل كهل، ما إن وقعت عيناي عليه حتى عرفته، نوح، عرفته ولم يعرفني لكن عندما ناديت باسمه اقترب ونظر إلى وجهي طويلًا.

- أنا مريم... مريم دلشاد.

- مريم بنت دلشاد... بنت دلشاد، مريم؟ أنت هين مريم؟ أنت هين؟ تعالي دخلي.. دخلي.

جلسنا على حصير وسط الحوش.

مكتبة ياسمين

- وين سرتي مريم؟ أنا وبا سنجور دورنا سنين، سمعنا عبد اللطيف لوماه مات، رحت معاه العزا في مسجد البحارنة، لكن يوم رحنا ولجات بعد مدة، لقينا البيت مهجور، بَا سنجور دور في حارة العجم وحارة البحارنة وحتى مغب والعور والمدبغه، كله مسقط داخل دور، بس كل حد قال ما يعرف هين راحت مريم وبنتها، با سنجور بكى.

- الله يرحمه ويغفر له، خبرني نوح أبوي رجع؟ دلشاد رجع؟ أنا كأني شفته في سوق مطرح، بس هو ما شافني، ركضت وراه وما لحقت عليه، أنت شفت دلشاد؟ دلشاد رجع؟

- أيوا مريم، دلشاد رجع، يمكن بعد موت عبد اللطيف بست أو سبع سنين، جا عندنا في لوغان، سأل با سنجور، بَا سنجور خبره مريم تزوجت وجابت بنت.

- هين ألقاه؟

- ما حد يعرف، جلس يدور سنين في حارات مسقط، ما خلّى مكان، وقبل ما يموت بَا سنجور بكم يوم خرج من البيت وما رجع.

قام نوح وعاد حاملًا صندوق سفر ووضعه أمامي.

- دلشاد رجع من الهند ومعه هذا الصندوق، ويوم راح خلاه في مكانه، نحن ما فتحنا الصندوق مريم، با سنجور قال هذه أمانة وأن دلشاد بيرجع، لكن دلشاد ما رجع.

فتحت الصندوق، ففاحت منه رائحة أقمشة مختمرة ورأيت أساور من الزجاج ملفوفة داخلها، أخرجتها وتلمستها ورفعت رأسي إلى نوح.

هبطت دموعي ثم ضحكت، ضحكت كما كنت أضحك مع دلشاد وكما كنت أضحك مع فريدة وكما

مكتبة ياسمين

كنت أضحك كلما أوجعني أمر أو استغلق عليّ فهم قسوته.

رفعت رأسي ورأيت نوح وزوجته وأطفاله يحملقون إليّ وكأنهم يرون أمامهم امرأة مجنونة، فمسحت وجهي ودموعي وقمت.

حمل نوح صندوق أبي ومشى معي إلى السدرة، فناولته زكائب الميرة، حاول ردها لكني حلفت عليه حتى يقبلها فقبل خجلًا، وضعت صندوق أبي على ظهر الحمار وأوثق حسن ربطه عليه، وقبل أن أودعه وصفت له مكان بيتي في حارة الشمال وأكدت عليه إن سمع خبرًا عن دلشاد أن يأتي به أو يبعث إليّ أحدًا من طرفه.

عدت إلى مطرح وأنا أتقلب بين فرح وحزن، ثم صرت ألوم نفسي لأني ما استمعت إلى قلبي ساعة أن لمحته في السوق، لماذا بقيت مترددة طوال تلك السنين، وأنا بين مصدق ومكذب ما رأت عيناي وهجس به قلبي؟ هل كذّبت عيني أم كذّبت قلبي؟ أم أنني خفت أن أعود إلى مسقط قبل أن أزوج فريدة، وأضمن أن لن تطالها يد فردوس؟ نعم، خفت أن تأخذ مني فريدة فهي قادرة، ولو أنها عادت من البحرين، وأرادت ذلك لقدرت.

هي بنت لوماه وأنا بنت دلشاد وزواجي بأخيها لم يغير من ذلك شيئًا، سيميل أهل ولجات وحارة البحارنة والعجم ومغب والبانيان إليها، والقضاة والحكومة كذلك إن اشتكت، وسيستردون ابنتهم، كما يقولون، بنت لوماه تتربى في بيت لوماه، وسأبقى أنا دائمًا الغريبة، الفقيرة، مريم بنت دلشاد.

نعم كنت خائفة، ولولا زواج فريدة وسفرها ما أظن أني كنت أجرؤ وأهبط مسقط بحثًا عنه.

لكن ما فائدة ذلك الآن، وقد ضيعت أبي بعد أن

مكتبة ياسمين

ضيعني.

مكتبة ياسمين

ناصر بن صالح

نسيت إرسال البرقية إلى عمتي، أحلف بالله إني نسيت، سلبتني فريدة عقلي، وصرت لا أقدر على فراقها لحظة، ولولا أني كنت ملزمًا بالذهاب إلى الشركة ما كنت غادرت فراشنا.

أتأملها في نومها وعند استيقاظها، وهي تتحرك في البيت تنظفه أو ترتب أرجاءه، وهي تطبخ أو وهي تطالع الكتب التي أخرجتها من صناديقي وصفّتها على الروازن.

لا أصدق أنها خلقت من الطين الذي خلق الناس منه، كل شيء فيها يبدو كحكاياتها التي كانت تقصها عليّ ونحن صغار على سطح بيت لوماه، كل شيء فيها كأنه حقيقي ولكنه بعيد في الوقت نفسه، ألمسها وأحضنها وأتقلب معها على فراشنا لكني لا أستطيع أن أقول إني قادر على القبض عليها.

قالت دعنا نلعب لعبة العشاق كما كان يفعل قيس وليلى، قلت لها ما الداعي وليس بيننا ما بينهما، قالت جاريني فجاريتها، تحملت بعدها وهي بين يدي حتى أذنت بالاقتراب فاقتربت حاملًا كل ما خبأته لينسكب فيها.

أخيتها ونحن صغار، وتلهفت عليها عندما كاتبتها وما ردت عليّ، أما العشق فما ذقته إلا من يديها وهي تغرف من بئر لا أعرفها وتصبه عليّ، أشرب منه ولا أرتوي، ولا أعرف إن كان السر في صوتها أم في حكاياتها أم في رائحتها التي كلما اقتربت منها جعلتني غير قادر على تمالك طمعي، فأريد منها أكثر وأكثر.

تقول إن هناك ما لا تدركه فيّ، وكأن هناك سرًا

مكتبة ياسمين

أخبئه فأنفي، لا سر بيننا، لكن أنت السر، من أي عجينة خلقك الله؟ أورثت سحر أمك الذي فتن عبد اللطيف لوماه! أم أن الله خلقك على اسمك فريدة لا شبيه لك؟

تقول إني أتحدث وكأني جربت النساء من قبل، وأنا والله ما جربت قبلها امرأة وما عرفت كيف يكون السحر حلالًا ولذيذًا وخدرًا وطاغيًا هكذا.

عندما تذكرت أني يجب أن أرسل برقية إلى عمتي كي أطمئنها كان قد مر على وصولنا قرابة شهر، لكنها لم تعاتبني ولم تستعجلني، بل نظرت إليّ وابتسمت كما كانت تبتسم وهي تخطف قبضة حبوب من مخازن بيت لوماه وتجري بها معي إلى سطح الدار كي ننثره للحمام، وفرشوه تركض خلفنا.

هي الطفلة عينها، بيد أنها اختبأت في هذا الجسد الذي فرع وتحول إلى فتنة تمشي. كلما عدت من العمل لقيتها منشغلة إما بكتاب بين يديها أو بتقليم غصن أو برتق ثوب، وعندما أجتاز العتبة تقفز من مكانها، تطير نحوي وتعانقني، أحيانًا كنت أشعر أنها تركض ناحية أبيها فتعانقه، وعندما كان يخطر ذلك في بالي كنت أشعر بالغيرة، لا لأنها تشتاق إلى أبيها بل لأن ليس لي من أشتاقه.

لم يكن أبي في حنان أبيها، لم يحضنّي، بل لم يقترب مني أكثر من اقتراب غريب من غريب، وأنا لم أعرف عن أمي شيئًا ولا حتى اسمها، فحتى بعد أن حكى لي أبي حكايتها، لم يشر إليها إلا بأمك، وأنا لم أسأله، ولا أعرف لماذا لم أسأله، هل كنت أخاف إن عرفت لها اسمًا صارت حقيقة كما بقية الأمهات ولا أعود أتحمل شوقي إليها.

كنت عائدًا من السوق، فدخلت من دون أن تحس بي، وجدتها منكبة تخط في دفترها، فبقيت أتأملها

مكتبة ياسمين

من مكاني، تعجبني طريقتها في الكتابة، تسند الورقة إلى كتاب، تحضنه بيسراها وتغطي رأسها بكفها وكأنها تختبئ فيه، منحنية بجذعها على الورق وكأنها تغوص فيه.

ظننتها تكتب رسالة إلى أمها، سألتها فأرتني نسخها لأبيات شعر للمجنون:

صددتِ وأشمتِّ الغداةَ بهجرنا
أثابكِ فيما تصنعين مُثيبُ
أبعدُ عنكِ النفس وَالنَفسُ صَبَّةٌ
بذِكركِ وَالمَمشى إِلَيكِ قَريبُ
مَخافَةَ أَن تَسعى الوُشاةُ بِظِنَّةٍ
وَأُكرِمُكُم أَن يَستَريبَ مُريبُ
فَقَد جَعَلَت نَفسي وَأَنتِ اِختَرَمتِها
وَكُنتِ أَعَزَّ النّاسِ عَنكِ تَطيبُ
فَلَو شِئتِ لَم أَغضَب عَلَيكِ وَلَم يَزَل
لَكِ الدَهرَ مِنّي ما حَيِيتُ نَصيبُ
أَما وَالَّذي يَتلو السَرائِرَ كُلَّها
وَيَعلَمُ ما تُبدي بِهِ وَتَغيبُ
لَقَد كُنتِ مِمَّن تَصطَفي النَفسُ خُلَّةً
لَها دونَ خِلّانِ الصَفاءِ حُجوبُ

أمسكت الورقة وتأملت خطها البديع، ثم خطر في بالي أنها ربما كانت تعني أمها، فسألتها إن كانت كتبت إليها رسالة، فقد مر على وصولنا إلى الدوحة أكثر من أربعة أشهر، وقد سمعت من عمي عبدالله أن هناك رجلًا سيسافر قريبًا إلى عمان، فأجابتني بأنها لا أكتب الرسائل. استفهمت منها وألححت، فأخبرتني عن شرط أمها عندما سمحت لها بتعلم الكتابة، حينها فهمت تلك النظرات التي كانتا

مكتبة ياسمين

تتبادلانها عندما أسألهما عن الرسائل التي لم تصل، لكني لم أفهم لماذا ترفض أن تكتب إلى أمها «إن احتاج الأمر نرسل إليها برقية ونخبرها».

كنت أتوقع أن تخبرني عن شوقها إلى أمها لكني شعرت في صوتها بشيء من القسوة، قسوة لا تليق بها ولا بحنان مريم دلشاد، هل يعقل أن تكون ناقمة لأنها ما سمحت لها أن تكاتبني؟ لا أنفي، أعجبني ذلك، فأخذت يديها وقبلتهما.

لا أعرف إن كانت مريم دلشاد أخبرتها حكايتي، لكني تلك الليلة توسدت فخذها وأخبرتها عن أمي، عن قسوة جدتي وأبي عليها، عن هربها إلى بلادها، وعن طلاقها من أبي وزواجها برجل آخر وسفرها إلى الدوحة، حكيت لها الحكاية كما سمعتها من أبي.

«لماذا لم تأخذك معها؟».

سألت نفس السؤال الذي سألته نفسي كلما تذكرت أمي، لماذا لم تأخذني أمي معها، السؤال كبر في قلبي أكثر بعد أن هرَبت مريم دلشاد وفريدة من مسقط إلى مطرح، لماذا لم تأخذني أمي معها كما فعلت مريم دلشاد ولم تترك فريدة لعمتها فردوس؟ لماذا تركتني لتلك العجوز القاسية والأب الذي لا يتحرك إلا بإذن منها؟

«مو اسم أمك؟».

جلست واستويت لكني ما استطعت أن أنظر إلى عينيها، نكست رأسي «لا أعرف.. أبوي ما خبرني وأنا ما سألته»، لو كنت أعرف اسم أمي أو حتى اسم زوجها، كنت سألت عنهما في الدوحة، وربما كنت وجدتها؟ لكن هل كنت أريد أن أجدها؟ هل كنت سأفرح إن لقيتها؟

كدت أن أشرق بغصتي فتنحنحت لكني ما بكيت، رفعت وقايتها فوضعت رأسي على صدرها فغطتني،

مكتبة ياسمين

وهناك على صدرها سال دمعي حتى بلل ثوبها.

لم نعد إلى الحديث عن أمي بعدها، فلا يوجد ما يقال أكثر مما قلناه، لكن بعد أيام كررت عليها السؤال «ما تريدي ترسلي رسالة لمريم؟ الرجال بيسافر قريب»، لم ترد والرجل سافر.

بعد أسابيع طلبت مني أن أرسل برقية لأمها، ما عساها ستقول لأمها في برقية من كلمة أو حتى عشر؟ كيف ستختصر كل هذه المدة في سطر؟ لكنها لم تُطِل عليّ حيرتي وضحكت عيناها «أرسل لها كلمتين ولا تزيد».

مكتبة ياسمين

بعد أن عدت من مسقط بحوالي أسبوع، طَرق الباب بعد المغرب، فركضت فاطمة إلى الباب ثم عادت وناولتني ورقة بحجم الكف، عرفت أنها برقية، فلقد رأيت في كف عبد اللطيف مثلها من قبل.

سألتها من أحضر الورقة، فقالت رجل ولم تزد، هرعت إلى الباب عليّ أستوقفه، لكن لم أجد له أثر.

كان الظلام قد حل فما استطعت أن أذهب إلى بيت الماستر علي ليقرأ لي ما كُتب فيها فأثير كلام الناس، وما كنت أستطيع البقاء في مكاني، فبقيت أطلع السطح وأهبط منه، أدخل الصفة وأخرج منها، لا أقر في مكاني، تأخذني فكرة وتعيدني أخرى، ورغم أني كنت أعرف أنها برقية ولا بد أنها من الدوحة، إلا أنه خطر لي للحظة أن أذهب إلى فريدة في الصفة كي تقرأها لي، وكدت أفعل، ثم توقفت. تذكرت أن فريدة ما عادت هنا، حينها شعرت بألم يمتد من صدري إلى يدي وقدمي وينتشر حتى يصل إلى رأسي، ألم ما شعرت به من قبل، وكأن روحي استُلت مني في تلك اللحظة، أو كأني أنتبه لغيابها لأول مرة.

سافرت فريدة ففرغت مطرح من ناسها، وما عاد عندي من يملأ فراغ قلبي، ما عاد هناك من يحتاجني، يسأل عني إن غبت، يحادثني وقت النوم أو يقص علي الحكايات ويقرأ لي الشعر.

صرت وحيدة، وفقدت الدنيا زهوتها في عيني.

دخلت إلى الصفة وفتحت صندوق أبي ففاحت رائحة اختمار الأقمشة، عبثت أصابعي بطيات القماش ولمست برودة الزجاج ثم أغلقته، وحاولت

مكتبة ياسمين

النوم كي أستعجل النهار، لكن النوم جافاني وأنا أفكر في تلك الورقة التي بين يدي ولا أعرف ما كتب فيها.

ربما لم يرسل ناصر أكثر من تلك الكلمة التي أوصيته بها، أن يبلغني أنهم وصلوا، لكني كنت أريد تلك الكلمة، أريدهم أن يرسلوها إليّ، أن يقولوا وصلنا، ليطمئن قلبي ولأستطيع أن ألملم ما تبعثر مني، وأعود لأصبح مريم دلشاد، التي تعلمت كيف تستنقذ نفسها في كل مرة تسلب منها الحياةُ شيئًا.

قبل أن ترتفع الشمس كنت أطرق باب بيت ماستر علي، وعندما فتح الباب، بدا من وجهه أنه يظن أن هناك مصيبة وقعت، فاستسمحته ومددت إليه يدي بالبرقية، فضها وقرأها وكان فيها ما توقعت «وصلنا». كلمة واحدة لا غير.

الحمد لله أنهم وصلوا إلى تلك البلاد من دون أن يأخذ البحر شيئًا منهم، شكرت الماستر وخطفت الورقة من بين يديه، وأسرعت إلى البيت لأبلغ فاطمة بأن فريدة وصلت بالسلامة، كعادتها صفقت فاطمة ودارت راقصة حول نفسها.

بقيت طوال اليوم أتقلب بين فرح وحزن، لماذا شعرت بجفاء في تلك الكلمة؟ ألم أطلب منه أن يرسل كلمة واحدة؟ ألم ينفذ ناصر ما طلبته منه كما يفعل دائمًا.

لكن هل كلام البرقيات بفلوس؟

نعم، كلمة واحدة قد تكفي لأطمئن، لكنها لا تشفي.

لأسابيع انتظرت رسالة منها، أعرف أنها لم تعد بشيء وربما لن تكتب إليّ، ربما فعلًا فريدة لا تعرف كتابة الرسائل، التزمت بالشرط فما تعلمت كيف تكتبها.

مكتبة ياسمين

في داخلي رجاء، يقوى ويخفت، أقول ستكتب إليّ، ستتعلم من ناصر كتابة الرسائل من أجلي، لكن مرت أسابيع طويلة وأنا أتحرى سالم نصير الذي قيل لي إنه يعمل في الكابن ويلس وأنه هو من يسلم البرقيات - أن يدق الباب، أو أن يأتي إلى الدكان، لكنه لم يأت.

قبل أن يكتمل قمر شعبان كنت وفاطمة في الحوش مشغولتين بدق الحبوب وطحن البزارات استعدادًا لرمضان، عندما فوجئنا بدخول رجل علينا، فوقفت والمدق في يميني.

- سامحيني، دقيت الباب فوق العشرين مرة.

عرفت أن صوت دق الحبوب طغى على صوت دق الباب، وأن فاطمة تركت الباب مواربًا كعادتها.

- أنت مين ومو جابك قاحم البيت علينا؟

- أنا سالم بن نصير جايب لمريم دلشاد برقية من الكابن ويلس.

مد يده بالورقة فخطفتها من يده وقلبتها، ثم وقفت والكلام في فمي، أردت أن أسأله إن كان يعرف القراءة، لكن ماذا لو كان يعرف وماذا لو كان ما في البرقية يخص الأم وابنتها؟ ألصقت البرقية بصدري، وما إن غادر حتى لبست عباءتي وهرعت إلى بيت الماستر علي.

فتحت لي بتول الباب، أردت أن أعطيها البرقية كي تقرأها لي، لكني ما أمنت أن يطّلع أحد على برقية فريدة، حتى لو كانت بتول، فما الذي يدريني أن الكلام لن يطير من أفواه البنات فيحط كبيرق على القلعة، الكل يراه ويتحدث عنه.

فقط الماستر هو من أأتمنه على كلامها، لكن الماستر لم يكن موجودًا، قالت بتول إنه ذهب إلى

مكتبة ياسمين

مزرعة موسى عبد اللطيف باقر في دارسيت ولن يعود حتى المساء.

دسست البرقية في صدري، وتوجهت إلى دكاني وأغلقته عليّ، وجلست في الظلمة بين روائح الأقمشة والخشب والرطوبة الطافحة من الجدران، أصوات السوق تصلني ولا تشغلني، أخرج البرقية من جيب ثوبي وأقلبها بين يدي، أشمها فأجد منها رائحة تشبه رائحة القماش أول وصوله وما زالت رائحة الصبغ قوية فيه، أدسها في صدري فأخشى من عرقي أن يذيب حروفها.

لا أعرف كم مضى على جلوسي هناك، أحتضن نفسي وأتأرجح في مكاني، ثم قمت ففتحت الباب، فوجدت حسن وحماره ينظران إليّ باستغراب.

حملنا طاقات من البوبلين على ظهر العاصف، وأمرته أن يأخذها إلى بدفورد حمدون، ليحملها معه إلى السيب، حيث طلبت زوجة الشيخ هلال بن ناصر أربع طاقات منه.

ذهب حسن فالتفت إلى الأقمشة، أمسح عليها وأعيد ترتيبها، أختار منها ما سيشيع بين النساء للعيد الصغير وأجعله أقرب إلى الدرب ليراه الناس، اخترت الأصفر، اللون الأصفر جيد في هذا الحر، أخبرتني فريدة بأنها قرأت في أحد الكتب أنه يهدئ الخاطر ويسكن النفس، خطر لي أن أخيط لنفسي ثوبًا منه.

أخرجت كل ما لديّ من أقمشة صفراء، إلا أني فضلت الكيمري فهو لا خفيف ولا ثقيل ولا يشف، ويناسب حركة العيد بين البيوت، قدمت الكيمري الأصفر، ووضعت إلى جانبه كل قماش يقاربه في اللون من الململ والبريسم والتيترون، وأخرجت قطعة واحدة من الحرير الهندي الأصفر والمنقوش

مكتبة ياسمين

بخيوط من الذهب، كنت أعرف من ستسعى في طلبها فقررت أن أبادر وآخذ القطعة إليها.

أثناء هذا وبين الحركة والحركة، كنت أعود وأفتح دفتر الحساب وأتحسس البرقية التي دسستها بين أوراقه، حتى أذن الظهر فأخرجت البرقية وتركت الدكان لحسن وعدت إلى البيت.

قبيل غروب الشمس عدت أدق على باب الماستر علي، فوجدته هو من يفتح لي، سألني عن أحوالي، لكني ناولته البرقية وأنا أرد عليه «بخير» على عجلة فابتسم، واتسعت ابتساماته وهو يقرأ: «فريدة حامل»، في عينيه فرح تخالطه طمأنينة حاولت أن أقبض على بعض منها فما استطعت، شكرته وتناولت الرسالة منه.

مشيت المسافة من السور إلى حارة الشمال وأنا لا أعرف إن كنت أطأ رملًا أم ماء، يتسابق دمعي على خدي وابتسامتي أوسع من كفي الذي يحاول أن يحجبها.

قبلت البرقية وهمست لنفسي «فريدة حامل»، تفتّح قلبي ثم انغلق وأنا أفكر في غربتها، من لها هناك غير ناصر؟ والرجل يعمل من الصباح حتى المساء وهي وحيدة.

من لها هناك؟ لا أم ولا خالة، ويعلم الله كيف وجدت بيت القلهاتي، هل عرفوا قدرها أم استوحدوا بها وآذوها؟ هل يغلبها الوحام أم تغلبه؟ هل تأكل اللحم أم عافت نفسها كل ما له روح كما عفته في حملي بها؟ هل عندهم في تلك البلاد قابلات شاطرات أو عندهم مستشفى مثل مستشفى السعادة؟ هل جعل لها ناصر خادمة تعينها أم هي مثقلة فوق حملها بأشغال بيتها؟

في أي شهر هي؟ وكيف عرفت أنها حامل؟ هل

مكتبة ياسمين

بدأها بالغثيان والاستفراغ مثلي أم عرفت ذلك من غياب الدم؟

إن كانت فريدة لن تكتب فلماذا لا يكتب إليّ ناصر كما كان يفعل سابقًا، يخبرني بما يحدث معهم، لكن هل كان يكاتبني أم يكاتبها هي وما أنا إلا وسيط يتعذر به؟

يا الله، هل صار كل ما بيني وبين ابنتي كلمة أو كلمتان.

انقلب فرحي عتبًا، ثم ما عادت كل الذرائع التي أتصبر بها تخمد ناري، يا ربي، هل أخطأت عندما تركتها تذهب؟

وصلت البيت متعبة، لا أعرف إن كان تعبي من ركض النهار أم مما يحمله قلبي، لكني وجدت العاصف مربوطًا عند الباب، وحسن ومعه شنون السرسري جالسين في الليوان ينتظران العشاء.

ما كان لي طاقة بهما، فدخلت الصفة وأشعلت السراج وفتحت صندوق أبي ثم وضعت برقيتي فريدة في داخله وأغلقته، وخرجت فأوكلت إلى شنون مهمة على أن يعود إليّ بخبر قبل أن يهل هلال رمضان.

مكتبة ياسمين

يخرج الرجال من السجن ويدخل آخرون، وأنا أنقل من زنزانة إلى أخرى، مرة مع الثوار ومرة مع اللصوص، لكن أغلبهم يخرجون وأبقى أنا.

مرة سألني عسكري السجن، كم سنة حكم عليك؟ لا أدري، ما تهمتك؟ لا أدري، ما اسمك؟ لا أعرف اسمي.

ضحك، ولا أدري ما أضحكه، ألم يُكتب في دفاترهم أن هذا رجل نسي اسمه؟ أم أنهم صدقوا الأسماء التي سميت بها نفسي؟

هل أنا غايب العلص أم سالم بن ناصر أم الشيخ إبراهيم، يعجبني أن أكون الشيخ لكني أخشى أن أكون العلص الذي سرق قروش رجل وجده نائمًا عند البحر.

أقول «لا أعرف»، فينصرف سجان ويأتي غيره، يدخل مساجين ويخرج آخرون، وأنا مغلغل في هذه الزنازين، حتى بليت ثيابي فوقي والتصقت بقذارتها عليّ، فصارت لي جلدًا آخر. نبت الشعر في أنفي وأذنيَ حتى قال أحدهم بأن في أذني عشًا، وربما باضت فيه حمامة وأنا نائم، وضحك فضحكت.

منذ أن وجدت نفسي عند البحر ما وجدت دهنًا تحت جلدي، لكن عندما دخلت سجن الجلالي صرت آكل كل ما يوضع أمامي. طعام لا طعم له، لكني كنت آكله وكأنه لن يكون هناك أكل بعده.

لكن منذ شهور عافت نفسي الأكل، صرت أصد عن الطعام أكثر الوقت، ذاب دهني ورجعت إهابًا من الجلد لا أكثر.

أراحني الجوع، وخلا نومي من الكلاب، ثم بعد مدة اعتاد بطني الجوع وعادت إليَ الأحلام، لكن

مكتبة ياسمين

الكلاب غادرتها، وحل محلها ناس، بشر مثلي، ربما لم أعرف أيًا منهم، لكني لم أعد أستيقظ وأنا أصرخ.

مرة حلمت بالبحر، كنت في سفينة أقود على ظهرها شيخًا أعمى، ثم جاء فتى وأخذه بعيدًا عني، كان اسم الفتى حمد، لم أسمع أحدًا يناديه باسمه في الحلم لكني عندما استيقظت عرفت أن اسمه حمد، ولا أعرف كيف عرفت.

ثم في حلم آخر رأيت امرأة نائمة وطفلًا يهزها ويبكى لكنها لا تقوم، جاء الناس فملؤوا الخيمة، ثم جاءت امرأة فحملت الطفل، ألقمته ثديها، فصار يمصه ويضحك، ثم جاء رجل أراد أن يأخذ الطفل، لكن المرأة خبأته تحت ثيابها، أدخلته في بطنها، وقالت هذا لي وأعطته اسمًا وضحكت.

استيقظت وأنا أضحك، من كان الطفل؟ هل كان الطفل طفلي، هل كانت المرأة زوجتي؟ هل لي ولد وامرأة؟ هل نسيتهما؟ هل ينسى المرء عياله؟ ما الاسم الذي نطقت به المرأة ولم أسمعه؟

في حلم آخر رأيت رجلًا يحمل آخر على ظهره، كان اسمه عيسى، أذكر أني سمعت المحمول ينادي الحامل باسمه هذا ويرجوه أن يذهب به إلى الدختر. من كان الحامل؟ من كان المحمول؟

استيقظت يومها على ألم في بطني لازمني أيامًا، قال أحدهم «هذا وجع الجوع». وضعوا الأكل أمامي لكني لم آكل إلا لقمة أو لقمتين، فزال الألم، ليلتها حلمت برجل يُزف والناس من حوله يضحكون ويصفقون ويغنون، استيقظت وأنا أغني مثلهم، فوجدت شيروك، السجين الجديد، ينظر إلي في استغراب ثم سألني: أنت بلوشي؟ فامتلأت عيناي بالدموع ولم أجد جوابًا.

مرة رأيتني أنبش قبرًا، داخل القبر نامت صبية،

مكتبة ياسمين

مغمضة العينين وتضحك، وقفت عند حافة القبر أبكي، أذكر أني سألت نفسي في الحلم، أيضحك الموتى؟ خرجت طفلة من القبر، لكنها ركضت مبتعدة ولم أستطِع اللحاق بها. استيقظت بوجع في صدري وشعرت بنار أخمص قدمي وكأني وقفت على جمر.

كرهت الأحلام التي تراودني، فقررت أن آكل كل ما يحضر للعشاء، فربما أبعدها الشبع عني، لا بد أن هذه الأحلام سببها الجوع وأدخنته.

أكلت تلك الليلة، أكلت كل ما وضع أمامي، ثم استفرغت، بقيت أستفرغ ساعات حتى خلا بطني، وحلمت بعجوز سوداء تمد يدها فتنزع قلبي، وأنا ما قاومت وما اعترضت، تركت قلبي في يد المرأة وتركت المرأة أمام الباب، ومشيت في سكة أفضت إلى سكة والسكة أفضت إلى أخرى، وعندما قررت الرجوع لأستعيد قلبي ما عرفت الدرب، ثم وجدت الباب لكني ما وجدت العجوز.

استيقظت وأنا ألهث وضربات قلبي في أذني، تحسست صدري، كان مثل الطبل أجوف، فصرت أدق عليه، فيرتد الصوت.

قلت ربما كانت هذه حكايتي، وهذه الوجوه ربما تعرفت عليها لو أني تذكرت.

من كانت المرأة الميتة؟ من كان الطفل الباكي؟ ومن تلك التي ألقمته ثديها؟

هل كنت العريس، هل كانوا يزفونني؟ أحببت أن أكون العريس، لكن من المرأة في القبر ولماذا كانت تضحك، هل هي امرأتي أم أختي أم ابنتي؟ من هم هؤلاء الذين يأتون إلى أحلامي ولا يخبروني بأسمائهم أو حتى باسمي؟

كنت أستيقظ مرتجفًا، متألمًا أكثر الوقت، وكان

مكتبة ياسمين

الرجال يسألوني عمّا بي فكنت أقص عليهم أحلامي، لكنهم كانوا مثلي لا يعرفون، بل كانوا أحيانًا يقولون إني مجنون، أو يشتمونني ثم يضحكون، وأحيانًا كنت أفعل مثلهم وأضحك، لكن الرجفة لا تغادرني.

وحده الشيخ ابراهيم فسر الحلم، عندما قصصت عليه مرة أني حلمت بأني أركب البحر، وأني سقطت من السفينة وكدت أغرق، لولا أن حملني طائر كبير رفعني عاليًا، فرأيت الجلالي ومسقط من فوق، ثم أعادني إلى السفينة، والسفينة نشرت قلاعها وأبحرت. قال ستخرج من هنا ولن تعود، ومن يومها وأنا أنتظر الخروج، لكني نقلت من زنزانة الشيوخ إلى زنزانة اللصوص.

حلمت قبل أيام بفتاة جميلة تضحك، لم أرَ الفتاة لكني سمعت الضحكة، ثم قمت فتبعت الضحكة. كنت أعرف صاحبة الضحكة، هكذا شعرت في الحلم، أنا أعرف هذه الضحكة، فصرت أمشي وأمشي علّي ألحق بها.

مشيت كثيرًا، لكني استيقظت قبل أن أصل إلى نهاية الضحكة، فبكيت.

سألني الرجال ما يبكيني، لكني ما وجدت إجابة، فسكت.

قال أحدهم «أكيد اشتاق أولاده».

لا أولاد لي، كدت أقول، لكني تراجعت، ما أدراني إن كان لي ولد أو بنت مثل التي تتراءى لي في الحلم! ما أدراني؟!

مكتبة ياسمين

شنون السرسري

سألتني مريم إن كنت أعرف مسقط، فقلت نعم، وحكيت لها عن أمي والمعلمة الزون وأيام هروبي وتشردي فيها، فابتسمت وأخبرتني بأن فريدة تعلمت القرآن عندها في حارة العور.

ناولتني خمس روبيات، وقالت لا ترجع إلا ودلشاد معك، قلت لها «هي والله»، ثم سألتها عمن يكون دلشاد هذا؟ هل هو أبوها كما فهمت من اسمها أم شخص آخر؟

فحكت لي قصتهما، ووصفته لي «رجل طويل، أطول عن حسن أو يمكن مثله، ولحمه قليل، دمته كما دمة حسن، ما أبيض لكنه ما أسود. يقولوا إني أخذت الصورة من أمي، وما خذيت منه شي...».

طلبت مني ألا أترك حارة ولا بيتًا في مسقط إلا وأطرق بابه وأسألهم عنه «قول لهم دلشاد أخو عيسى عبد الرسول من لوغان»، وأوصتني أن أسأل الناس في السوق وفي الفرضة، وأن أذهب إلى مسجد الوكيل ومسجد الزواوي ومسجد علي موسى ومسجد خان بهادر، وأن أسأل حراس البوابات والجلالي وحتى عسكر برزة السيد.

«ما تترك عجوز ولا طفل ولا حرمة ولا رجال، لا بلوش ولا عرب ولا بانيان، لا سادة ولا عبيد، اسأل كل حد عنه، لا تترك بيت ولا دكان ولا حوش ولا شرجة ولا طوي، دور عليه في كل مكان، وإن ما لقيته في مسقط، دور عليه في سداب وحرامل وقنتب والبستان، وجيبه معاك».

كان حسن لبن يجلس معنا، وتمنيت لو أنها تأمره فيصحبني «رفيق السوء ولا عدمه»، كما كانت أمي تقول، «وأنت يا حسن، لو ما محتاجتنك في

مكتبة ياسمين

الدكان كان خليتك تروح مع شنون، بس معنا شغل وبنحتاج العاصف ينقل القماش من المخزن للدكان».

قلت «هيه والله»، وذهبت إلى بيت أمي، وأخرجت زكيبة قديمة وجعلت لها حبلًا من عند فمها كي أعلقها به على كتفي ولا أحملها على ظهري، ووضعت فيها نصف ضميدة تمر، والشفرة التي كانت لأبي، وفي الصباح أخذت دربي وتوجهت إلى مسقط.

نويت أن أذهب إلى بيت المعلمة الزون، وإن رأيت منها قبولًا فربما طلبت أن أسكن معها بعض الوقت، سأخبرها بأني أبحث عن عمل في الفرضة، أو أن يستخدمني أحد الهناقرة بيدارًا في باغه، لكنها ستعرف أني أكذب، فما الذي أعرفه أنا عن شغل الأرض والبيادير؟

سأقول لها إني تعبت من مطرح وقلة الرزق فيها، وإني مذ ماتت أمي ما عدت أطيق لا سوقها ولا بحرها ولا ناسها.

لكني عندما وصلت بيت المعلمة وجدت الباب مغلقًا بسلسلة وقفل كبير، وعندما سألت عنها جارتها قالت إنها مريضة وإن ابنتها المتزوجة في روي جاءت وأخذتها لتسكن معها وترعاها.

كان أمر النوم هينًا، سأنام في مسجد أو في حوش من الحيشان، وإن لم أجد، عدت وتسورت بيت المعلمة وسكنته خفية حتى أنتهي مما جئت من أجله.

تركت بيت المعلمة ومشيت إلى مسجد الخور ومنه إلى بيت العلم ثم تجاوزته وأخذت طريقي نحو مغب، كان الوقت عصرًا وحركة الفرضة ضعيفة، فتركتها خلفي.

رأيت رجلا يمشي مسرعًا ناحية مغب فتبعته،

مكتبة ياسمين

وقطعت عليه طريقه

«السلام عليكم، أريد أسألك عن رجل يسمى دلشاد، أخوه عيسى عبد الرسول وهو من لوغان، تعرفه؟».

لكن الرجل نظر إليّ ثم أكمل سيره من دون أن يقول كلمة، قلت ربما كان أعجم لا يعرف الكلام، وأكملت المشي في اتجاه الجلالي.

مررت على القنصليات وسألت الحراس عند بواباتها عن دلشاد أخي عيسى عبد الرسول من لوغان وأبي مريم زوجة عبد اللطيف لوماه. الناس تذكروا عبد اللطيف لوماه وترحموا عليه لكنهم لم يعرفوا عيسى ولا دلشاد.

لمحت مدخل الدويرة، كأنه باب فتح بين بحرين، وتذكرت ما أخبرتنا به مريم دلشاد عن مقتل زوجها عبد اللطيف في بحر مسقط، فصرت أمشي حتى وصلت عند درج الجلالي، وجلست أعد الدرجات لكن رقبتي أوجعتني وما انتهى الدرج، عدت ومشيت في اتجاه حارات البحارنه وولجات والبانيان، لكني لم أطرق أي باب، ولم أسأل أحدًا عن دلشاد، فمذ وقعت عيناي على فتحة الدويرة وفكري مشغول بما حدث لعبد اللطيف لوماه، الرجل الذي كان واقفًا في لحظة على ظهر السفينة الغريبة، من يدري ربما كان يضحك أو يكلم أحدًا ما أو يفكر في مريم وابنتها أو يؤشر إلى عماله لينزلوا البضاعة، ثم فجأة انفجرت السفينة وراح الرجل في الهواء، وكأنه لم يكن.

سألت العابرين عن بيت لوماه، فدلني رجل هندي عليه، وعندما وقفت عنده عرفت لماذا يقول الناس في مطرح إن مريم هربت بأموال عبد اللطيف لوماه، فهذا البيت رغم أنه بدا مهجورًا، فليس في

مكتبة ياسمين

مثل بنيانه إلا ربما بيت قنصل الإنجليز.

طرقت الباب مرات ولم يجاوبني أحد، فتأكدت أنه مهجور وسولت لي نفسي أن أتسوره وأراه من الداخل، لكن سوره كان عاليًا، وبابه له قفل أكبر من قفل بيت المعلمة الزون.

مشيت حتى صرت قرب مسجد الزواوي، وكان وقت العصر قد حان، قلت فلأصلي مع الناس، ثم سأسألهم عن دلشاد، فبالتأكيد سألقى من يتذكره ويدلني عليه.

توضأت ودخلت المسجد فوجدت صفين قصيرين من المصلين، وقد وقف الرجل الأعجم أمامهم ليصلي بهم، زاحمت المصلين في الصف الأول ووقفت وراءه.

بعد الصلاة تفرق الناس وما تبقى في المسجد غير الإمام ورجل في دشداشة مزعفرة يجلس قرب المحراب، كدت أغادر لكني عدت وأقعيت أمام الإمام، وسألته مرة أخرى عن دلشاد. طال صمته، ففكرت أنه ربما كان نصف أعجم، ولا يعرف من الكلام غير الصلاة. لمت نفسي على تكرار سؤالي، ولعنت الشيطان الذي يركب رأسي، وقررت أن أقوم وأتركه. حينها سمعت صوته، جاوبني دون أن يرفع نظره عن المسباح الذي كان يقلب حباته بين أصابعه:

«سمعت عن دلشاد لكن ما أذكر أني شفته، وما أظنك تلقاه هنا، روح شوفه في حارات البلوش».

تركت المسجد والإمام الأعجم، فوالله إنه ما قال شيئًا له معنى، ثم صحيح أني لست من مسقط وثيابي تشي بحالتي، لكن ما كان يضره لو نظر إلى وجهي وكلمني كما يكلم الرجال الرجال.

ما لي أنا ودلشاد وابنته وحسن لبن الغبن وأمه

مكتبة ياسمين

المجنونة، لعنة الله عليهم جميعًا.

خرجت والشمس قد مالت، والناس أغلقت دكاكينها، فمشيت وراء رائحة شواء تأتي من طرف السوق، فوجدت تنورًا يشوي سمكًا وآخر يبيع خبزًا. أخذت نصيبي من هذا وذاك وجلست تحت غافة كبيرة عند مسجد علي موسى آكل، لكن لعن الله السنانير، تحلقت حولي فصرت أفت لها السمك وأرميه نحوها، وما تهنيت لقمتي.

لا أعرف من أين جاء الرجل صاحب الدشداشة المزعفره لكني لقيته متكئًا على جذع الغافة وكأن لا مكان في السوق إلا هناك؟ هل كان يتبعني؟

جالس أبرغل

وأزرع صيف

شوفوا غبرتي وترباني

لو خنجري مَنْ

وأسحب لاس

كل العيون بترباني

لم أفهم كلمة مما قال، لكن لا أدري لماذا شعرت بأنه كان يقصدني، فقمت واقتربت منه وحييته وسألته عن معنى الكلام الذي يقول فابتسم: «المعنى أنه ما حد بيشوفك دام هذه حالتك، غبر، كأن الماء ما مسك من خلقت، لكن لو كنت هنقري، تاجر، بتتلامع كما شمس النهار، الروبية بتسبقك وتنفتح لك وجوه الناس، يعني بو كماك ما حد ينظر في وجهه، أنت ما من هنا صح؟».

ما أعجبني كلام الرجل، لكنه والله ما كذب، أخبرته بأني من مطرح وأني جئت مسقط لأبحث عن رجل اسمه دلشاد، فسألني إن كان لي مكان يؤويني، وعندما أخبرته عن بيت المعلمة الزون الذي لم يعد

مكتبة ياسمين

فيه أحد، أمرني بأن أتبعه فتبعته.

صالح بن سيف

تضاعفت ضواحي الغليون، فما انقضت سنة حتى وردت غلة حول عن حولين لعبد اللطيف لوماه، فسقط عني شيء من الدَين، واستمر الحال هكذا مدة ثلاث سنين، وقبل أن يشارف الرهن على الانتهاء حدثتني جدتي عن حلم راودها.

رأيتها واقفة على صخرة في طرف الرابية الحجرية التي نسكن عليها، كان الوقت بعد الفجر وكنت عائدًا فورًا من سقي الماء، استغربت رؤيتها هناك، فنحن ما كنا نقف هناك إلا مستطلعين للقوافل القادمة، وما سمعت من أهل البلد أن هناك خبرًا عن قافلة تصل في تلك الأيام.

اقتربت من الصخرة لأعرف ما الذي تفعله عندها في تلك الساعة، نادت عليّ وأمرتني أن أصعد وأقف إلى جانبها ففعلت، وقفت صامتة تنظر إلى البعيد وكأنها تنتظر أحدًا، ثم صارت تقلب عينيها في البلاد وكأنها تراها لأول مرة.

ثم خرج صوتها وكأنه يطلع من حفرة تنور الشوا في طرف البلاد، وروت لي الحلم الذي ضيّق صدرها. وصفت لي الوادي الذي كسته الحصر من عند ضواحي النخيل الغربية حتى ضواحي الغليون في الشرق، وروت لي عن الرجال الضخام الذين كانوا يطبخون اللحم في المراجل ويسكبونه على صواني الرز، والناس الذين كانوا يأكلون فيتقطر الشحم ولا يشبعون، والعقاب الذي طار من قمة الجبل وفي ذيله لهب أشعل الشجر والزرع.

كان سكوت جدتي دومًا أكثر من كلامها وإن أرادت الإخبار بشيء اختصرت، لكنها أسهبت في وصف حلمها وكأنها في تلك اللحظة يحدث أمام عينيها، وصفت أهل البلد وسمتهم واحدًا واحدًا، وصفت

مكتبة ياسمين

حركة أفواههم وهم يأكلون اللحم، الدهن المعتصر من بين أصابعهم، الأطفال الذين كانوا يزاحمون الكبار ويغرفون بأيديهم الصغيرة اللحم والرز، حتى إنها وصفت حركة سعف النخيل ولون الطائر الهابط بالنار، وحتى لون النار المتبدلة بين السماوي والأحمر.

عندما سكتت جدتي، قلت لها «هذه وسوسة إبليس الله يلعنه، بصقي على يسارش ثلاث مرات ولا تفسري».

رفعت جدتي عينيها إليّ في وهن ما رأيته في عينيها من قبل، تواطأنا على السكوت، ولم نعد إلى الحديث عن الحلم، لكني عرفت أنه ظل ينخر في قلبها كما ظل يفعل في قلبي.

مر شهران أو ثلاثة وأنا مشغول بمراقبة أعواد الغليون تنمو وتغلظ، ثم بأوراقه تكبر وتخضر، ثم وقبل أن نبدأ القطف تفسّر الحلم، وحدث ما لم نكن نتوقعه.

كنت أحدر النخل في الضاحية الشرقية عندما سمعت هديرًا يتعالى ورأيت سحابة سوداء تقترب من جهة الغرب، هبطت عن النخلة مسرعًا وركضت إلى البيت، فوجدت جدتي وزوجتي والصغار واقفين على طرف الرابية يراقبون السحابة تهبط وتكسو البلاد ببيوتها ونخلها وزرعها.

أمرت الجميع أن يأخذوا أي شيء تصل إليه أيديهم، خرقًا، فرشًا قديمًا، حتى إني أخرجت الأشولة الفارغة التي كنا سنجمع فيها الغليون، وصرت أوزعها عليهم، كي يبعدوا بها الجراد.

خرج الكبار والصغار من بيوتهم وتفرقوا في الضواحي، يلوحون بالخرق، وينفضون الزرع محاولين تفريق الجراد وحمله على الطيران وترك

مكتبة ياسمين

أشجارهم ونخيلهم، وخرجت النساء تطرق على قدورها كي تخيفه، لكنه تشبث بالأغصان بسيقانه التي كالمناشير، وأتى عليها بذلك الفم الذي لا يشبع.

تعبنا وما تفرق الجراد، وعندما أوينا إلى البيت، عصبت جدتي رأسها وجلست في ركن بعيد، ولأول مرة أرى جدتي تبكي، فبكيت معها أنا والصغار وزوجتي، لكنها ما لبثت أن مسحت دموعها بظاهر كفها وتمخطت في طرف وقايتها، ثم أمرتنا بأن نخرج بعد أن يحل الظلام ونذهب إلى السيح، ونجمع الجراد الذي ينام على أشجار السمر، فقمنا وجمعناه في قفران، وعدنا به فغليناه وقليناه في السمن، أكلنا بعضه وادخرنا بعضه الآخر، وهكذا بقينا أيامًا، يأكلنا الجراد في النهار ونأكله في الليل.

تعجبت من شراهة الجراد وسألت جدتي، ماذا يأكل الجراد بعد أن ينتهي كل هذا، فقالت الجراد لا يتوقف، وإن لم يجد خضرة في طريقه أكل حيّه ميّتَه.

بعد أن رحل الجراد، هرعت إلى ضواحي الغليون، فوجدتها أرضًا قفرًا كأنها ما زُرِعَت يومًا وما سُقِيت وما اخضرّت، وعندما عدت إلى النخل وجدتها قائمة وما بقي في قمتها خوصة خضراء، أما السمر في السيح فكان مسودًا ويابسًا وكأن نارًا قد اشتعلت فيه.

أكل الجراد كل عود أخضر وترك البلاد، جبالها وسيحها، غبراء ميتة وكأن رمادًا نثر فوقها.

عدت إلى البيت فوجدت أولادي يقضمون الجراد اليابس الذي قلته أمهم بالسمن، سألت عن جدتي فأشارت إلى الحجرة.

سألت جدتي ما العمل في هذه المصيبة، فأخبرتني بأن هذه ليست المرة الأولى التي يهجم فيها الجراد

مكتبة ياسمين

على الغبة، وأنها شهدت هذا الأمر مرتين في حياتها من قبل، قلت لها ما بقي زرع ولا حرث ولا حتى بذور لنعيد زراعة الضواحي، وأننا سنموت من الجوع.

التفتت جدتي وحكت الجدار الذي كانت تستند إليه بمجز في يدها، ثم أزاحت حصاة عن موضعها وأخرجت خابية ملئت بضرر، في كل صرة نوع من البذور.

بعد شهور طويلة عادت بعض الخضرة إلى البلاد، لكن موسم الغليون كان قد فات، وكان عليّ أن أنتظر حولًا كاملًا حتى أستطيع أن أبذر وأحصد، أما النخل فاحتاج إلى وقت أطول، فحمدت ربي على بذر البرسيم الذي ما كان يحتاج إلا للماء ليشتد فلا تجوع الشياه التي تقاسمت معنا الجراد وما احتفظنا به من التمر.

عشنا تلك السنة على ما ادخرناه وخبأناه في الخوابي من تمر ودبس، ثم ما إن أقبل البرد حتى نثرنا بذورنا من جديد، وعادت قمم النخيل فاخضرت، ببطء أول الأمر، ثم ما لبثت حتى قويت فروعها وزها سعفها، لكن الأمر تطلّب أكثر من حولين حتى عادت فحملت عذوقها وأثمرت.

مكتبة ياسمين

فريدة

قمت للاغتسال فجر يوم الجمعة فغرفت الماء من الدلو وصببته على رأسي وأنا أقرأ نية الطهارة كما علمتني أمي قبل أن أزف. غرفة وراء غرفة كنت أصب الماء على رأسي وبأصابعي أخلله في خصلات شعري، الذي بدا لي أنه طال أكثر مذ عرفت أني حامل.

انسكب الماء من رأسي على وجهي فصارت على عيني غشاوة رقيقة، لاح من ورائها خيال أمي وهي تصب الماء على رأسي وتفركه بالسدر الذي ذوبته في طاسة من الفضة، نقش في داخلها حروف وأغصان شجر وحمامات مثل تلك التي تهبط على سطح بيتنا، أسألها عن المكتوب في بطن الطاسة فترد بأنها لا تعرف، وتغرف بالطاسة حفنات من الماء وتصبه على رأسي لتغسله، ثم تنشفني بقماشة من القطن وتلمني فيها، فأصير كلي في حضنها، ثم تمشي بأصابعها على بطني فأكركر.

عندما كبرت وعرفت كيف أقرأ الحروف، وجدت المعوذتين وآية الكرسي محفورة بخط دقيق داخل الطاسة. لا أعرف أين صارت الطاسة الآن؟ هل أخذتها عمتي فردوس مع ما أخذته من بيتنا أم أنها فُقدت فيما فُقد إلى الأبد؟

فجأة شعرت بألم حاد يشق أحشائي ويعتصرني، حتى كدت أصرخ، فأسندت نفسي إلى الجدار حتى يمضي، خف قليلًا ثم عاد أكثر حدة، فانثنيت من شدته.

شعرت بشيء يتمدد في حوضي ويكسر عظامي، هل سيخرج الطفل، لكنه ليس موعده، الداية قالت إني ما زلت في أول شهري الثالث.

مكتبة ياسمين

ضممت ساقيّ أكثر، ضغطتهما بقوة، أردت أن أصرخ بناصر لكن صوتي لم يخرج مني إلا آهات تتبعها آهات، كنت أريد أن ينتهي هذا الألم، أن يكون عارضًا ليس أكثر.

أحسست بخروج قطع من الدم ورأيتها تنزلق على أرضية الحمام، مددت يدي وأمسكت بقطعة القماش التي أتنشف بها، لففت نفسي بها، ثم صرخت بناصر، لا أعرف إن كان سيسمعني وغرفة الحمام في طرف الحوش، لكني صرخت وصرخت، حتى سمعت خطواته تقترب، أقعيت على الأرض، لكني لم أستطِع ضم ساقيّ، فكنت أرى قطع الدم المندفعة تذوب وتصير دمًا سائلًا يغطي الأرضية، عندها أظلمت الدنيا.

حاول ناصر أن يوقظني، كنت أسمعه ولا أقدر أن أجيبه، لكني أعرف أني كنت خائفة من الدم وخائفة من السؤال.

سمعت صوتيَ خالتي أم سالم وخادمتها عنبور يختلطان بصوت ناصر، ثم سمعتها تأمره بأن يخرج، وأمرت عنبور بأن تذهب راكضة إلى بيت الداية أم خلف، وصارت تغسلني من الدم، وتنضح عليّ الماء مرارًا.

شعرت بقلة حيلتي وأنا بين تلك اليدين الغريبتين وهما تحاولان لملمتي: «ماه.. أوماه... تعالي لي».

دخل ناصر وحملني بين يديه إلى فراشي، لكني لا أتذكر شيئًا بعد ذلك، كيف نمت؟ كم نمت؟ عندما فتحت عيني كانت ملابسي عليّ وقد حشي سروالي بالخرق.

وقفت أم سالم على رأسي وعلى الجانب الاخر امرأة أراها لأول مرة، تذكرت أني رأيتها في حلمي تمد يدها إلى باطن رحمي «الله يعوضك الخير»،

مكتبة ياسمين

هذا ما سمعت المرأة الغريبة تقوله وخالتي أم سالم تردد وراءها: آمين، ففهمت أني سقطت حملي.

لم تقصر أم سالم وخادمتها عنبور في العناية بي، فسقتاني حسو الدجاج، وأطعمتاني قروص الثوم بالعسل. غسلتاني وألبستاني ثيابي، ولم تسمحا لي بأن أضع إصبعًا في شؤون داري حتى أكملت الأربعين.

لكني كنت لا أطيق حضورهما، وأدعي طوال الوقت أني نائمة، وبعد مدة صارتا تتركان لي الطعام كي آكله عندما أستيقظ، أو يتكفل ناصر بمهمة إطعامي.

نفرت منهما وكرهت قربهما مني ورعايتهما. شعرت بأنهما أخذتا مكان أمي، هذا مكان أمي كدت أصيح عليهما، أمي وحدها من يعتني بي، فقط أمي.

ثم شعرت بالغضب من أمي، لماذا تركتني لتتطلع عيون غير عينيها على جسدي ومرضه؟ كيف تركتني لأتزوج وأرحل بعيدًا عنها، ولماذا قالت إن عليّ أن يكون لي أولاد؟ لماذا يجب أن يكون لي أولاد؟ ولماذا بذر ناصر بذرته في رحمي إن كانت ككل ما عرفت مصيره إلى زوال.

نفرت من ناصر ومن نفسي وانطويت عليها غاضبة، أضغط القماش بين فخذيّ، حتى لا ينفتح جرحي، أمسح بكفي على رحمي، وأبكي، كنت أبكي ليل نهار، ولا أعرف من أي بئر كان يخرج كل ذاك الماء.

عندما أخبرني ناصر بأنه سيرسل برقية إلى أمي ليبلغها، تحول نفوري منه إلى كراهية، يا الله كم كرهت ناصر في تلك اللحظة، وكم شعرت بأنه غريب، من أنت؟ ما دخلك بالذي بيني وبين أمي؟ كدت أقول له، لكن ما خرج من فمي كان صرخة:

مكتبة ياسمين

«إياك وتخبر أمي».

أقلقتني النظرة التي كانت في عينيه عندما سمع صرختي وغادر من بعدها الصفة على عجل، أين ذهب؟ كرهت غيابه كما كرهت حضوره، لكن النظرة في عينيه أقلقتني فقمت إلى المرآة ونظرت إلى وجهي، والحمد لله لم أجد عيني فاطمة في وجهي، لكني شعرت بأن روحي كانت فارغة، رأيت ذلك في عيني وأوجعني ما رأيت، فما شعرت إلا وأنا أبرك على الأرض أبكي وأنادي أمي، سمعني ناصر فعاد ورفعني من الأرض وأعادني إلى فراشي.

عندما عجزت قروص خالتي أم سالم وحسوها عن إعادتي إلى نفسي، وشعر ناصر بقلة الحيلة، انقدحت فكرة في رأسه، فصار يقرأ لي، يسليني بحكايات الجاحظ وابن عبد ربه والمازني. أغمض عيني وأدعي أني نائمة ولا أسمعه، لكني كنت أسمعه وكانت الحكايات تهدئني، ثم بدأ بقراءة الشعر.

لم يقرأ لي شعر المجانين الذي يعجبني، بل قرأ شعر الحماسة الذي يعجبه وكأنه قصد أن يستنهضني، فقرأ من أشعار أبي تمام والنابغة وعنترة، لكني ما كنت أصدقه حتى يقرأ لي المتنبي.

كان هو يصدقه وكنت أنا أصدقه لأنه يصدقه.

شُفيت، أو ربما ظننت أني شُفيت، فقد عدت أعتني بداري وبناصر فأجالسه، أكلمه وأسمع منه، لكني بقيت خائفة أن يقربني فأحمل فيتكرر ذلك الدم وذلك الوجع، وناصر كعادته صبور فلم يستعجلني، بل تركني أنام في فراشي وحدي بينما نام هو على الأرض في الحوش، حتى ظننت أنه ما عاد راغبًا فيّ فأعدته إلى الفراش وعدت إليه.

أخبرني ناصر بأني أنادي أمي في نومي، ورأى أن

مكتبة ياسمين

أكتب إليها رسالة، فلعل ذلك يريحني ويطمئنها، لكني رفضت؛ أعرف أمي، ستجن إن عرفت، ولا وسيلة عندها لتسافر إليّ وهي بلا محرم، ثم ماذا سأكتب لها إن كانت هناك عين أخرى تقرأ، هل سأقول لها كل ما كان في خاطري كما كنت أفعل قبل أن نطفئ سراجنا لننام، لا يمكن، هناك كلام لا تحمله الرسائل، والإخبار به سيؤذيها.

مكتبة ياسمين

شنون السرسري

دلني الرجل على حوش مهجور تحت الجبل، بين حارتي الصبارة والدلاليل، وطلب مني أن أنتظره هناك. غاب مدة ثم عاد وقد أحضر معه زكيبة فيها حاجيات قال إنها ستنفعني.

ركز ثلاثة أحجار كبيرة في الأرض وأشعل فيما جمعه من أوراق الشجر وبعض الأغصان نارا، ثم أخرج من الزكيبة إناء معدنيًا وغلى لنا قهوة.

طلب مني أن أخبره بقصتي كاملة وألا أكذب، أخبرت الرجل بما أعرفه، لا زدت فيه ولا أنقصت، فأطرق طويلًا، ثم أخبرني بأمر احترت في تصديقه.

«اسمي صالح بن سيف، في يوم وأنا أمشي في الوادي لاقاني رجل من لوغان وطلب مني أشهد على زواج عبد اللطيف لوماه من مريم بنت دلشاد. أنا ما أعرف عبد اللطيف لوماه وما أعرف دلشاد ولا أعرف بنته، لكني شفتهم رجال زينين، وولي البنت؟ قالوا عمها عيسى وحاضر، فشهدت ورجعت بيتي. مرت سنين بعد ذلك وسمعت عن موت عبد اللطيف وأن بيت لوماه شلوه الديّانة وأن مريم طارت مع بنتها، هين طارت؟ هين سارت؟ الله العالم».

«وقبل كم سنة، طلع علينا رجال من لوغان، يمشي في هذه الدروب بنص عقل، وكل ما لقى حد سأله عن مريم وبنتها. بعض الناس عرفوه، قالوا هذا دلشاد أبو مريم.

لكن من كم سنة غاب الرجل، ما حد شافه ولا حد سمع عنه. ناس قالوا يمكن طاح من فوق شي من الجبال، ومات وما حد علم عنه، تباعدت المدة والناس نسيوه. والتو أنت تقول إن مريم في مطرح وراسلتنك تدور أبوها!».

مكتبة ياسمين

«سبحان الله هي وأبوها كل واحد يدور على الثاني، والله العالم كان هيتلاقيوا».

«لكن أنا ما شفت ولا سمعت عن دلشاد من سنين، تقدر ترجع حال مريم وتخبرها وتقدر تجلس تدور عليه في مسقط لين تتقطع رجولك، وما أظنك بتلقاه».

تركني الرجل أقلب حكايته، لكنه ما زاد على ما أعرفه كثيرًا، فنويت أن أفعل ما أمرتني به مريم، وألا أعود إليها إلا بدلشاد أو بخبر عنه، فهذا الرجل إما أنه مات وإما أني سأجده ولو وصلت إلى آخر الدنيا.

بدأت من أول الوادي الكبير، من حارة البلوش حتى حارة الشيخ ولوغان، هناك التقيت ابن سنجور جمعة الذي أخبرني بما أخبر به مريم من قبل، فخرجت أفتش في كل حارات الوادي، وما تركت بيتًا ولا عشة ولا حوشا. أسأل الناس وأصفه كما وصفته ابنته، فكان بعضهم يتذكره وبعضهم لا، وبعضهم يغلق بابه في وجهي حتى قبل أن أسأله.

في اليوم الذي يليه مشيت حتى وصلت عند معبد البانيان، مررت على الزبادية وحارة الحوش ثم نزلت إلى حارة الراوية ومشيت فيها حتى وصلت حارة الزدجال، وكما كان في اليوم الثاني لم يدلني أحد على دلشاد.

في اليوم الثالث طرقت أبواب خلالوه والصبارة والدلاليل وسألت في مستشفى المشن وبيت الإرسالية، ومشيت نحو الجفينة ثم المدبغة ووصلت حتى إلى البحر في كلبوه، لكن بلا فائدة.

تقرحت قدماي من كثرة المشي، فعدت إلى الحوش ونمت حتى المساء، وما استيقظت إلا على حركة صالح بن سيف، وقد أحضر معه خبزًا ساخنًا

مكتبة ياسمين

من السوق وحلوى، لا أتذكر متى أكلت الحلوى آخر مرة، ربما كان في عرس فريدة، لكني انتظرت حتى جهزت القهوة.

«أولًا جزاك الله ألف خير، وأنت والنعم، لقيت لي المكان وجبت لي فراش وجبت لي ماء وقهوة وأكل والتو جبت لي حلوى، وأنا عابر سبيل، رجال جاي من طرف الدنيا، لا تعرفني ولا أعرفك. عن تكون كما يقولوا، الشيفة شيفة والمعاني ضعيفة، قول كان باغي مني شي، وقصر علينا الدرب».

ضحك الرجل فلم أضحك معه، فما الذي يضحكني أو يضحكه، وما الذي يريده مني هذا الرجل؟ أنا لست ناكرًا للمعروف، لكن هذا كثير على سرسري مثلي، ما أعطته الدنيا شيئًا من دون ثمن.

«لا تستعجل.. لا تستعجل».

وذهب، فقمت ومسحت قدمي بما تبقى في يدي من دهن الحلوى ونمت.

لم أعرف ما أراده مني لكني عدت في الصباح التالي وأكملت بحثي في حارات مسقط، لم أدع بابًا إلا طرقته ولا رجلًا أو امرأة أو صبيًا أو طفلة إلا وسألتهم عن دلشاد، لكن أحدًا لم يزد على ما أعرفه شيئًا.

ثم عدت فمضيت في الحارات وراء السور، بدأت من حارة العور عند بيت المعلمة الزون ثم حارة البوسعيد عند بيت العلم، والبانيان ومغب وولجات، ثم عدت وخرجت من الباب الكبير لتتلقاني حارة الخطمة والسناسيل والبحارنة وميابين وحارة الحنة والعجم والصفافير حتى وصلت إلى التكية.

سألت الناس في المساجد والأسواق والدروب، لكن الجميع إما لا يعرفون شيئًا عن دلشاد وإما يعرفون القليل عن مريم، وإما يتذكرون الرجل

مكتبة ياسمين

المجنون الذي كان يبحث عن ابنته.

في اليوم السابع عاد صالح بن سيف لزيارتي ثانية، وقد أحضر معه هذه المرة لحمًا مشويًا وخبزًا، وحقًا فيه دهن لقدمي التي ما عدت قادرًا على الوطء بها.

«لو أنا مريم أترك هذا الأمر لله، وكان كاتب لهم يتلاقوا في الدنيا بيتلاقوا، وكان كاتب عليهم اللقيا في الآخرة بتلاقيوا.

لكن التو أنا باغي منك شيء، كما قلت ذاك اليوم، هذه الدنيا كل شيء فيها له ثمن، لكن ما التو، من تخلص دوارتك لدلشاد لا تروح مطرح قبل ما ألقاك».

كنت أعرف أنه يريد مني شيئًا، الله العالم بما في نيته، لكني أجلت التفكير في أمره حتى أنتهي من مهمتي.

استرحت حتى برئت قدمي، ثم عدت فركبت عقبة جبل السعالي، وهبطت على سداب سألت عن دلشاد عند عتبات البيوت وفي الدروب، ثم ركبت مركبًا إلى حرامل، فسألت الصيادين والنساجين والرجال والنساء والصبية الذين يلعبون على الرمل، لكنهم لم يسمعوا بالرجل.

انتهيت في حارة البستان، مشيت بين نخلها وشجر الياسمين وسألت بياديرها، ثم ذهبت إلى البحر فكلمت الصيادين، وأذن بالمغرب قبل أن أخرج منها فنمت في واحدة من ضواحي النخيل، وفي الصباح عدت إلى مسقط.

عدت كما ذهبت، واسم دلشاد يرن في أذني حتى كرهته.

تورمت قدماي وتقرحتا من المشي، وصار وجهي في سواد وجه زوج أمي الثالث، ما بها السرقة؟ سهلة، أمشي في السوق فأختلس رزقي، ورزقي

مكتبة ياسمين

يكفيني، بطني شبعان أكثر الوقت، والعسكر تعودوا عليّ، أدخل وأخرج من قلعة مطرح وكأنها بيت أمي، فلماذا هذه الشقوة؟

أتوب؟ أتوب عن ماذا؟ عن حياتي السهلة لألقي بنفسي في الكد من أجل روبيات مريم دلشاد؟

يقولون إن في التعب شرفًا، لكن نحن مثلهم نجتهد في تعلم خفة اليد، فكيف يكونون شرفاء ونكون أنجاسًا؟

أدهن قدمي بالدهن الذي أحضره الشهم لكنها لا تطيب ولا ترتاح، كيف ترتاح وأنا كل يوم في هذه الدروب والحواري، أبحث عن رجل مجنون لا يعرف أحد إلى أين انتهى.

دخلت الحوش وأنا ألعن، لعنت دلشاد الذي عذبني وحسن لبن الذي دلني على مريم، وأمه المجنونة معه. وهناك وجدت صالح بن سيف جالسًا ينتظرني وقد أحضر معه ثريدًا، فجلست آكل وكأني ما أكلت دهرًا، وهو ينظر إليّ ويبتسم، ثم ناولني الجحلة فشربت حتى ارتويت.

- البارحة ما أويت إلى الحوش، حسبتك رجعت مطرح.

- باكر بروح مطرح، وبخبر مريم أني ما لقيت أبوها، بقول لها دلشاد حتى الجن ما يعرفوا مكانه.

- زين، بسير معاك وبتوصلني لمريم دلشاد.

- كان ممكن تهبط مطرح وحدك وتسأل عنها في السوق، وألف واحد يدلك.

- لكن يوم أوصل لها معك غير.

- مو حاجتك من مريم دلشاد؟

لم يجاوبني، وقف ونفض ثوبه، وغادر.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

خجلت أن أعود إلى عبد اللطيف لوماه فأخبره عن حالنا، وخفت أن أنقطع عنه فيظن بذمتي الظنون، لكن ما كان لي بد من ذلك، فبأي وجه ألقى الرجل وأنا لا أملك ما أعطيه إياه من غلة، قلت لا بد أنه سمع بالجراد، وعرف أن الزرع قد هلك، لكن ما ذنب الرجل في ذلك.

ثم سمعت أن الحرب في بلاد الكفار اشتدت ووصل منها ما وصل إلى بر عمان، فوجدتها عذرًا أتحجج به، وبعد أن سمعت بأن الحرب انتهت، هبطت إلى مسقط، محمّلًا عشرين حمارًا بورق الغليون الجاف، وفي نيتي أن أخبر عبد اللطيف بما حدث معنا وأستسمح منه، لكني وجدت الرجل قد قتل في الحرب، وبيته أُغلِق وزوجته بنت دلشاد هربت، وما عاد أحد يعرف أين صارت.

بعت ما حملت من الغليون على تاجر في مطرح وعدت إلى الغبة، وأخبرت جدتي بما حدث لعبد اللطيف، وسلمتها المال، لكنها ردّته إليّ، وحذرتني أنه لا تنوي أن تموت قبل أن تستعيد الصك ولو بلغت المئة عام.

عدت إلى مسقط أتسقط الأخبار عن مريم أو لعلي أجد طرفًا يدلني عليها، فلربما أخبرها عبد اللطيف عن الصك، أو ربما آل الحرز إليها أو تعرف شيئًا عنه. كدت أيأس لولا أني صادفت دلشاد وهو يصيح في حارات مسقط بأعلى صوته، مناديًا ابنته، فصرت أتبعه، لكن دلشاد اختفى مرة أخرى ولم يستدل أحد عليه.

عدت إلى الغبه، وذعت جدتي وزرعي ونخلي وجلب الغليون، وأردفت زوجتي وأولادي خلفي، وهبطت إلى مسقط، فأقمت بين أهلي، لكني رفضت

مكتبة ياسمين

أن أعمل أجيرًا في نخل الآخرين، فجعلت كل ما أملك في تجارة الحبوب.

هكذا كان حالي طوال سنين، من بيتي إلى دكاني، لا يقر لي قرار ولا يستريح قلبي وأنا أفكر في الصك، خائفًا أن يطمع فيه ورثة عبد اللطيف فيستحوذون على الغبة.

كنت عائدًا من دكاني فوقفت أصلي في مسجد علي موسى، وبعد أن انتهت الصلاة سمعت رجلًا يسأل الإمام عن دلشاد، فتبعته وجلست إليه وسألته وعرفت أن مريم أرسلته للبحث عن أبيها، فجاريته علّي أصل إلى ما أريد.

لم ألح على الرجل بسؤالي، وتركته حتى يفرغ من مهمته وييأس من العثور على دلشاد كما يئست من قبل، ثم يأخذني إلى مريم طوعًا، فأشهد على جهده وأؤكد لمريم موت دلشاد، علّها تعفو عن شنون الذي صار من كثرة المشي أشبه بحطبة عليها دشداشة، ويكون هو وسيطًا بيننا فتعيد إليّ الصك مقابل قيمة الرهن، الذي جمعته روبية فوق روبية، فأعود به إلى جدتي، وأعود أنا وأولادي إلى بلادي.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

منذ أن أرسلت شنون ليبحث عن دلشاد وأنا لا أعرف النوم.

أشغل نفسي في الصباح بذرع القماش واختيار ما يلبس وما يترك للعيد، أو بحسن وحكايات حماره التي صارت كل ما يشغل باله، حتى داخلني الندم، إذ شعرت بأني شغلته أكثر مما يجب بهذا الحمار، فألهاه حتى عن أمه. كنت أترك دكاني قبل الغداء ولا أعود لأفتحه، فما بقي بيننا وبين رمضان إلا أيام، فانشغلت وقت العصر بتنقية الحبوب وتنظيفها مع فاطمة التي صارت في المدة الأخيرة مثلي؛ لا تستريح ولا يغمض لها جفن، وصار مراد داهوك لا يأتيها في الليل فقط بل يزورها حتى في النهار.

أسمعها تكلمه وكأنه أمامها، تقول له كلامًا جميلًا ما سمعتها تنطق به من قبل، ثم فجأة يتعالى صوت سبابها، وعندما أسألها ما بها، تقول إن مراد لا يأكل من الطعام الذي تضعه له، وتسألني إن كان أكلها مالحا أو ماسخًا أو تنقصه البهارات.

أقول لها إن أكلها أحسن أكل في مطرح، وإني لم أذق قط ألذ من الناروشت الذي تطبخه، وإن الستبوري التي تقليها بالسمن الهولندي أحسن من تلك التي تصنع على مواقد مطبخ الحيدرأبادي، لكنها تعود فتسألني لماذا لا يحب مراد طعامها؟ أحاول أن أخبرها بأن مراد مات، بأنه ما عاد هنا، لكنها لا تصغي.

أحيانًا تبدو وكأنها تستمع إليّ وأغلب الأحيان تقوم من جلستها وتغادرني قبل أن أتم كلامي، فتصعد إلى السطح كأنها تبحث عنه، أو تدخل الصفة تفتح النوافذ وتبدأ بمناداته.

مكتبة ياسمين

تلومني النساء أحيانًا على إيوائي لفاطمة في بيتي، يقلن إنها تتعدى على الناس عندما يمرون بجانب البيت، وتضرب الأطفال الذين يتبولون عند جدار البيت من الخلف، ولا تكف عن سب أمهاتهم.

يذكرنني بما حدث بينها وبين ذلك العسكري، ترى ما الذي كان يريده العسكري ذلك اليوم؟ وأين اختفى فما لقيته منذ ذلك الحين حتى صدفة في السوق!؟

أحيانًا يعود إليها عقلها، تقول إنها تعرف أن مراد مات، أخذه البحر ولن يعيده، ثم تجلس فتحكي لي حكايتهما من أول ما لمحته عند البحر يلاعب الأطفال، حتى هجره إياها بعد أن أصرت على تربية حسن الذي وجده وراء خيمتهما رضيعًا يبكي من شدة الجوع.

تحكي فاطمة حكايتها كل مرة وكأنها تحكيها أول مرة، وأنا أستمع إليها وكأنها مرتي الأولى، وأسأل نفسي كيف لامرأة أن تبقى على حب رجل أهملها كما أهمل مراد فاطمة؟ أم أن هذا شيء غير الحب كما عرفته من عبد اللطيف!

مرة سألتني عن عبد اللطيف، قالت لي: صِفيه، فوصفته، وما إن انتهيت حتى شوحت بيدها وقالت «ولا فيه شوية من مراد داهوك»، فضحكت، ما أعجبها ضحكي؛ شتمتني، اقتربت منها ووضعت يدي على يدها كي أخفف من غضبها، لكن عينيها احمرتا، حتى خفت أنها ستضربني، ثم عادت وسألتني: «عشقتيه؟».

قبل المغرب بقليل طرق الباب، فتركت ما في يديها وركضت نحوه وهي تقول إن مراد وصل، لكنها ما إن فتحت الباب ورأت من في الخارج حتى أغلقته ثانية، وعادت تخبرني بأنه ليس مراد ثم

مكتبة ياسمين

اختفت داخل الصفة.

عاد الطرق فوضعت وقايتي على رأسي وقمت ففتحت الباب فوجدت شنون أمام الباب، كدت لا أتبينه من تغير لونه الذي صار أدكن.

قال في تردد «عمتي معي حد»، ظننته يقصد أبي فطار قلبي من الفرح، أزحته عن الباب، ونظرت وراءه في لهفة، كان هناك رجل معه، لكنه ما كان أبي.

همست لشنون «من يكون الرجل؟»، ثم قبل أن يجيب خطر لي أن الرجل لا بد يعرف شيئًا عن أبي، فطلبت منهما الدخول، وناديت فاطمة وطلبت منها وضع القهوة والتمر للضيوف.

جلس الرجلان أمامي، وبدأ شنون يحكي لي كل ما جرى له في مسقط، والرجل الذي اسمه صالح بن سيف يؤكد على كلامه بهز رأسه، فعرفت أنه ما رافقه إلا كشاهد على خيبته.

صبّ شنون القهوة للضيف ولي، متجنبًا أن تلتقي عيناه بعيني، وأنا ما كنت أعرف ما الذي كان عليّ أن أقوله أو أفعله، فلأيامٍ تخيلت أنه سيجد أبي ويحضره معه، أو على الأقل سيخبرني أين أجده فأذهب إليه بنفسي. رأيت فرحته ورأيت فرحتي، حتى إني سمعت صوته يتهدج وهو يخبرني عن تعبه في البحث عني، لكن ما خطر في بالي أن شنون سيعود كما ذهب، ليخبرني ما أخبرني به نوح بن با سنجور من قبل.

ملأتني الخيبة وضاق صدري، لكن خيبتي صارت إلى عجب، عندما بدأ صالح بن سيف يحكي حكايته مع عبد اللطيف. أيعقل أن تكون الدنيا صغيرة هكذا؟ وأن يكون للحكاية التي أعرفها عن زواجي بعبد اللطيف شاهد يتمم لي ما لم أعرفه.

مكتبة ياسمين

كان الرجل يقص علينا حكايته وأنا أتخيل عبد اللطيف وهو يضع يده في يد عمي عيسى وبا سنجور، هل كان عمي مطمئنًا وهو يحل محل أبي؟ هل كان با سنجور راضيًا وهو يعقد النكاح من دون حتى أن يأتي إلى بيت لوماه ويسألني؟

ربما رأيا أن في ذلك خيرًا لي، لكن كيف كان لهما أن يعرفا ذلك؟ أكفتهما سمعة عبد اللطيف عن سؤالي؟ أو ربما ظنًا أن عبد اللطيف أخبرني واستأذنني قبل أن يذهب إليهما.

أتذكر استنكار مَا مويزي وهي تحنّي قدمي ليلة زفافي، وتخبرني عن غضب فردوس من أن عبد اللطيف ما أخبرها: «من متى يستأذن الرجال الحريم؟»، ولو كان عبد اللطيف خطبني إلى أبي، هل كان سيأخذ رأيي؟ أم أنه سيفعل مثلما فعل عمي وبا سنجور؟ ثم هل سألني أبي قبل أن يتركني لبيت لوماه؟

بدأت فاطمة بإشعال السرجان وصعود الدرج إلى السطح والهبوط منه وهي تنادي مراد، فخشيت أن ينكشف جنونها على الرجل الغريب.

ذهبت الشمس وأذن بالمغرب من مسجد المنذري والرجل يحكي لي بالتفصيل عمّا كان بينه وبين عبد اللطيف من اتفاق، عن رهن الغلة وعن الجراد، ثم ذكر الصك والحرز، فارتدت يدي إلى صدري حيث كنت أعلقه.

ما الذي يريده؟ سألته وأنا أدس الحرز داخل جيب دشداشتي، فقال إنه لا يريد الحرز، بل الصك الذي داخل بيت الحرز وإنه يملك من المال ما يدفع به الرهن الذي عليه إلى عبد اللطيف وزيادة. أخبرته بأن الحرز خالٍ لا شيء فيه، فطلب أن نأخذه للصايغ فنفتحه حتى نتأكد.

مكتبة ياسمين

غلب علي الشك فرفضت طلب الرجل، وعندما ضقت بإلحاحه قلت لشنون أن يرافق الضيف إلى المسجد قبل أن تفوتهما المغرب. وقف شنون والرجل الذي معه ليغادرا، لكنه قبل أن يغادر، التفت وقال لي:

- بعدني برجع وأريد منش جواب.

- ما شي عندي جواب غيره.

غادر الرجلان فشغلتني الأسئلة، هل حقًا دس عبد اللطيف الصك الذي يتكلم عنه الرجل في بيت الحرز؟ لماذا لم يخبرني إذًا؟ هل هذا الذي كان يقصده عندما قال: «صيغتك خزينة ما زينة يا مريم»، لكن ذلك حدث قبل أن تتزوج فردوس، أما هذا الحرز فأذكر أنه أعطاني إياه ما إن خرجت زفة فردوس إلى صحم، وأذكر، نعم أذكر، أنه قال إنه حرز حماية، وأنه أوصى به من نزوى، أتذكر أنه قال إني لست في حاجته ما دام حيًا، وأوصاني، نعم أوصاني بأن ألبسه ولا أخلعه، قال لي إن في داخله حرزًا يحميني ويغنيني. هل قال يغنيني؟

أدنيت بيت الحرز من أذني وهززته فلم أسمع شيئًا إلا خرخشة سلاسله ورنين أجراسه، لا شيء في داخله يتحرك لا طِلّسم ولا صك.

هل يكذب الرجل؟ ولماذا يكذب الرجل؟ ماذا لو أن هناك صكًا فعلًا؟ هل استدان عبد اللطيف المال من البانيان، ومنحه للرجل مقابل تجارة الغليون، ظانًا أن في ذلك ربحًا، لولا أن جاءت الحرب وأخذت كل شيء، تجارته وماله وروحه.

يا ربي، بعثت شنون ليحضر أبي وينهي حيرتي فأحضر لي معه حيرة جديدة؟

ما هجعت ليلتي تلك ولا التي تليها، ووجه عبد اللطيف لا يفارقني، الوجه الذي عاش به معي أكثر

مكتبة ياسمين

من عشر سنين، الوجه الذي أضحكني أكثر مما أبكاني، واليد التي أعطتني أكثر مما أخذت مني، تلح خيالاته عليّ، فأضع جنبي ثم أقوم، وأجلس في الظلام. لا صوت إلا صوت البحر وشخير فاطمة وعراك القطط في السكة.

مطرح نائمة، لكن الضجيج يعلو في رأسي.

قامت فاطمة، ومن دون أن تنتبه إليّ خرجت من الصفة وكأنها مجذوبة، مضت في الظلمة من دون سراج، سمعتها تناديه: «مراد... مراد... أنت هنا؟»

بقيت أنتظر عودتها، وأنا أفكر في جنونها وفي جنون خيالاتي التي لا تفارقني، ما أشقانا نحن النساء!

ما بقي بيننا وبين هلال رمضان إلا ليلة أو ليلتان، لكني أمرت حسن في الصباح بأن يحضر لنا السمك من آخر الصيادين العائدين من البحر عند المغيب، وأن يخبر شنون فيأتي معه ليتناولا عشاء ليلة الدرنة، سواء أهلّ الهلال ليلتها أم لا.

نظفت فاطمة السمك وأنا غسلت الرز وقطعت القرع، ولأول مرة مذ سافرت فريدة أدخل المطبخ وأعد مضروبة السمك الخضراء التي تحبها.

جاء شنون بصحبة حسن، دخل وهو مطأطئ الرأس، وجلس فتعشينا من صينية واحدة. كان خجلًا، تتردد يده على غير عادة قبل أن يتناول لقمته. بعد أن غسلنا أيدينا قمت وناولت شنون عشر روبيات، وبلغته أني ما عدت في حاجة إلى خدمته، وطلبت منه أن يجد لنفسه عملًا يعتاش منه.

بدت الدهشة على وجه حسن أكثر مما على وجه شنون. حسن لا يدرك خيبة صاحبه وأنا لم أخبره عن قصة الرجل الذي أحضره معه، وكاد يقول شيئًا لكن شنون منعه، مد يده وأخذ الروبيات وقام.

مكتبة ياسمين

من دون أن يسلم على أمه، غادر حسن مستعجلًا على إثر صاحبه، وعدت أنا إلى صفتي، أهز الحرز علَي أسمع منه ما لم أسمعه طوال السنين التي مضت.

لا يصدقوني، لكنه يصدقني، كان دائمًا يصدقني حتى عندما كنت أكذب عليه أو أخفي عنه حيل أمي التي كانت تطلب مني دس الدواء في أكله علّي أحمل، أو عندما كنت أقول له بأني لا أتتبعه وأمشي وراءه من سكة إلى سكة كي أعرف أي النساء تطيل الوقوف للحديث معه. يصدقني حتى عندما أقول إني ما فعلت وأنا فعلت ما فعلت أمام عينيه.

صدقني في كل شيء قلته، وما كذبني إلا عندما قلت إني لا أعرف من تكون أم حسن، من يكونون أهله، أو من وضعه وراء خيمتنا. ما همنا من يكونون أهله، قلت له، وضعه الله وراء خيمتنا، أنشترط على الله؟ أنقول لرب العالمين افضح ما سترت، حتى تفرح يا مراد وتطمئن.

من بعدها ما صدقني في شيء، حتى عندما هددته ووضعت السكين على رقبتي، تركني في الصفة واقفة والسكين في يدي وغادر.

يغضب ويترك البيت ويذهب إلى البحر ولا يعود، ما الذي كان ينهشه؟ ومن أين سقطت على قلبه تلك السوادة فكرهني.

صدقتني مريم عندما أخبرتها، كل أهل مطرح صدقوني، لكنهم الآن لا يصدقوني عندما أقول إنه يأتي إليّ بعد أن ينام الناس، لا يصدقون أنه تعب منهم، تعب من كثرة ما يحملون على ظهره من الأحمال في السوق، تعب من لسانهم ومن كلامهم، فتركهم، كنت أعرف أنه يذهب إلى البحر هربًا منهم، لا مني.

تعود أن يذهب إلى البحر كل يوم، يذهب ثم يعود إليّ، دائمًا يعود، فمن غيري يطعمه عندما يجوع؟

مكتبة ياسمين

أنتظره وأعرف خطوه، ليس لأحد خطوة كخطوة مراد، لا، ليس خفيفًا حتى يمشي من دون أثر، وليس ثقيلًا فتنغرز قدماه في الأرض.

أسمعه، أسمع نفسه، أحيانًا أسبقه إلى الباب فأفتحه له، وأحيانًا أجده ينتظرني في وسط الحوش، أمسكه بيديه وأجلسه، أضع الصحن أمامه وأجلس أراقبه وهو يأكل.

يأكل اللقمة وراء الأخرى، لا يتوقف حتى لشربة ماء، أخاف عليه أن يغص، لكن فمه ينفتح فيصبح جيبًا لا قرار له، تتدافع فيه اللقم.

لا أتكلم عن حسن أمام مراد، لا أريد أن أغضبه، وما أخبرته عن حماره ولا عن اسمه، ولا أنه صار لا يفارقه إلا عند النوم، لا أخبره بذلك، أخاف أن يغضب مراد فيضرب حسن، وحسن رضيع ينام في حضن فاطمة.

ملّ مراد الليل فصار يأتيني في النهار، يهمس لي من عند نافذة الصفة، لكني أسمعه ولو كنت في طرف الحوش، فأركض، أحيانًا يصرخ، يقول اصعدي السطح، فأقفز الدرجات إليه، مرة أحضر معه سمكة، لكن القطط خطفتها قبل أن تصل إلى يدي.

لكن له مدة لم يأت، أخبئ له طعام الغداء للعشاء، ولا يأتي، أبقى أنتظره الليل بطوله ولا يأتي، أحيانًا لا أنام أيامًا، وتنزعج مريم من كثرة حركتي في الفراش، لكنه لا يأتي.

أعد الأيام منذ آخر مرة جاء لزيارتي، كان القمر بدرًا أول تلك الليلة، لكنه عندما جاء ما كان تبقّى منه إلا خيط في السماء، قال لي إنه لن يغيب ثانية، سيأتي قريبًا، أذّن الملّا في مسجد المنذري، وغاب مراد، وأنا منذ تلك الليلة أنتظره ولا يأتي.

هل أنا مجنونة؟ سمعتهم يقولون ذلك، عندما

مكتبة ياسمين

أمسكت بخناق العسكري الذي دق باب البيت علينا، العسكري الذي أخذ مراد من عند البحر، أنا رأيته عند البحر، أعرفه، رأيته وهو يحمل مراد ويأخذه بعيدًا، لماذا أخذ العسكري مراد؟ ولماذا جاء إلى بيتنا؟ هل كان يريد أن يأخذ فاطمة؟ هل كان يريد أن يأخذ مني حسن، أم كانت عيناه على مريم؟

أنا رأيت عينيه، رأيت كيف نظر إلى مريم، كان يريد أن يأخذ مريم، كان يريد أن يحملها على ظهره ويهرب، لكني منعته، لقد أخذ مراد من قبل، فلماذا يريد أن يأخذ مريم؟ من لحسن وفاطمة بعد مريم؟

الناس ضحكت، وفريدة قرأت كلامًا على رأسي، وأنا أفلت العسكري الذي أراد أخذ مريم، قلت لهم إن العسكري لص، إنه ما جاء إلا للسرقة، لكنهم ما صدقوني، قالوا فاطمة مجنونة، مثلما قالوا إن حسن غبن، لكن لا أنا مجنونة ولا حسن غبن، لكن الناس تقول وحسن يسمعهم.

نعم، سمعت حسن يقول لمريم إن لي عينين كعيني زلموك، زلموك مجنون الشجيعية، كيف صارت عيناه في وجه فاطمة وفاطمة لم ترَ عيناها غير مراد.

كيف لا يعرف حسن أن أباه حي؟ يقول إنه دفنه، يكذب حسن، يكذب العسكري، كيف يقدر التراب على مراد، وهو الذي حمل مطرح كلها على ظهره وغطسها في البحر.

نعم رأيته، رأيت مراد داهوك وهو يحمل السوق، عندما قالوا إن حسن ابن فاطمة من رجل غيره، قالوا داريت حملي لأشهر بسحر صنعته أمي، حمل مراد السوق كله، بناسه ودكاكينه، وسمعته يصيح: «أنجاس»، ثم غطسهم كلهم في البحر، لكنهم غافلوه وعادوا، الدكاكين والناس ومطرح، وهو

مكتبة ياسمين

ذهب ولم يعد إلى فاطمة.

ما حيلتي، يأتيني وأنا نائمة أو وأنا أطبخ أو وأنا أسكب الماء على جسدي، يهمس إليّ، يقول: أنا مراد، تعالي، أنا جوعان يا فاطمة، تعالي، أريد رزًا وسمكًا، ضعي اللقمة في فمي، وكنت أطعمه، أكور له اللقيمات وأضعها في فمه، لكن الرز كان يسقط على الأرض ويتبعثر، فكنت ألمه وأعاتبه، لماذا لا يفتح فمه أكثر، فمك صغير يا مراد افتحه، تقول إنك جائع يا مراد، افتح فمك، ألا يعجبك أكلي؟ هذا طبخي، ما وضعت مريم يدها فيه؟ ألا تحب طبخ فاطمة؟

ألك امرأة أخرى يا مراد؟ امرأة تعرف كيف تطهو مرق السمك أحسن مني؟ امرأة تخبز الستبوري مثلي؟ امرأة تربي ولدك وتحفظ السر مثلي؟

مكتبة ياسمين

حسن لبن

طرقت الباب ففتحت لي أمي، حملت حزمة الحطب وأدخلتها، ووضعتها إلى جانب الموقد، بحثت بعيني عن بيبي مريم، فقالت أمي إنها في صفتها، ووضعت أمامي صحن العشاء، سألتها عن شنون، فقالت إنه لم يأتِ، وإن مريم لا تنام.

مريم تشتاق فريدة، أنا أشتاق فريدة، ففريدة كانت تعرف كيف تحكي الحكايات، وعندما أجدها عند البحر والبنات حولها أجلس بعيدًا كي لا أحسب منهن، لكن قريبًا بما يكفي لأسمعها.

مرة قالت لي فريدة «تعالَ حسن أعلمك القراءة»، فضحكت ونظرت إلى العاصف، لو عرف العاصف القراءة لعرفتها أنا، هكذا رددت عليها، فما عاودتني مرة أخرى.

تشتاق مريم فريدة، وأنا أشتاقها وأمي وكل بنات مطرح مشتاقات إليها، وقبل أيام سألتني فتاة صغيرة خرجت من بيت الحاج يونس علي إن كنت أعرف متى ستعود المعلمة فريدة، فقلت لها إن المعلمة رحلت إلى مكان بعيد ولا أعرف متى تعود. حزنت البنت، رأيت حزنها في عينيها، ثم التفتت إليّ وسألتني إن كانت مريم تعرف كيف تقص القصص، فقلت لا.

لم أسمع مريم تقص قصصًا مثل فريدة، مريم لا تكثر من الكلام، وأحيانًا يخيل إليّ أن فمها ما خلق إلا لكي تصرّف أمورها بالأمر أو لتضحك، ومن سمع ضحكة بيبي مريم يعرف ما يعني الضحك، ضحكة عالية، ولولا أنها تحرص على غلق باب الدكان عندما تنتابها لسمعت من عند بوابة مطرح، لكني أسمعها، أقف عند الدكان فأحرسها، هي وضحكتها.

مكتبة ياسمين

سافرت فريدة، نقلنا حاجياتها إلى ميابين، ثم ركبت البحر مع ناصر، من أين جاء ناصر هذا؟ وكيف رضيت بيبي مريم أن تترك ابنتها تذهب مع رجل غريب لا نعرفه؟

بيبي مريم تشتاق أباها. بعثت شنون ليبحث عنه وشنون ما عاد، هل أعجبته مسقط فقرر أن يبقى فيها، أم أنه ما زال يبحث عن دلشاد تحت كل حصاة وشرجة وواد، كما سمعت مريم تأمره؟

تعشيت وخرجت ففككت خطام العاصف ومضينا إلى البيت، لكن قبل أن نبتعد في السكة لقيت شنون ومعه رجل طويل، خفيف اللحية يلف عمامة بيضاء مهذّبة حول رأسه، ألقيت عليهما السلام فردّا عليّ وأكملا سيرهما، فوقفت في مكاني مستغربًا، هل هذا شنون حقًّا؟!

كان الوقت قبل المغرب، وما زال بعض من الشمس يضيء الدرب، لكن شنون ما التفت ولو بنصف وجه ناحيتي، كأنه ما عرفني، هل نسيني الرجل؟ وإن نسيني أما ذكّره شحيج العاصف بي، العاصف الذي فرح به، أيمكن أن يكون نظره قد ضعف وهو يبحث عن دلشاد في تلك البلاد؟

سحبت خطام العاصف وربطته عند حصاة آخر السكة، ثم عدت إلى بيت مريم، فرأيت أمي تفتح الباب، ثم مريم تطل منه، ثم تدخل شنون والرجل معه إلى البيت، وقفت عند الباب أريد أن أعرف إن كان شنون وجد دلشاد أم لا، لكني ما سمعت شيئًا، ثم مر رجل من الحارة فوجدني على حالي تلك أتلصص، فخجلت وعدت إلى حماري وابتعدت.

أخبرتني أمي عندما مررت عليها أول الصباح بأن شنون ما لقي دلشاد وأن الرجل يريد شراء حرز مريم، وأن مريم رفضت بيع حرزها فغادرا، لم أفهم

مكتبة ياسمين

لماذا يأتي الرجل الغريب مع شنون ليشتري حرز مريم، ألا يوجد صاغة في مطرح يذهب إليهم!

ثم قبل أن يهل الهلال أمرتني مريم أن أحضر معي شنون ليلة الدرنة حتى نتعشى معها، بحثت عن شنون في كل السوق فما لقيته، ولا صادفت ذلك الرجل الغريب، هل ابتلعتهما الأرض؟ لا أعرف.

ذهبت إلى بيته في الوشل، طرقت الباب ولكنه لم يفتح لي، فقررت أن أقحم عليه البيت لأطمئن إلى أنه ليس فيه، فقحمت لكني ما وجدته.

لففت عليه حارات مطرح كلها، ثم ذهبت إلى غلام حسن، علّه يعرف شيئًا عن شنون، لكنه لعنني وشنون ومن شغّله عنده فغادرت.

أين ذهب شنون، وهل ما زال مع ذاك الرجل الذي يريد حرز مريم، بقيت ألف وألف في دروب مطرح وسككها، ثم تذكرت سدرة النبق عند خب السمن فذهبت إليها علّي أجده، وهناك وجدته، هو والرجل الذي بغضته دون أن أعرفه أو أجلس معه.

من بعيد رأيتهما يتجادلان، لكن ما وصلني من كلامهما شيء ولولا أن الرجل الغريب كان يكثر من حركة يديه، ويقوم ويقعد وينحني على شنون الجالس بلا حركة لَمَا تبين لي شيء.

مشيت في اتجاه الرجلين وما إن وصلت، حتى ألقيت السلام عليهما، فالتفتا إليّ وقام شنون ليسلم عليّ وكذلك فعل الرجل. سلم عليّ شنون ووقف يحيّيني مدة كأنه ما أعرض عني قبل يومين. أما الرجل الذي لم أعرف اسمه، فبدا لي بعد السلام رجلًا طيبًا، مثلي ومثل شنون وكل أهل مطرح.

أردت أن أسألهما عمّا أخبرتني به أمي عن حرز مريم وطلب الرجل شراءه. أردت أن أعرض عليه أن أخذه بنفسي إلى دكان الصايغ عبدالله الميمني

مكتبة ياسمين

أو غيره، لكن بدا لي الرجل غير راغب في الكلام فأمسكت أنا عنه.

قبل أن أغادر طلبت من شنون مرافقتي حتى مربط سلوم حيث ربطت العاصف عنده ليعالج حافره، فتعذر بشغل له مع الرجل، فسألته عنه فقال إنه صاحبه ولم يزِد، سألته عن الحرز فقال إنه لا يعرف. لم أصدقه.

أخبرته بأن مريم تنتظرنا على عشاء الدرنة، فقال هي والله، ولم نلتقِ بعدها إلا أمام باب بيت مريم دلشاد ليلة أن انطلق المدفع وأهلّ الهلال.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

استدعيت إلى قيادة المعسكر في الدقم، وهناك حقق الميجور معي وسألني عمّا حدث في تلك الليلة. كنت ما زلت مشوشًا، وكانت ذاكرتي تأتي وتغيب، لكني ما كنت راغبًا في الكلام. كان يسأل وأنا لا أرى إلا ركض عبد الرحيم نحوي، هل عرف أني قاتله؟

ساعات أجلسني الكولونيل قبالته وحقق معي، كنت أرد عليه بما أتذكر من تلك الليلة، لكن عندما سألني لماذا عبد الرحيم حسن؟ وعن الخلاف الذي كان بيننا؟ تخيلت أني قفزت وأمسكت برقبته حتى كدت أخنقه، لولا أن تدخل الحراس وأنقذوه من بين يديّ.

عدت إلى رشدي، قال إنه يفهم حالتي، وإنه لن يأمر بأي إجراء تجاهي، اللعنة عليك وعلى أمك الإنجليزية، يا غبن يا ابن الغبن، أتتفضل عليّ؟ نحن من يحميكم يا أولاد... تتنعمون ونحن نحرسكم كالكلاب، ثم تتهمني بقتل أخي عن عمد وأنك ستعفو عني، لماذا تعفو عني؟ اقتلني وألحقني بأخي، لو كنت رجلًا اقتلني، هيا اقتلني.

أشتم بالعربية والأذرية والبلوشية، تختلط الشتائم في رأسي لكن لساني لا يقول، ذرّبنا في العسكرية ألا ننطق، لكن الكلام كان يتفصّد من جسمي عرقًا وأنا أحبسه.

عندما رأى الكولونيل اضطرابي أمرني أن أهدأ، كيف لي أن أهدأ ووجه عبد الرحيم في عيني طوال الوقت، أغمضهما فأرانا نمشي على طول الساحل إلى غربق ونتسابق في القفز إلى البحر، أو نجلس فيحكي لي عن أطفاله، كان يتمنى أن يرسلهم إلى السعيدية فيتعلمون ثم يسافرون في

مكتبة ياسمين

بلاد الله ويكسبون لقمة عيشهم من أي عمل، المهم ألا يصبحوا جندًا مثلنا ويخدمون الإنجليز. كنت أعارضه وأقول نحن نخدم السلطان فيضحك، ثم يشتم سلالة رسلان.

كان كلامه يطفح بالمرارة لكنه كان يضحك، وكنت لا أجد بدًّا من مجاراته في الضحك.

كيف قتلت عبد الرحيم، كيف قتلت أخي؟

أمرت بالمغادرة إلى فهود كي أحرس منصة النفط مع بعض الجنود.

في فهود وقرب المكان الذي غرس فيه المساحون الإنجليز علاماتهم، رأيت شيئًا ما رأيت مثله في حياتي، حيث قام الإنجليز بتجميع قطع أحضرتها الطائرات من الدوحة، وصنعوا منها شيئًا مثل عمود ضخم، ربما كان ارتفاعه أكثر من عشر قامات، يرتفع في السماء بأذرع من حديد ثم يهبط على الأرض فيدكها.

دكت الحفارة الأرض أسابيع، ثم فجأة توقفت ورأيت الإنجليز غاضبين، ثم فهمت أن قطعة معدن وقعت في فتحة البئر وعطلت الحفر.

استؤنف الحفر بعد أشهر، لكننا لم نرَ نفطًا. أظن أنه مر قرابة عام ونصف العام وصوت الحفارة في آذاننا ليل نهار، ثم توقف الحفر وعادت السّكينة إلى الصحراء، لكنها لم تعد إليّ.

مكتبة ياسمين

ما خرجت من مسقط إلا لمطرح وما خرجت من مطرح إلا لمسقط، وما كان عندي الشوق الذي كان لعبد اللطيف ولا اللهفة التي رأيتها في عيني فريدة وهي تنظر إلى البحر، وعندما أرسلت زوجة الشيخ طارشها يدعوني إلى عرس ابنتها في السيب مع بعض نساء مطرح، ما تلهفت على مغادرة بيتي ودكاني، لكني وجدتها فرصة كي أعرض عليها ونساء السيب ما جدّ في دكاني من أقمشة غير تلك التي أوصت عليها للعرس والعيد. أخلط الجديد بالقديم الذي ما التفت إليه أحد وأبيعه معًا.

خرجت من البيت عقب صلاة الفجر، بعد أن استطعت الإفلات من فاطمة التي كادت تمنعني من الخروج من البيت ببكائها، وكأني أفارقها فراق الموت. هدأتها وطيبت خاطرها ووعدتها أن أحمل لها معي شيئًا من فاكهة السيب.

حاذيت حسن وحماره الذي حملنا عليه صرر القماش، وأخبرته عن أحوال أمه في المدة الأخيرة، وطلبت منه أن يبقى معها في البيت حتى أعود، فلا تشعر بالوحشة ويسوء حالها أكثر. أوصيته أن يكون أرفق بها، وأن يتحمل صراخها ومناداتها مراد ليل نهار.

كان حمدون هندل ينتظرنا عند البدفورد في الساحة الكبيرة أمام مستشفى طومس، فساعد حسن على رفع صرر القماش على ظهر البدفورد الذي كان ما زال خاليًا، وتلفت حولي فلم أجد أحدًا من النساء، ثم بعد قليل أقبلت جول بيبي وأختها نورجيهان حسن من الشجيعية، وتلتهما شفيقة لكوه من كهبن، وخديجة شمشار من جبروه ومثلى بنت سيف التي جاءت تمشي من دارسيت فكانت اخر

مكتبة ياسمين

الواصلات.

عرفت اللهفة في أعينهن وفهمت من كلامهن أنهن تعودن الذهاب إلى السيب مرة أو مرتين في السنة، إما مدعوات إلى عرس وإما لزيارة بعض أهلهن.

ركبت النساء الخمس قبلي، أما أنا فترددت في الصعود، بقيت أنقل عيني بين البدفورد وحسن وحماره، حتى نادتني النساء وفي أصواتهن استعجال خفت أن يتحول إلى غضب.

اندسست بين صرر القماش، التي رتبنها من حولي وجعلت منها متكأ، وما إن اطمأننت في جلستي حتى سمعت دوران ماكينة السيارة، ثم انتفض حديدها وأحدث صوتًا كالقرقعة ففزعت، أردت أن أهبط من السيارة، وأركض بأسرع ما فيّ، إلا أنها تحركت فجمدت أنا في مكاني.

شعرت بألم في صدري وأنا أرى بيوت مطرح وعششها تصغر في عيني، لمت نفسي على قبول الدعوة وعلى طمعي في البيع. غشيني الخوف، وشعرت بأطرافي تبرد، حتى كدت أدق الحديد وأطلب من حمدون أن يقف فأنزل وأعود إلى حارة الشمال مشيًا، لكني خشيت أن تستنكر النساء عليّ ذلك، أو يظنن أن فاطمة عدتني بجنونها.

كان الهواء ما زال باردًا أول الصباح، وغفت أغلب النساء متوسدات صررهن، غير مكترثات لقفزات البدفورد. أما أنا فحاولت أن أغمض عيني مثلهن، لكني كنت أفتحهما كلما قفزت السيارة ودق حرزي صدري بقوة.

ما لبثت الشمس أن ارتفعت، وتحولت برودة الصباح الخفيفة إلى حرارة تأتي من السماء ومن الحديد الذي نجلس عليه.

استيقظت النساء وغطين وجوههن بلواسيهن، أما

مكتبة ياسمين

أنا فأنزلت الغشوة لتحميني من التراب والشمس، ومضينا في ذلك الدرب ساعات. ما توقفنا إلا مرات قليلة انتشرت فيها النساء في الشعاب ليقضين حاجتهن، أما أنا فما تحركت من مكاني حتى وصلنا.

وصلنا السيب عند العصر ومضت السيارة في دروب ضيقة بين المزارع، ظللتنا الأغصان المتشابكة عبر جدران المقاصير، أشجار اللمبا والسفرجل والليمون والتشيكو. أعرف أن الأخضر حتى عندما تلبسه النساء يريح العين والخاطر، لكني ما عرفت سر الأخضر حتى مشيت في ذلك الدرب، فاستجمعت قوتي وتمسكت بحديد البدفورد ووقفت والنساء ينظرن إليّ باستغراب، رفعت يدي فصارت أوراق الشجر تلامس كفي، فقطفت وريقات وعصرتها بين كفيَ واستنشقت الرائحة.

كانت الشمس تنحدر على قمم النخيل عندما وصلنا أمام بيت الشيخ، توقفت البدفورد ثم أطلقت صوتًا جعل قلبي يفر من بين أضلعي وأظنه طيّر العصافير من الشجر، فخرجت خادمات البيت لاستقبالنا.

هبطت بحذر وساعدتني النساء في إنزال صرر القماش، ثم حملتها الخادمات ومشين أمامنا، فعبرنا مدخل حوش كبير، اختلطت فيه النساء بالأطفال، ورأيت في زاوية منه رجالًا سمرًا، ضخامًا، يحركون المضارب في بطون قدور الهريس.

في عريش من زور النخيل قُدّمت إلينا صحون التمر والقهوة، ثم بعد قليل قُرّبت صحون الهريس والسمن المقشود يتلامع على وجهه، فأكلنا حتى أتخمنا ثم وضعت كل واحدة منا جنبها ونامت، إلا أنا فما إن دسست الحرز في صدري، حتى تذكرت ذلك الرجل الذي جاء يطلب حقًا لا أظنه له.

مكتبة ياسمين

استيقظنا على صياح خادمات البيت، وقبل أن نعتدل في جلستنا جاءت إحداهن لتقودنا إلى المجازة، مشت أمامنا على ساقية الفلج فتبعناها. قطعت الساقية ضواحي النخل والموز وأشجار اللمبا والتين.

لمحت النساء يمشين حاملات القفران على رؤوسهن وفي أيديهن المجاز، فتذكرت مشي النساء في ضواحي طويان الزبادية والمحدوثة.

وصلنا المجازة فوجدتها غرفة مبنية على ساقية الفلج، لها باب من قماش ولا سقف لها، وعندما رفعت عيني إلى السماء رأيت الشمس عبر أغصان شجر اللمبا وسعف النخيل.

تخففت رفيقاتي من ثيابهن وهبطن ليستحممن في الفلج، خجلت وأنا أرى أجساد النساء العارية، وخجلت أن أخلع ملابسي أمامهن كما فعلن، فمنذ أن كبرت وتزوجت عبد اللطيف، لم ير جسدي أحد غيره وغير ما مويزي التي كانت تساعدني على الاستحمام.

خلعت لحافي ووقفت حذاء الساقية أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، مترددة بين أن أبقى متربة غبراء تفوح مني رائحة الشمس والعرق، وبين أن أقفز معهن وأتحمم وألهو بالماء كما فعلن. كان جسدي يشتاق الماء وخجلي يمنعني من التّكشُّف أمام النساء، فكيف لي أن آمن عيونهن وأنا في الماء وأفواههن عندما نعود إلى مطرح؟

على غفلة مني دفعتني الخادمة، ضحكت النساء، أما أنا فكدت أندفع خارج الساقية فأؤدبها، لكن أيدي النساء امتدت وسحبتني، وبرودة الماء التي سرت إلى جسدي بزدت غضبي فهدأت وما لبثت أن شاركتهن اللعب بالماء، فرششنني ورششتهن،

مكتبة ياسمين

وضحكن وضحكت، ثم تجرأت وتخففت من ثيابي وأنا في الماء، ووضعتها جانب الساقية، فقامت الخادمة وعلقتها لتنشف على حبل مُدّ بين الجدران. حللت ضفائري في الماء فسال منها السدر والياس. وما إن انتهينا حتى ارتدينا ثيابنا ودارت علينا الخادمة بالمشط وبمرشات ماء الورد الجبلي فعطرتنا، ثم بالمجمر فبخرنا شعورنا المبلولة وثيابنا.

عدنا إلى العريش فوجدنا صحون خبز الرخال والكامي والعسل والبيض المقشود بالسمن مبسوطة أمامنا. لم تُخفِ أي منا جوعها فجلسنا وامتدت أيادينا إلى الصحون من دون خجل، وللحظة تذكرت أول لقمة لي في بيت لوماه، لقمة الرز الذي ما ذقته من قبل ومرق السمك الذي ما طعمت أطيب منه في حياتي، حتى المرق الذي تعلمت كيف أعده بنفسي وتحلف فريدة بأن لا شيء يضاهي لذته، لا يشبه لذة اللقمة الأولى في بيت لوماه.

توقفت عن الأكل قبلهن، إذ لاح لي وجه مَا مويزي، ثم تبعتها فردوس وفرشوه وعساكر والطاووس. رأيتني أتعلم أسماء التوابل كما أتعلم الكلام، أقرّبها فأشمُها وأتذوّقها بطرف لساني كي أعرف حدّتها وبرودتها.

بعد أن غسلنا أيدينا جاءت الخادمة لتدعونا إلى ليوان البيت العود، حيث كانت بدور بنت بدر زوجة الشيخ الكبرى وأم أولاده تنتظرنا. سلمنا عليها وكانت تسأل كل واحدة من النساء عن أهلها وعيالها، ثم عندما وصلت عندها، قالت: «أكيد أنت مريم بياعة الثياب.. كيف حالش وكيف أولادش.. معش صغيرين؟».

لم يعجبني نطقها لبياعة الثياب، كأن في البيع عيبًا، أو كأن النساء ما تاجرن من قبل ولا حملن

مكتبة ياسمين

صرر الثياب ودرن بها بين البيوت، فأقمن بيوتهن وأطعمن أطفالهن.

جاوبتها: «نعم أنا مريم، يسميوني في السوق التاجرة، وجايبتلكم معي من القماش أنواع ما سبق شفتوها».

ثم جلست عند طرف الحصير وأنا أغلي في داخلي كغليان القهوة على الموقد. ثم أدنيت إلينا صحون رطب النغال ودارت علينا فناجين القهوة، فوقفت حبات الرطب في حلقي.

بعدها استأذنت النساء ومضين كل واحدة إلى شأنها، أما أنا فعندما أردت المغادرة استوقفتني بدور بنت بدر وسألتني عن القماش الذي أحضرته معي.

أرسلت الخادمات لإحضار صرر القماش، وعندما اجتمعت نساء البيت؛ البنات وزوجات الأبناء، فتحت الصرر على مهل، وأخرجت القماش وصرت أفرشه قطعة وراء قطعة، الشنجهاغي الأخضر والحرير المزعفر والململ الأسود والأطلس الضارب إلى الحمرة، المطبوع والمنقوش والمزراي والمطرز.

مسحت على القماش وأخبرتهن عن برودته وعن حرارة الألوان، عن المشهّي وعن المهدّئ وعن الذي يثير غيرة النساء من النساء، فأقبلن يتلمسن القماش ويتهامسن بينهن، ثم ارتفعت أصواتهن وهن يتجاذبن بعض القطع الغالية، حتى اضطرت بدور بنت بدر إلى التدخل بين بناتها وزوجات أبنائها.

خرجت النساء فرحات بأقمشتهن الجديدة، وبقيت أنا مع بدور بنت بدر فسألتني عن ثمن الثياب. تظاهرت بأني مشغولة في الحساب، بينما كنت مشغولة في حساب الضعف، لتدفع ثمن وقاحتها مع ثمن البضاعة وإلا خرجت خاسرة.

مكتبة ياسمين

رفعت حاجبها مدهوشة من الثمن، لكن النساء كن قد غادرن بالأقمشة، فما غيرت قولي حتى وضعت الروبيات كلها في كفي، وعندما أردت أن أسلم عليها سلام الخروج مدت يدها إليّ كي أقبّلها. اللعنة! لحظتها رأيت فردوس جالسة على كرسيها أول ما دخلت بيت لوماه وأنا طفلة، لكن ضحكتي لم تسعفني هذه المرة وبقيت جامدة، ثم عندما عادت إليّ حواسي، ابتسمت في وجهها، وصافحتها كما تصافح النساءُ النساءَ وخرجت.

ليلة العرس وضعت على كتفي شالّا من الحرير الأحمر المذهّب، كنت قد أحضرته معي هدية لتلبسه الأم في زواج ابنتها، ووضعت الداروف على شفتي، وكحلت عيني، فلمعت كما تلمع العروس، وعندما رقصت النساء لم أتزحزح من مكاني، وبقيت جالسة لا أتمايل ولا أصفق ولا أتحرك إلا بقدر ما تحتاجه الحركة، وعندما التقت عيني عين بدور بنت بدر لم أبتسم ولم أكسر نظرتي.

بعد يومين عرفت أن حمدون هندل وصل، فتركت نساء مطرح في بيت الشيخ ليقضين ما طاب لهن من وقت القيظ، واستأذنت متعذرة بمرض فاطمة وركبت البدفورد من دون أن أنظر إلى البلاد التي فارقتها.

فتحت لي فاطمة الباب قبل أن أطرقه، وهجمت عليّ وحضنتني وبقيت متعلقة بي مدة، وعندما أفلتتني كانت عيناها فوق زوغانها ممتلئة بالخوف: «لا تخليني مريم، لا تخليني وحدي، أنا أخاف.... حتى مراد ما جا... حتى مراد ما جا».

سألتها عن حسن فهزت رأسها، وما عرفت منها شيئًا. هدّأت خاطرها ووعدتها ألا أتركها أبدًا، وأخرجت من صرتي حبات تين وسفرجل ففرحت

مكتبة ياسمين

بها وذهبت ووضعتها عند النافذة علّ مراد يشم الرائحة فيأتي.

قبل أن يؤذّن بالعشاء طرق الباب وسمعت صوت ذلك الرجل يسأل عني، فقلت لها أن تبلغه أني نائمة.

تعشينا ثم صعدنا إلى السطح حيث فرشت فاطمة فراشنا، لكن قبل أن ننام هب الهواء الغربي الحارق وجفف ثيابنا التي بللناها لنتبرد وأطفأ سراجنا، فعدنا وبللناها مرة أخرى، بعدها وضعت جنبي لأنام، لكني عدت إلى التفكير في الحرز وذلك الرجل، فعزمت على أن أذهب إلى الصايغ في الصباح، فإن وجدت الصك داخل بيت الحرز سلّمته للرجل وربحت المال الذي قال إني ورثته من عبد اللطيف، فقويت تجارتي وتوسعت، وإن لم أجده أنهيت هذه المسألة واسترحت.

مكتبة ياسمين

صالح بن سيف

أقسم بالله إن النساء مجنونات، كلهن مجنونات، أولاهن جدتي التي ما زالت تنتظر صكًا صار صاحبه عند ربه. حتى مريم بنت دلشاد التي يقول عنها شنون إنها امرأة لم يرَ من هو أعقل منها، رفضت حتى أن تجرب وتهز بيت حرزها، علّها تسمع خرخشة الصك في داخله.

ما عرضت عليها إلا الخير، أعطيها قيمة الرهن الذي لزوجها وتعطيني الحرز، قلت لها وأكدت إني لا أريد الحرز، أريد فقط أن آخذه إلى الصايغ فيفتح باب بيته ويستخرج الصك من بطنه، ثم سأعيده إليها.

أقسمت أني سأعيده إليها، ما حاجتي أنا وصيغة الحريم، لو بي حاجة فالصاغة في مطرح ومسقط كثر، وإن عييت وضيث على ما أريد من نزوى، لكن كل ما كنت أريده أن أعيد الصك إلى جدتي وأعود بأولادي إلى الغبة.

مر رمضان وتلاه العيد واقتربت عشر ذي الحجة، انتظرت خبرًا من شنون الذي وصيته ألا يتباطأ في إخباري إن وافقت مريم، فهي تعرف أين تجده وهو يعرف أين يجدني.

ثم جاء طارش وأخبرني بأن جدتي على فراشها منذ أشهر، لكن روحها تأبى أن تفارقها، وأنها بين شهقة وأخرى تنادي باسمي ثم تصرخ: «الصك يا صالح»، وأن بناتها، عماتي وحتى أخواتي تركن بيوتهن وأشغالهن وأقمن عندها يتناوبن على رعايتها.

فما كان مني إلا أن تحركت إلى مطرح، فإما أن أحصل على ذلك الحرز بالتراضي، وإما أن اخذه

مكتبة ياسمين

غصبًا، ولو اضطررت إلى سرقته، وليسامحني الله.

ذهبت إلى بيت مريم فلم أجد غير تلك المرأة المجنونة، فذهبت إلى دكانها في السوق، لكني لم أجدها، سألت عنها جيرانها البانيان، لكن أحدًا لم يرها طوال ذلك اليوم ولا اليوم الذي سبق. مشيت في سكك السوق علّي أصادف صبيها حسن لبن، لكني لم أصادفه، فاضطررت إلى البحث عن شنون، الذي ما كنت أريد الاستعانة به، بعد أن جعلني معلقًا في انتظاره.

ذهبت إليه حيث تركته آخر مرة في خب السمن فوجدته نائمًا تحت السدرة كأن الوقت ليس نهارًا والشمس ليست فوق الرأس، لكزته فقام مفزوعًا، وما إن رآني حتى استعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

استغفرت الله، وتجاهلت ما قاله، وسألته عن مريم، فما أجاب إلا بلا أعرف، لا أعرف، وهو يهز رأسه كأن به مسًا.

نظرت إلى وجهه فوجدته قد نحل وغارت عيناه وازدادت سمرته، كانت رائحته نتنة وكأنه ما اغتسل منذ آخر مرة لقيته فيها، سألته متى آخر لقمة دخلت بطنه، فقال إنه لا يتذكر، أمرته بأن يغتسل ثم يقوم معي إلى السوق.

ابتعنا من السوق سمكة مشوية وخبزًا وبصلًا وفجلًا، ثم مشينا صامتين ناحية الفرضة، تجاوزناها وجلسنا تحت جبل القلعة. كان يأكل كمن لم ير الأكل في حياته من قبل، وبعد أن شبع سألته عمّا بدل أحواله، فأخبرني بأن مريم ناولته أجرته وطلبت منه ألا تراه لا في بيتها ولا في دكانها، وأنه أخذ قروشه وركب مع حمدون هندل، وذهب إلى بيت خالته معيسلانه في السيب، وأنه عندما وصل وجدها ميتة، فعاد، وأنه بعد ذلك لعب القمار مع الصبية،

مكتبة ياسمين

وأنه خسر كل ما تبقى له، وأن لا أحد قبل أن يشغله أجيرًا عنده، فبقي جائعًا لا يجرؤ أن يعود إلى بيت مريم.

عاتبته على إخفاء ذلك عني:

- أموت جوعًا أو حتى أسرق ولا أمد يدي.

- المهم، مريم هين؟

- شفتها تركب بدفورد حمدون هندل مع حريم من حارة الشمال، سألت قالوا معزومة مع بعض حريم مطرح لعرس في السيب، ويقولوا حرمة شيخ السيب موصية على ثياب كثيرة من دكان مريم.

- متى بترجع من السيب؟

- ما أعرف.

- حسن لبن معها؟

- لا حسن لبن في مستشفى طومس، يقولوا رفسه حماره، والتو مترقد هناك.

رافقته عائدًا إلى خب السمن، وأخبرته بما يدور في رأسي. قلت له سأنتظر مريم وسأعود لأسألها عن الحرز ثانية، ثم إذا ما عاندت وأصرت على رأيها، فسأضطر إلى سرقته، فسألني كيف سأفعل ذلك، قلت له، لست أنا، بل أنت من ستفعل ذلك، يدك الخفيفة يُشهد بها في مطرح، أليس هذا ما قلته عن نفسك؟ قال إنه حلف بعد موت أمه ألا يعود إلى السرقة، وأنه حلف ألّا يتسور بيتًا على أصحابه. رفض شنون أن يطاوعني على ما طلبت حتى أخرجت من جيبي عشرين روبية، وقلت له إن له مثلها إن هو أحضر لي الحرز، ثم أقسمت له على أن الحرز سيغيب مقدار ما يفحصه الصايغ ويفتح باب بيته ويناولني الصك، وأنى سأعيده إلى مريم مع كل ما أدين به لعبد اللطيف قبل أن تغرب الشمس.

مكتبة ياسمين

أخبرته بأني مضطر ولا أقصد الضرر، لكن مريم تضطر الإنسان إلى فعل ما لا يريد بعنادها.

عمومًا لا خطر هناك ولا إثم، نحن لا نسرق، بل نقترض منها الحرز لساعات قليلة ثم نعيده كما هو، ما نقص منه سلسلة ولا جرس، ومعه مال كثير ينفعها وينفع ابنتها التي لا بد ستعود يومًا من الدوحة، وهذا حقها وميراثها، لكن مريم عنيدة.

بعد كلام كثير وافق شنون، فناولته الروبيات وأكدت أن عليه أن ينتبه فلا يراه أحد وأن يأتيني بالحرز ما إن تشرق الشمس ثم يختفي، وأني ما إن آخذ الصك حتى أعود إليه بالحرز فيعيده بخفته ومعه المال إلى بيت مريم، ثم أختفي بدوري فلا يعرف أحد كيف يستدل عليّ.

لم أعد إلى مسقط ليلتها بل أقمت في المسافر خانة قرب دروازة السوق، وبقيت أنتظر من شنون إشارة تدل على عودتها.

مر يومان وعصر اليوم الثالث جاء شنون راكضًا يخبرني بأن مريم وصلت، فذهبت إليها من فوري كي أعيد طلبي عليها، لكنها ما قبلت حتى أن تفتح الباب لي، بل ردت عليّ تلك المرأة بأن مريم دخلت لتنام.

غضبت، وأنا أسعى وراءها كأني متسول وهي تصد عني، فعدت إلى حيث تركت شنون وطلبت منه أن يتسور البيت في تلك الليلة، فلا بد أن نوم مريم قد ثقل من تعب الطريق، وأنها لن تحس به وهو يستل الحرز دون أن تشعر.

بدا الخوف في عيني شنون، وهز رأسه رافضًا، كان خائفًا من المرأة التي تسكن مع مريم، لكني ذكرته بأنها مجنونة ولا يعتد بشهادتها إن حدث لا سمح الله ولمحته، ثم إن الأمر لا مضرة فيه لأحد،

مكتبة ياسمين

وأنه حتى قبل أن تشكو مريم غياب الحرز سيكون الحرز بين يديها مع الأموال التي لها، وأنه سيحصل على باقي الروبيات التي له عندي، وسيستطيع أن يبدأ تجارة صغيرة يعتاش منها فلا يحتاج يومًا إلى أحد. طمأنته أن مريم لن يكون لديها حتى حجة لتشكوه فحرزها معها وروبياتها في جيبها، وأني ما إن أحصل على الصك حتى أعود بأولادي إلى بلادي، ولن يراني أحد بعد ذلك.

تركت شنون مطمئنًا إلى التدبير الذي وضعته، سيحدث ما يحدث بلا ضرر على أحد، وسأعود أنا إلى جدتي بالصك، فتسلم روحها لربها، وينتهي وجعها وغربتي، ومريم ستسكت، من لا تسكته الروبيات؟ خاصة وأني زدت على ما أخذته من عبد اللطيف لوماه، فجعلت لها بدل الأربعمئة روبية التي أقرضني إياها سبعمئة، ربح متجارتي بمالهم طوال سنين، ولكي أبرئ ذمتي أمام الله.

مكتبة ياسمين

شنون السرسري

دخلت عشرة ذو الحجة، وما تبقى على الوقفة إلا يومان، فنصب سوق سابع عند أول حارة العريانه، وبسطت النساء صواني القشاط والكبيراه على أطرافها، وانتشرت بائعات اللولاه والدنجو والباقل يغرفن من قدورهن في طاسات المشترين.

أنزلت قفران اللمبا من المراكب التي حملتها من حيل الغاف إلى الفرضة، وفُرش لها مكان في السوق وصار الناس يساومون على القفير منها بروبية، وبُسِطَت صواني رطب الخنيزي والنغال، وهبط الشواوي من الجبال يقودون شياههم الرحبيات، وتعالت أصوات الدلالين يزايدون عليها ويبيعونها أضاحي تُنحَر للعيد.

نصب سالمين موقده العظيم وسكب السمن والسكر والنشاء وماء الورد في مراجله، وصار يحركها بملاس عظيم، فبقبقت الحلوى وانتشرت رائحتها، وتزاحم الناس عليها واختلطت روائح العرق بالسكر والماورد.

مشيت في السوق بين الناس، ومضيت بين الصواني أختلس رطبة من هنا وقشاطة من هناك، أمازح الكبار وأعلم الصغار السحر، فأخفي بيساتهم بين أصابعي ثم أخرج من جيبي رطبة وأعطيها لهم بدلًا منها، أضاحكهم فيضحكون، ثم ما إن ينتبه آباؤهم لي حتى أختفي بين سلال الرطب وقفران التين والسفرجل.

انقضى وقت السوق، وأنا ما زلت أقلب ما قاله صالح بن سيف في عقلي، أأطيعه وأقتحم بيت مريم دلشاد؟ لو كنت مكانها لأعطيت الرجل الحرز، حتى إن لم يعده، فالمال الذي سيعطيها إياه ربما يساوي عشرين حرزًا، ثم إن الرجل قال إنه لا حاجة

مكتبة ياسمين

له في الحرز، وكل ما يريده أن يفحصه لا أكثر، اللعنة على عناد الحريم، مريم وأمي من قبلها.

لكن هل أقتحم بيت مريم وأنسى عطفها عليّ وأنا جائع أبحث عن لقمتي في بقايا السمك المتروكة للقطط؟ هل أقتحم بيت امرأة آمنة، بلا رجل يحميها فأروّعها؟

هل لهذا كانت أمي تتزوج الرجل بعد الآخر، هل كانت تفعل ذلك كي لا ترتاع؟ هل كانت أمي تخاف اللصوص فصرت أنا لصًا؟

لماذا لم تتزوج مريم رجلًا بعد عبد اللطيف لوماه، وهي التي صفحة وجهها لا يُمل النظر إليها، إي والله، إنها امرأة جميلة كما يقولون وزيادة، لكن لماذا لم تتزوج؟ هل لو كان لمريم زوج فكر صالح في سرقة الحرز؟ لكن لو كان الحال هكذا، فكيف تُقتحم البيوت ورجالها نائمون داخلها؟ لا.. لا أظن، لا علاقة للرجال بذلك، لكن أمي كانت تحبهم.

أنا حاولت أن أتوب، والله يا أمي حاولت أن أتوب، لكن التوبة في مطرح صعبة، لا شغل لسرسري مثلي فيها إلا السرقة، وحتى عندما شغلتني مريم كلفتني بما لا يطاق، كيف أجد دلشاد وما وجده أحد قبلي؟ ربما قُتِل ودفِن في سيح أو كهف من الكهوف، هل أعيد الموتى أنا؟

مرة شكوت إلى مراد أني سمعت رجلًا يقول لآخر وهما يبتعدان عني «شنون؟ اللص؟ هذا إن سلمت عليه عد صبوعك». أنا أعرف أني لص، يدي خفيفة، أستل من جيوب الناس ودكاكينهم، مع ذلك عندما سمعت الكلام أوجعني وكأني أعرفني لأول مرة.

فرد عليّ: «اللص كما التاجر والتاجر كما المؤذن، كل حد يسوي شغله في هذه الدنيا، السرسري له شغل والخياط له شغل والحمالي له شغل، الدنيا ما

مكتبة ياسمين

تقوم على ملّا أحمد وصغيرينه بو يعلمهم القرآن ولا كانت تعطلت».

لا أعرف ربما كان مراد يكذب حتى يخفف عني، وإلا فكيف يكون اللص كالمؤذن؟ واحد يخاف ربه وآخر يخاف الجوع، لكن ما أدراني إن لم يكن المؤذن يخاف الجوع أكثر مني، ووحده الله يعلم إن كان يخافه المؤذن أكثر مما أخافه.

مشيت في سكيك مطرح الخالية عند الظهر، والشمس تكاد تحرق يافوخي، لكني كنت أخشى إن عدت إلى خب السمن نمت وفاتني وصول سيارة حمدون، وربما وصول مريم، فصرت أتمشى من سكة إلى أخرى، أجلس في ظل جدار هنا وسقيفة هناك، حتى جاء العصر فمشيت صوب الموقف، وجلست أنتظر وصولها.

قرب غروب الشمس سمعت قرقعة البدفورد وهي تقترب مثيرة الغبار، فمشيت في اتجاه الموقف وبقيت أنتظر هناك، حتى رأيت مريم تهبط منها حاملة صرتها، فركضت من فوري إلى المسافر خانة وبلّغت صالح بن سيف عن وصولها، ودعوت الله أن يهدي مريم فتعطي الرجل الحرز ولا أضطر أنا إلى سرقته.

بعد أذان المغرب ذهب صالح إلى بيت مريم في حارة الشمال ومشيت أنا وراءه على مبعدة، وبقيت أنتظره في مكان اتفقنا عليه عند البحر، فإما أن يعود بالحرز ويمضي كل منا في حال سبيله، وإما أن يكمل هو طريقه إلى المسافر خانة، وأبقى أنا عند البحر حتى تنام مطرح، فأتسلل إلى حارة الشمال، وأسرق الحرز، أسلمه لصالح ثم أعود إلى خب السمن فأنام حتى الصباح.

خرج صالح مسرعًا من سكة بيت مريم دلشاد وهو

مكتبة ياسمين

يحمل سراجه، الذي لوح به فذهبت إليه، قال لا فائدة وأمرني أن أقتحم البيت.

حمل صالح سراجه وتركني وحدي لظلمة البحر ونفسي، فجلست لا أعرف ماذا أفعل، أفكر في مريم وحسن لبن وفاطمة لولاه، ثم من أين سأقتحم البيت وكيف سأعرف أين تضع مريم حرزها؟

وأنا جالس في مكاني خطر في بالي أن مريم تفرش على السطح وتبات هناك كحال كل أهل مطرح في هذا القيظ، وأنها ستتخفف، كما كانت تفعل أمي، من ثيابها وحرزها قبل أن تنام وتتركه في الصفة. لا بد أن تتركه في الصفة، ربما تضعه على رف الروزنة أو تعلقه بالوتد، لا أعرف، لكن أكيد أني سأجده في مكان ما داخل صفتها، ولو اضطررت إلى نبش سحارتها.

نامت مطرح، وهب الغربي فكأن بابا من أبواب الجحيم قد فتح، مشيت صوب حارة الشمال، التصقت بجدران البيوت حتى وصلت إلى باب بيت مريم، ثم درت حول البيت وعندما صرت في ظهره قفزت وهبطت على أرض الحوش.

كمنت في مكاني فتراءت أركان البيت كالأطياف، حاولت تذكر مكان الصفة والليوان والموقد والكنيف ثم قمت متلمسًا الجدران، لكني تعثرت بصفرية، فعرفت أني عند الموقد، وعرفت أنه علي أن أمشي إلى الأمام كي أصل إلى الليوان.

أصخت السمع فلم يصلني إلا نباح الكلاب ومواء القطط، مشيت محاذرًا أن تتعثر إحدى قدمي بأي شيء على الأرض فتسمع فاطمة أو مريم الجلبة فتنتبهان.

وصلت عند عتبة الليوان فعرفت أن علي أن أمشي خمس خطوات أو ست لا أكثر، حتى أصل عند باب

مكتبة ياسمين

الصفة، وما كدت أرفع قدمي لأخطو حتى حطت يد على كتفي، فتيبست في مكاني.

سمعت ضحكة فرح: «مراد، جيت؟ تعال، بيا، أنا اليوم طابخة بابلوة، ومريم جابت لك من السيب لمبا وسفرجل».

أمسكت فاطمة لولاه بيدي وصارت تجرني خلفها، وأنا مذعن لها حتى لا تصرخ وتفضحني.

جلست فجلست إلى جانبها، ثم اقتربت ومسحت على وجهي بيديها الخشنتين، ثم فجأة رأيت لمعة عينيها في الظلام: «مراد... أنت مراد؟ أنت ما مراد؟ من أنت؟»

نهضت من مكاني مسرعًا أريد الهرب، حاولت أن أصل إلى الباب إلا أنها أمسكت بيدي وجذبتني بقوة، وعندما استدرت لمواجهتها أنشبت أظافرها في وجهي، ثار الألم في وجهي فدفعتها، فأفلتتني ثم سمعت صوت ارتطامها بعتبة الليوان.

انتظرت أن تقوم ثانية وتهجم عليّ لكنها ظلت نائمة، خطوت نحو الباب خطوتين ثم نظرت ورائي، هل تأذت؟ لا أعرف، أردت أن أعود فأطمئن عليها لكني خفت أن تقبض عليّ وتصرخ، فمشيت بحذر إلى الباب وحاولت فتحه.

خلفي سمعت خطوات تهبط الدرج، وصوت مريم «فاطمة، فاطمة الله يهديش الناس نايمة وأنت تصرخي مراد ومراد، ما شي مراد التو فاطمة». جمدت في مكاني، شعرت باقتراب مريم فالتصقت بالباب، «مراد بيجي الصبح، الله يهديش أنا تعبانة وأريد أنام، تعالي خلا نطلع ننام».

«ليش نايمة هنا فاطمة؟»، ثم صرخت: «فاطمة قومي. يا الله... ياخودا... دم... وا ويلي دم.. كيف طحتي؟ قومي فاطمة... قومي».

مكتبة ياسمين

وقفت تحاول أن ترفع فاطمة، ثم فجأة نظرت ناحيتي وكأنها أحست بوجودي عند الباب، بقيت ملتصقًا به ومغمضًا عينيّ، وكأني إن لم أرها لن تراني، لكنها رأتني، شعرت بها تقترب، وتقبض على قفاي، فاستدرت وما إن فتحت عيني حتى وجدتها تنظر في عيني.

عرفتني، شهقت وشهقت، تجمدت أنا وتجمدت هي، كل منا ينظر إلى عين الاخر غير مصدّق، ثم انطلقت صرختها: «غيثونا... يا ناس غيثونا... لص... لص قاحم علينا البيت...لص».

ركضت صوب الدرج محاولًا تسلقه والقفز من سلالمه إلى الخارج، لكن رجلي دخلت في بطن الصفرية فتزحلقت وسقطت على ظهري.

حاولت أن أقوم لكن أهل حارة الشمال، كانوا قد ملؤوا البيت وأحاطوا بي بسرجانهم ومشاعلهم، حينها فقط رأيت مريم منحنية على فاطمة وسمعتها تعوي كالذئاب.

مكتبة ياسمين

دلشاد

نعرف العيد من نقعة المدفع والتكبيرات التي تصلنا في السجن كهمهمات تسري من مسجد الخور عند قلعة الميراني. كم عيدًا مر عليّ هنا؟ كم سنة؟ ثمانٍ أم تسع سنوات، أو ربما عشر، لا أعرف، فمذ نقلت من زنزانة الشيوخ توقفت عن نقش أنياب الأيام على الجدران.

بعد العيد الكبير ألقي في زنزانتنا بسجين جديد، دفعه العسكري فسقط على وجهه متعثرًا بقيوده، ثم شتمه كما لم نسمعه يشتم أحدًا من قبل وأغلق باب الزنزانة خلفه.

لم يتحرك أي منا من مكانه، حتى رفع الرجل رأسه فما رأينا إلا وجهًا متورمًا تغطيه الكدمات والجروح. زحف مبتعدًا عنا حتى وصل إلى الجدار وأسند ظهره إليه، بعد قليل مال في جلسته حتى سقط على الأرض وبقي هناك بلا حركة.

ظننته مات، فحبوت نحوه، رفعت رأسه ولطمته فأنّ بصوت عالٍ، ناولني سالم بن هلال لص الشياه جدوية الماء فأسندت رأسه إلى صدري وسقيته منها، لكنه ما فتح عينيه.

في غشيته كان يهمس بكلام لا يفهم:

هاستيأبنيهبابكيسيهي

آينماشكيسيهي.

تداخلت الكلمات بين شفتيه وهو يقطعها بالأنين، فلا تعرف بأي لغة يرطن، لا ليس بالبلوشية ولا العربية. قربت أذني من فمه، حاولت تبين لغة الرجل، لكني ما فهمت كلمة مما يقول.

اقترب الرجال منا، سأله سالم بن هلال: «مو اسمك، من هين أنت؟ مو تهمتك، من ضربك؟»

مكتبة ياسمين

والرجل لا يجيب.

وقف خميس لكيه عند باب الزنزانة وصرخ مناديًا السجان ليسأله عن الرجل لكن السجان ما رد عليه.

قطعت خرقة من إزاري وبللتها بالماء ومسحت وجهه وعينيه المتورمتين، حاول أن يفتح عينيه فما استطاع، لكن شفتيه المشقوقتين تحركتا بذاك الكلام مرة أخرى:

كاشميأيدلكولإزبهي أألم بار

يأنيكيأوكاتكهاب كي سي هي.

وضعت رأسه على الأرض وتركته لينام، أغمض عينيه وبدا أنه ذهب في النوم لكن أنينه لم يتوقف.

أحضِر الطعام، فرفعت رأسه ثانية ووضعته على صدري، وصرت أدفع اللقم في فمه لكنه كان يرفضها. أيامًا بقي على حاله تلك، يقبل الماء ولا يأكل، ويوقظنا على صراخ كوابيسه، ثم بعد أيام بدأ يأكل لقيمات صغيرة أضعها في فمه فيبلعها من دون أن يعمل أسنانه فيها.

خارج الزنزانة عرفنا أن الرجل اسمه شنون وأنه قتل امرأة، فزاد فضول المساجين، قال سليمان بو صنة: «لا تأكله ولا تشربه... خليه يموت.. تراه كذا ولا كذا بيقتل».

مرت أيام كثيرة قبل أن يستطيع فتح عينيه بالكامل ويلتئم الشق في شفته ويعتدل في جلسته ويأكل ويشرب من دون حاجة إلي، فتركته وعدت إلى مكاني تحت كوة الضوء الوحيدة في الزنزانة.

سأله سالم بن هلال عن تهمته فلم يجب: «سمعنا أنك قتلت حرمة..»، فنظر إلى وجوهنا ولم يجب، لكن من نظرة عينيه عرفنا.

حوقل سالم بن هلال وخبط سليمان بو صنة كفًا

مكتبة ياسمين

بكف، وبصق شيروك على يساره وكأنه يستعيذ من الشيطان، أما أنا فقمت وأدرت ظهري لهم، ورفعت جسمي على أطراف أصابعي، حتى أصل إلى الكوة، علّي أنال بعض الهواء.

«يقتل الرجال رجال كماهم، أما الحريم فيأدبن بالضرب»، قال سليمان بو صنة: «من قتلت؟ حرمتك؟ أختك؟ بنتك؟»، هز المسجون رأسه نافيًا وردد: «حرمة...حرمة».

«تعرضت حال حرمة ويوم ما طاوعتك قتلتها، صح يا النجس؟» سأله سالم بن هلال، هز رأسه نافيًا ثم انهمرت دموعه، لكنه لم ينطق.

بعد مدة تسرب إلينا حديث السجانين والعسكر، وفهمنا أنه اقتحم بيتًا بقصد السرقة، لكن المرأة اعترضته فدفع بها وسقطت فارتطم رأسها بالأرض وماتت في لحظتها.

«طلع لص كمانا...»، «مسكين ظلمناه»، «يقولك ما كانت نيته يقتلها»، «يقولوا الحرمة مجنونة.. شافته وهجمت عليه».

قالوا كلامًا كثيرًا لكنه لم يقل شيئًا غير ما يردده من كلام متداخل، هل نسي الرجل نفسه وما حدث معه مثلي؟

اقتربت منه وسألته عن الكلام الذي كان يردده في نومه، هز رأسه ثم سالت دموعه وأخبرني عن الرجل الذي علمه الكلام. سألته عن معناه، فقال إنه سأل الرجل عن معناه فقال له ستعرفه، ستجده هنا وأشار إلى صدره. أخبرني بأنه سأل كثيرين لكن أحدًا لم يفده، «يعرفوا الأوردية لكن ما حد يعرف معنى الكلام».

طلبت منه أن يعيدها علي، فأغمض عينيه وسال الكلام من فمه والدموع من عينيه.

مكتبة ياسمين

هاستي أبني هباب كي سي هي
آي نوما اش كي سي هي
كاشمي أي دل كول إز بهي أألم بار
يأني كي أوكات كهاب كي سي هي ٢.

عندما ردد الكلام ببطء شعرت كأني سمعته من قبل، تراءت أخيلة أمامي، فأغمضت عيني، ورأيت رجالًا بعضهم يلبس الدشاديش ويضعون على رؤوسهم الغتر، وبعضهم يلبس ملابس غريبة كثياب الهنود، أين كان هذا؟ من هم هؤلاء؟

كان هناك رجل في يده أداة يحتضنها ويلمس خيوطها فتهتز بين أصابعه، وكان الرجل يغني، يعلو صوته فوق صوت آلته ويقول مثلما يقول هذا المنحوس، لكنه كان يغنيه، وكان الكلام يخرج من فم المغني جميلًا.

«واه.. واه»، تخرج من أفواه الرجال مستحسنين وكأنهم يتأوهون، تأوهت أنا أيضًا، لكن آهتي خرجت من بطني ووصلت إلى صدري ثم انفجرت، وأنا لا أعرف إن كان الذي انفجر حزني على شنون أم على الأشياء التي تتراءى لي في نومي وصحوي ولا أستطيع القبض عليها.

سألني شنون بلهفة إن كنت أعرف المعنى، فقلت نعم أعرفه، وأنا لا أعرف إن كنت أعرف، لكني طلبت منه أن يحكي لنا حكايته قبل أن أخبره بالمعنى الذي استقر في قلبي، تردد قليلًا ثم وافق.

اقترب الرجل منا، فأخبرنا بقصته وبقصة الرجل الذي أغراه بسرقة الحرز.

«الحرز مال مريم دلشاد لكن أنت قتلت فاطمة لولاه؟»، «تقول الحرمة مجنونة وكانت تحسبك زوجها الميت؟». «من اسم الحرمة راعية الحرز؟»

مكتبة ياسمين

سأل شيروك «مريم دلشاد، حرمة طيبة، كان زوجها رجال معروف في مسقط اسمه عبد اللطيف لوماه». «عبد اللطيف لوماه التاجر إللي احترق في الباخرة؟ سأل سالم بن هلال. «مريم دلشاد بنت دلشاد أخو عيسى من لوغان؟»، سأل خميس لكيه.

رددت «مريم دلشاد»، أكثر من مرة، فسألوني إن كنت أعرفها، فتمهلت قليلًا ثم قلت لا، من أين لي أن أعرفها وأنا لا أعرف نفسي، لكن الاسم بقي يرن في أذني.

تلك الليلة حلمت بصبية لها ضفيرة طويلة تصل إلى قدميها، تركض على حصى الوادي فتتطوح ضفيرتها وراء ظهرها، ثم تمسكها وتدليها أمامها وتنظر صوبي وتضحك فأضحك.

في الصباح التالي طلبت منه أن يخبرني أكثر عن مريم دلشاد، من تكون؟ فأخبرني عن المهمة التي أوكلتها إليه ليبحث عن أبيها.

سألته عن شكلها، لكنه لم يعرف كيف يصفها، قال: «حرمة طيبة، أكّلتني ولفَتني وأنا قحمت بيتها وقتلت فاطمة لولاه... بس والله العظيم ما بغيت أقتل حد، طول عمري أسرق بس في حياتي ما مديت يدي على حد ولا رفعت سكين، كيف أقتل فاطمة أم حسن؟... أنا بس فزعت من عيونها وظفرانها ناشبة في وجهي.. دفرتها بس.. بس دفرتها»، وبكى.

لم يتوقف شنون عن البكاء حتى نهره خميس لكيه، أما أنا فرأيت مريم دلشاد في نومي، كانت تشبه المرأة النائمة في القبر، إلا أنها كانت تركض وتضحك وكانت تنادي أباها: «باه... دلشاد..»، وكان دلشاد أعمى يتلمس دربه.

من يكون دلشاد؟ هل عرفته في زمن مضى؟ هل

مكتبة ياسمين

أنا عيسى الذي حمل الرجل في ذلك الحلم، أم أني دلشاد المحمول؟ أم أني لا أحد، لكني أجتهد حتى أجد لي اسمًا وصفة.

ما استطعت مقاومة فضولي، فسألت شنون وألححت عليه في التفاصيل، ما كان يهمني من قتل وكيف قتل، هذه حكاية سمعتها مئة مرة. كان همي مريم، فسألته عن عمرها، عن وجهها وكفيها، عن حكايتها وزوجها وعن أبيها الذي ضيعته.

هاستي أبني هباب كي سي هي
آي نوما اش كي سي هي
كاشمي أي دل كول إز بهي أألم بار
يأني كي أوكات كهاب كي سي هي

لا أعرف الأوردية، لكني كنت أعرف معنى الكلام، ولا أعرف كيف أعرفه، لكن كيف أقول له إن الكلام الذي يردده منذ أن وصل لا يعني إلا أن الدنيا كالحلم، وما نحن إلا صور، كالتي نراها في المنام، تعبر ولا نقبض منها شيئًا.

أأخبره أم أسكت؟ فمن يريد أن يعرف قبل أن يموت أن حياته مثل خيط دخان، مثل حياتي، بلا معنى.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

كان الحر شديدًا ليلتها، والهواء ثقيل وحار كأنه يهب من بطن تنور، فرفعت فاطمة دلو ماء إلى السطح كي نبلل به ثيابنا قبل أن ننام، بعد ساعات جفت ثيابي فوقي، أيقظني الحر فقمت لأسكب مزيدًا من الماء عليّ.

انتبهت أن فاطمة ليست في فراشها، ثم سمعت صوتها يأتي من أسفل، كانت تهمهم بشيء ما، فعرفت أنها هبطت تلاحق مراد كعادتها، لم أكترث في البداية، لكن بدا لي أن صوتها ارتفع أكثر مما اعتادت عليه، خفت أن يتحول صوتها إلى صراخ فتوقظ الجيران، فهبطت لأطرد شبح مراد وأعيدها إلى فراشها.

نزلت الدرج مستأنسة بضوء القمر الذي كان في تاسع لياليه، وقبل أن أصل السلمة الثالثة سمعت صوت ارتطام، فأسرعت في نزولي، ومضيت إلى حيث جاء الصوت، فتعثرت حتى كدت أسقط، لكني تمالكت نفسي وانحنيت أفحص ما تعثرت به فوجدت فاطمة مستلقية هناك، هل نامت هنا؟ أم تراها تعثرت بشيء ما وسقطت.

انحنيت عليها وهززتها علّها تستيقظ، داخلني الخوف من جمودها، لكني بقيت أهزها ثم قرصتها، لكنها لم تستيقظ.

جلست عندها ورفعت رأسها ووضعته في حجري، فشعرت ببلل يتسرب إلى ثوبي، لمست رأسها من الخلف، فشعرت بلزوجة الدم في أصابعي، أردت أن أصرخ بها، يا ويلي يا فاطمة، كيف تعثرتي وشججتي رأسك هكذا؟

قربت وجهي من أنفها، لا نفس يخرج منه، أمسكت

مكتبة ياسمين

بثيابها وهززتها علّها تستفيق وتكذب خاطري، لكن بلا فائدة، هل ماتت فاطمة؟ أيعقل أن تموت هكذا، تتعثر بشيء ما فتسقط وتموت، ما الذي تعثرت به؟ بحثت بعيني في أرجاء المكان، كان ضوء القمر ينعكس من الجدران فينير أرض الحوش، لا شيء إلا صفرية ملقاة قرب الموقد.

سمعت حركة صوب الباب فالتفت ناحيته، شعرت بوجود أحد ما، مراد؟ هل كان مراد يزورها فعلًا؟ هل كانت العاقلة ونحن المجانين؟ لا يعقل أن يكون مراد.. لا... لا يعقل.. يا رب العقول احفظ لي عقلي.

استعذت بالله من الشيطان الرجيم، هل مراد من آذاها، أم آذتها لهفتها عليه؟ هذا قول مجانين لا عقّال يا مريم، فكيف يعود الموتى ليأخذوا الأحياء إليهم.

وضعت رأسها على الأرض ثم مشيت صوب الباب بحذر، تنكشف حواف الباب لكن بطنه مظلم، اقتربت أكثر فرأيته، جسدًا ملتصقًا بالباب، إنسي أم جني؟ داخلني الخوف وأردت أن أعود إلى عند الموقد وأبحث عن السكين، لكن خفت أن يستغل غفلتي ويهرب، امتدت يدي وقبضت عليه بقفاه فاستدار وعرفت الوجه، عينان هلعتان وفم مرتجف.

كان هو، ابن الحرام الذي قربته وأدخلته بيتي وأطعمته فاطمة من نفس الصحن مع حسن لبن.

صرخت مستغيثة «وا ويلي لحقوني اللص قحم بيتي، اللص قتل فاطمة».

حاول أن يفتح الباب ويهرب لكني وبقوة لا أعرف من أين أتتني أمسكت بقفا دشداشته وأكملت صراخي، أفلت من يدي وحاول الهرب صوب الدرج، لكنه تعثر بالصفرية الملقاة قرب الموقد فوقع واستلقى على ظهره من دون حركة.

مكتبة ياسمين

استيقظ أهل الحارة على صراخي، ثم تدافعوا رجالًا ونساء ووجدوني هناك، وقد وضعت رأس فاطمة في حضني، وابن الحرام ملقًى على ظهره يئن.

أخبرتني النساء بأنهم قادوه إلى الوالي وأن العسكر نكسوه من عقبيه وضربوه بالخيزران، فأخبرهم عن الرجل الذي وسوس له. قال له إنه كان سيستعير الحرز ثم يعيده إليّ، لكن الرجل اختفى ولم يجده عسكر الوالي لا في المسافر خانة ولا في أي مكان في مطرح.

سألوه لماذا قتل فاطمة؟ فحلف إنه دفعها قاصدًا التخلص من أظافرها التي أنشبتها في وجهه لا قتلها.

كيف حدث هذا يا عبد اللطيف؟ ألم تقل إن الحرز سيحميني ويغنيني، فما باله جعل اللص يتسلل إلى بيتي ويقتل فاطمة!

خرج حسن لبن من المستشفى ليدفن أمه مع الرجال، ثم بعد انقضاء أيام العزاء جاءني متكئًا على عكاز تحت إبطه، سألني عن الرجل الذي كان مع شنون فأخبرته بحكاية الرجل والصك الذي يدعي أنه في بيت الحرز.

- بيبي، أنت ما سرتي عند الصايغ تتأكدي؟

- عبد اللطيف قال هذا حرز حماية وما قال شيئًا عن الصك.

- يمكن نسي.. أنت ليش ما تأكدتي؟ ليش ما سرتي عند الصايغ؟

- كنت ناوية.. بس تأخرت.. قلت الصبح بروح... لكن الصبح ما طلع.

أردت أن أخفف اللوم في صوته، فقمت وتناولت

مكتبة ياسمين

خبزًا فتتثه في صحن وسكبت اللبن عليه، أدنيت إليه الصحن، لكنه صد بوجهه.

قلت له إني كنت أنتظره أن يشفى فنذهب إلى الصائغ معًا لنتأكد أن الرجل كاذب وأن بيت الحرز خالٍ، فقام من فوره متعكزًا على عصاه ووقف عند الباب.

شعرت بغضبه أكثر من لومه، فطاوعته ولبست عباءتي ومشيت معه صوب السوق.

طلبت من الصايغ أن يفتح بيت الحرز ويخرج ما في داخله إن كان في داخله شيء، ففتح بابه بأداة تشبه السكين طرق طرفها عند موضع اللحام ففتحه، صار قلبي في حلقي وأنا أراه يدخل الملقط في بطن الصندوق ويخرج منه الورقة تلو الأخرى، كثير من القراطيس المطوية تناثرت على طاولته، فجمعها وناولني إياها، تبادلت وحسن النظر فوجدت غضبه قد صار دهشة وتحولت الدهشة إلى غضب في قلبي، فتناولتها من يد الصايغ ووضعتها في جيب ثوبي، ثم فززت وخرجت من دكان الصايغ مسرعة وكأن سرب دبابير يلحق بي، ناسية أن أنقده أجرته أو حتى شكره.

مضيت إلى بيت الماستر علي وحسن يتبعني متعكزًا، أدخلتنا بتول على الماستر الذي كان جالسًا للقراءة في غرفة الدرس، ووضعت تلك القراطيس أمامه.

نظر الماستر علي إليّ باستغراب ثم تناول القرطاسة الأولى ففردها. خلع نظارته ونظف زجاجها ثم أعادها فوق أنفه، ثم فرد قرطاسة ثانية وثالثة، تبادلت وحسن النظر في استغراب. سألته إن كانت ضواحي الغليون مذكورة في تلك القراطيس، ففردها أمامي، الواحدة تلو الأخرى، قراطيس سال

مكتبة ياسمين

فوقها الحبر فتداخل.

«ما نجا غير ختم عبد اللطيف، أما ما كتب فيها فأثر.. لا يقرأ.. ما أعرف الحبر اللي كتب به، لكن الكتابة كلها امتحت».

جمعتها ووضعتها ثانية داخل بيت الحرز.

مشيت فتبعني حسن يتوكأ على عكازه، ثم تجاوزني ومشى أمامي صوب البحر فتبعته وجلسنا قرب الماء لا نتكلم.

مكتبة ياسمين

بعد ستة أشهر انقطع دمي ثانية، فأرسلت عنبور لتحضر الداية حتى أتأكد، وبعد أن تأكدت طلبت من ناصر أن يرسل إلى أمي مرة أخرى: «فريدة حامل»، ستفهم أمي ما حدث بين البرقيتين، وستطمئن.

لا أعرف إن كانت أمي اطمأنت، لكني بعد أن وضعت طفلي، طلبت من ناصر الدفتر الذي يكتب فيه الرسائل وقلمًا، وكتبت لها لأخبرها عن التوأم الذي عوضني الله بهما، أخبرتها بأني سميتهما قيس وليلى.

لم أخبر أمي بأنهما تخلقا من الشوق، خجلت أن أقول ذلك، لكني أخبرتها بأنهما لا يكفان عن البكاء، وأن أم سالم تعالجهما بالمسح على بطنيهما، وبجرعات من شراب «الغريب» فيدوخهما وينامان.

أخبرتها بأن قيس يشبه أباه، وأن ليلى تحب الحليب أكثر من أخيها، ولم أخبرها عن وجع الولادة ولا الصرخات التي كتمتها في داخلي كي تتحول قوة تزفرهما خارج رحمي، فهي بالتأكيد تعرف، كل النساء يعرفن.

أخبرتها عن رعاية خالتي أم سالم لي، عن ما تعده لي من الحسو والقروص، وتحرجت أن أكتب إليها أنها صارت لي من بعد الأم أمًا، ربما سيطمئنها ذلك لكنه بالتأكيد كان سيجرحها.

أخبرتها في الرسالة التي جعلتها قصيرة قدر المستطاع عن عنبور التي لا تفارقني، لكني لم أخبرها عن الرباط الذي تربط به بطني وتشده حتى أتأوه من الألم، لتعيد بطني إلى حالته قبل الحمل.

هذه أشياء لا تكتب في الرسائل.

لم أقل كل الكلام الذي في قلبي، ولو أنني قلت

مكتبة ياسمين

لأخبرتها بأني أتمنى لو أنها كانت هنا، ولعاتبتها طويلًا لأنها تركتني وحيدة.

سألني من سيقرأ الرسالة لأمك، فكرت في أن عدد الذين يعرفون القراءة في مطرح قليل وعدد الذين تعرفهم أمي منهم أقل، فلا أظن أنها ستلجأ إلى أحد غير الماستر علي أو بتول.

لماذا لم أصر على أمي كي تتعلم القراءة كما علمت البنات؟ أما كان هذا ليعفينا من هذا السؤال وهذا التردد، ولو أني علمتها الكتابة كما علمني الماستر علي، أما كانت كاتبتني أو على الأقل عرفت كيف تقيد ما لها وما عليها في دفتر الدكان.

سألتها أن تطمئني عليها وعلى فاطمة، ولم أسألها إن كان عقلها قد عاد أم أنها ما زالت تنتظر مراد؟ سألتها عن حسن وحماره، عن الماستر علي وبتول وعن أهل مطرح، وطلبت منها أن تبلغ الجميع سلامي.

ثم سلمت الرسالة لناصر الذي وضعها في ظرف وأرسلها مع رجل عائد إلى مسقط.

انسحبت أم سالم وعنبور إلى أشغالهما بعد الأربعين، وبقيت أنا والطفلان، ينام أحدهما فيستيقظ الآخر، يتعالى بكاؤهما في تناوب وأحيانًا يبكيان معًا فكنت أشعر بقلة حيلتي وأبكي معهما.

بعد أن كبرا قليلًا، فهمت حاجتهما وحتى معنى بكائهما، فصرت أقوم لعمل بيتي وأتركهما يبكيان، ثم أعاودهما فأغير كفولة قيس وأرضع ليلى.

شغلاني حتى شعرت بأني نسيت القراءة، لكن ما إن تجاوزا شهورهما الأولى وانتظم نومهما، حتى عرفت كيف أدبر نفسي وأقسم وقتي بين أشغال بيتي الكثيرة.

مكتبة ياسمين

يتركنا ناصر طوال الوقت، يغادر الشركة ويذهب إلى المدرسة ولا يعود إلا متأخرًا، فيحاول أن يساعدني فيهما بينما أنشغل أنا بغسل ثيابهما أو لملمتها من الحبل.

يمازحني آخر الليل يقول تعالي أعلمك مما تعلمته في المدرسة اليوم، لكن لا طاقة لي لا به ولا بعلمه.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

لم أكترث أول الأمر عندما لم تغد أي امرأة من حارات مطرح تطرق بابي، ولا لاعتذار جاراتي عن قهوة العصر في بيتي، لكن بعد تكرر الأمر فهمت أن فعلة شنون لم تعد فعلته وحده، وكأني عندما أشفقت عليه وشغلته أجيرًا عندي وأدخلته بيتي ليأكل كما يفعل حسن، طالني من الإثم ما طاله.

حاولت تجاهل هذا الخاطر، لكن عندما عدت إلى السوق وفتحت دكاني وجلست أبيع وأشتري فيه، وجدت التهمة في عيون الرجال أوضح.

في اليوم الأول جاء رجل من دارسيت واشترى لأهله بعض الأقمشة، ثم جاء تاجر من مسقط وحمل على حماره طاقتي بوبلين وطاقة كيمري، ثم لم يعد أحد يقترب من دكاني، وانقضى النهار الثاني والذي يليه من دون أن أبيع حتى خرقة واحدة.

عدت إلى بيتي وأغلقت الباب ورائي ثم خلعت عباءتي في الليوان بغضب وألقيت بها غير مكترثة أن يصيبها تراب أو ماء، ودخلت صفتي، لأجدها مظلمة، تتضاعف في رطوبتها روائح النوم والبخور.

فتحت النوافذ المطلة على الليوان حتى يدخل الهواء، ثم فتحت سحارة أبي وأخرجت قراطيس عبد اللطيف الفارغة، بسطتها الواحدة تلو الأخرى، قراطيس خالية إلا من بقايا الحبر وختم عبد اللطيف.

قُتلت فاطمة من أجل كتابة محاها الوقت.

أخرجت من سحارة أبي الثياب وطيات الأقمشة، نفضتها وبسطتها أمامي. قمصان وسراويل لفتاة في العاشرة، قطع ساري من حرير بنارس، باذنجاني وأحمر وأخضر، اخترت الأحمر، مثل الذي تلبسه

مكتبة ياسمين

الهنديات عندما يذهبن للتعبد عند الصنم، بسطته أمامي، تلمست قماش الحرير الثقيل وخيوط الذهب التي نسجت في رسمات دقيقة عليه.

أخرجت الأساور، نثرتها على الحرير، أساور صغيرة، تناسب رسغ مريم التي تركها وهرب من جوعها.

قمت فتناولت القماش، بسطته على طوله ثم لففته حول خصري، كما تفعل الهنديات، لفة وراء لفة، ثم ألقيت ما تبقى منه على كتفي، خلعت الحرز وأحضرت خيطًا أسود قلدته وجعلته وسط الأساور الصغيرة حتى صارت مثل العقد، فوضعته حول رقبتي.

وقفت أمام المرآة أصفف الزجاج على نحري، وأرى انعكاس ألوانه على وجهي، ثم حللت شعري من كبته، مشطته بأصابعي وضفرته.

صرت أدور أمام المرآة كما كنت أدور وأنا ألعب في بطن الوادي، فتدور معي ألوان الزجاج، يشعشعها الضوء فتنعكس على الجدران، أحمر أخضر أصفر، يعجبني ذلك فأدور بسرعة أكبر.

«مريم كبرت يا دلشاد.. مريم كبرت وحدها».

ترتفع حاشية الساري قليلًا فأرى قدمي، أنتبه إلى أن لي قدمين كبيرتين لم أستطِع أن أوقفهما عن الحركة، ظلتا تدوران في مكانهما فيدور جسدي معهما، وتدور الألوان والجدران من حولي، وتدور مطرح والوجوه التي عرفتها فيها، درت ودرت ودرت حتى انفكت طيات البنارس فسقط عند قدمي وسقطت عنده.

مددت رجلي لأستريح مستندة إلى الجدار، هدأت أنفاسي ثم وقعت عيني على أصابع قدمي التي خرجت من القماش، فسحبت القماش وبقيت مدة

مكتبة ياسمين

أنظر إليهما.

قدمان كبيرتان، أكبر من قدمي أي امرأة عرفتها، أكبر من قدمي فردوس وفريدة وما مويزي وفاطمة وبدور بنت بدر، قدمان كبيرتان يقوم عليهما جسد نحيل مثل جسدي، قدمان كبيرتان لا أعرف كيف لم يعايرني بهما أحد.

وما إن خطر لي ذلك حتى شعرت بالضحكة تبدأ مثل لية في بطني، ثم تتصاعد إلى صدري وتنفجر، ما حاولت أن أحبسها كما كنت أفعل، بل تركتها ترتد من جدران الصفة حتى تلاشت.

سمعت طرقًا على الباب فقمت إلى المرآة أمسح العرق والدموع والضحك من وجهي، وجمعت الساري ووضعته فوق السحارة، وأعدت وضع لحافي على رأسي.

كان الماستر علي يقف عند الباب، فأخبرني بأن رجلًا اسمه علي إلياس جاء لزيارته وأنه جلب معه رسالة كُتب اسمي على وجه غلافها، ناولني الرسالة

«اقرب.. ادخل ماستر علي... من بيقرأ الرسالة لمريم غيرك؟».

وأنا أضع القهوة على الموقد خطر لي أنه ما وصلني من ناصر من قبل غير البرقيات: «وصلنا»، «فريدة حامل»، ففرحت ثم مرة أخرى «فريدة حامل»، فعرفت أنها سقّطت حملها وأنها حملت مرة أخرى، فبقيت شهورًا أعد أيام حملها حتى صار ما صار وأنساني مقتل فاطمة كل شيء.

أحضرت القهوة وصحن الرطب، صببت له فنجانًا ثم مددت إليه يدي بالرسالة، فنظف نظارته وتنحنح ثم بدأ يقرأ. يقول إن الله رزقهما طفلين، بنتًا وولدًا، قيس وليلى. سمتهما فريدة على المجانين، لماذا لم تسمهما على اسمي واسم أبيها؟ مريم وعبد اللطيف،

مكتبة ياسمين

هل المجانين أقرب إليك منا يا فريدة!

تقول إنها بخير وإن أم سالم وعنبور تعتنيان بها. أتعرف أم سالم وعنبور كيف تعتنيان بفريدة؟ أتعرفان كيف تعدان قروص العسل والثوم فتنظف رحمها؟ أتعدان لها سخانة الحلبة وشربة الدجاج بالفلفل الأسود والقرفة فتستعيد قوتها؟ أتغليان لها الحلبة فيكثر حليبها؟ أتعرف نساء الدوحة ما تعرفه نساء مسقط؟ لكن ربما كانت النساء في كل مكان تعرف ما تعرفه النساء.

سمتهما قيس وليلى إذًا!

سألت ماستر علي إن كان في إمكانه أن يرسل مع علي إلياس رسالة إلى الدوحة، يخبر فيها فريدة بأني سأخرج صدقة شكر لله، وأني أشتاقها وأتمنى تقبيل أصابع طفليها وضمهما إلى صدري. لم أخبره بأن يسألها لماذا لم تسمِ طفليها باسمي واسم عبد اللطيف، سأترك هذا العتاب حتى تعود، يعلم الله وحده متى تعود.

قلت له ألا يخبرها عن فاطمة، بل أن يقول لها إننا بخير وإن أحوال الدكان جيدة، وأن يسألها متى ستعود؟ ثم طلبت منه أن يخبرها بأن ترسل إليّ رسائل أكثر.

لففت زجاجتي عسل وسمن قشدته بيدي في طبقات من القماش حتى لا تتكسرا، وطلبت منه أن يسلمهما لعلي إلياس، علّه يجد من يسافر بهما إلى الدوحة قريبًا.

يوم الجمعة التي تلت زرت قبر فاطمة، أخذت معي الحلوى ووزعتها صدقة على الفقراء، وضعت على قبرها أعواد الريحان الذي زرعته في حوش الدار، وأخبرتها عن رسالة فريدة، عن طفليها، قيس وليلى، بدا لي أن فاطمة غنت لهما في قبرها، وربما

مكتبة ياسمين

تساءلت لماذا لم تسمِّ فريدة طفليها فاطمة ومراد بدلًا من أسماء ناس لم تعرفهم وما شهدت عشقهم إلا في القراطيس؟

فتحت دكاني وأخرجت طاقات الأقمشة من الأركان وتركتها تتهوى على الأرض، ثم أعدتها إلى أماكنها، لم تعد هناك أعياد قريبة، لكن محرم كان على بعد أيام، وستلبس مطرح السواد، فصففت كل الألوان في الخلف وأخرجت الأسود وجعلته في الواجهة فزاد البيع.

نشطت الحسينيات والمآتم، فلبست الأسود وحضرت المآتم وعاشوراء مع النساء وخبطت على صدري وركبتي بقوة، بكيت كثيرًا رغم أني لم أعرف كثيرًا مما تقوله المرأة، بيد أني كنت أشعر بألمها، ألم الرباب على ابنها عبدالله الرضيع وما فتئت أنوح كما ناحت بقية النساء.

مكتبة ياسمين

ناصر بن صالح

تشبه حدبة جبل فهود إلى حد كبير حدبة جبل دخان، وكان هذا كافيًا بالنسبة إلى فريق المساحين في الدقم والإداريين في مكتب الدوحة ليتبادلوا التهاني مستبشرين بوجود مكامن النفط في المنطقة قربه.

كان الفريق في الدوحة يتتبع خطوات الحفر في فهود، وعندما أُعلن أن عملية الحفر الأولى كانت فاشلة، ازدادت وتيرة المراسلات بين المكتب في الدوحة ولندن ومسقط، لمناقشة الخطوة القادمة، لكن اليأس لم يكن قد تسرب إلى النفوس بعد، إلا أنه كاد أن يسيطر بعد تكرار المحاولة وإعلان فهود بئرًا فاشلة.

انتقل المهندسون والمساحون والعمال إلى هيما، لكن لم تكن الحظوظ هناك أفضل من فهود، ومع ذلك أصر فريق العمل في الدوحة على أن قراءات المسح الجيولوجي تبشر بوجود مكامن للنفط في المنطقة، فأرسلت الشركة رأس حفر جديد ومعدات أكثر من الدوحة إلى الدقم على متن طائرة الـDC3.

بعد انتهاء الحرب في داخلية عمان وظاهرتها ووصول خبر السيطرة على الجبل الأخضر، قال الإنجليز إن أهم العقبات أمام طموحات الشركة قد أزيحت. صحيح أن الثمن كان باهظًا، إلا أنه كان ثمنًا لا بد من دفعه، هذا ما قاله وليم سكوت في اجتماع الفريق مطلع ذلك الأسبوع، وهذا ما نمّت عنه هزة رؤوس المديرين الذين كانوا يقفون معه أمام الخارطة وهو يضع إصبعه على أماكن لم يطأها أحد منهم.

مع ذلك ظلت مواقف مديري الشركة تتأرجح بين أمل ويأس، فعندما تصلنا تقارير ويقول المساحون

مكتبة ياسمين

والجيولوجيون فيها بأن كل العلامات على الأرض تدل على وجود النفط في المنطقة يعم جو من الاستبشار في المكتب، وعندما ترد أخبار انكسار رؤوس الحفارات يقولون إنها ليست إلا مغامرة تستنزف الوقت والمال.

ينقسمون في اجتماعاتهم، فريق يحاجج بالمال الذي أنفق وآخر يحاجج بزيادة العرض والطلب في سوق البترول وانخفاض أسعار البترول عالميًا. أسمع ما يدور في الاجتماعات، لكن أحدًا لا يسألني عن رأيي ولا أقول ما أفكر فيه لأحد، إلا أنني في داخلي كنت آمل أن يجدوا النفط في عمان بسرعة، وأن يفتحوا مكتبًا للشركة هناك، فنعود أنا وفريدة والصغار إلى بلادنا.

عندما عدت إلى مسقط وتزوجت وأتيت بفريدة إلى الدوحة كان ما زال الأمل في بئر فهود كبيرًا رغم صعوبات المرحلة الأولى، لكنه تبخر تدريجيًا، وعقب ولادة قيس وليلى أعلنت فهود بئرًا جافة. تكرر ذلك، أمل ثم خيبة ثم أمل ثم خيبة، حتى صرت أشعر من شدة التأرجح بين الرجاء واليأس بأني لن ألبث حتى أيأس.

شعرت كأني كنت متعلقًا بأمل بدأ يفلت من بين أصابعي لكني ما كنت أملك غيره، وإلا فأي بلاد سنعود إليها وبينها وبين العالم كل هذا البون، فحتى الدوحة التي لم تكن حالها أفضل من مسقط بكثير، انتعشت بعد النفط ودخلتها الكهرباء وظهرت على وجوه أهلها النعم.

طال مكوثنا في هذه البلاد ومع الأيام صارت عيني فريدة أكثر حزنًا وقلبها أكثر بعدًا، لكن كيف لي أن ألومها، وفي كل مرة أقول لها قربت عودتنا إلى البلاد أعود فأخبرها بفشل جديد. كل مرة أوسع

مكتبة ياسمين

عليها بيتنا الصغير بالأماني أعود فأضيقه شبرًا شبرًا.

أثقل على قلبي أني انتزعتها من أمها وبيتها، وما استطعت أن أقدم إليها حتى خادمة تعينها على شؤون البيت والطفلين، وهي بنت لوماه التي تربت وسط الخادمات وستبقى بنت لوماه وإن تغيرت الدنيا.

تُركت وحدها تخدم وتركض خلف العيال، حتى ما بقي لها وقت تقرأ فيه كما اعتادت، ولم تعد تبرز لي مخطوطاتها من أبيات الشعر التي تنتخبها، ومع أنها لم تتكلم كثيرًا عن أمها ولا عن مطرح شعرت بوحشة روحها كلما أوت إلى الفراش.

هل تراني أخطأت عندما شاركتها أحلامي وأطلعتها على ما يحدث في صحراء عمان؟ عن المكامن المحتملة والآبار المهجورة، عن التفجيرات في مستودعات الشركة في العذيبة والقنابل الموضوعة تحت فراش السيد أحمد بن إبراهيم وهو مسافر على متن السفينة دواركا إلى الهند.

كانت الأخبار تتوالى من عمان لكن لم يكن من بينها خبر سعيد، ينمي ولو قليلًا من الأمل في داخلنا، مع ذلك فالإنجليز رغم كل ما يُتداول والجو الحذر الذي يسود الاجتماعات كانوا شبه واثقين بوجود النفط، مُصرّين على إكمال مهمتهم، كأن فيها خلاصهم لا خلاصنا.

مكتبة ياسمين

نظام أحمد رسلان خير الله

توقف الحفر فأمرنا بالانتقال إلى موقع جديد، ذهبنا محمولين في اتجاه البحر، فمشت بنا الشاحنات ساعات طويلة. تسلطت الشمس على رؤوسنا في قيظ لا ينتهي، وعندما وصلنا إلى مكان في وسط الصحراء يسمى غابة، بدأنا في إقامة معسكر جديد.

بعد أشهر بدأ الحفر، كانت الحفارة تدك الأرض ليل نهار، وكان الإنجليز فرحين بداية الأمر، لكن الحفر استمر قرابة سنة، ثم توقف فجأة. هرعنا إلى الحفارة، فوجدنا المهندسين الإنجليز يعاينون الآلة الضخمة، يحاولون أن يخرجوا الأنبوب الذي قيل لنا إنه التوى داخل الحفرة، حاول العمال والمهندسون إخراجه لكن بلا فائدة، وبعد شهر نقلنا مرة أخرى.

مضينا في اتجاه الجنوب، تتقدمنا شاحنات الشركة، ونحن نمضي خلفها تلفحنا الرياح الرملية الحارة. في البداية ظننت أننا عائدون إلى الدقم إلا أننا كنا نمشي في طريق مستقيم يوازي البحر، وبعد حوالي نصف نهار توقفنا في مكان ما في الصحراء، منبسط ومكشوف للريح. وعندما وصلنا، هبطنا والرمل يكسونا فصرنا ننفضه عن ثيابنا ووجوهنا، ثم قيل لنا إن اسم المكان هيما.

أُحضرت حفارة كبيرة كسابقاتها وركِّبت وبدأت الأرض تُدك، لكن الدك لم يستمر طويلًا، حتى ارتطم بتكوين ملحي، هكذا قالوا، وأنا لم أفهم ما الذي جلب الملح إلى الصحراء، هل كانت بحرًا، فراح الماء وصار الرمل على وجهها والملح في باطنها!؟

استيقظنا بعد أيام على ريح عاتية، حاولنا الاحتماء بالخيام فاقتلعتها، فاستترنا بالشاحنات، فصرنا نخاف أن تنقلب علينا ونطمر تحتها، ثم

مكتبة ياسمين

توقفت الريح فجأة كما بدأت، فقمنا نفحص الخراب الذي حدث وخيامنا التي طيرتها العاصفة.

أرسلت التعزيزات من الدقم، لكن بلا فائدة، فلا نفط هنا ولا حتى ماء، وبعد مدة من توقف الحفر أبلغنا بانتهاء مهمتنا في هيما وعدنا إلى الدقم، وهناك أمرنا بالتوجه إلى بيت الفلج، حتى تصدر إلينا أوامر جديدة. قام الجنود إلى خيامهم ليلملموها، ويحملوا ما لهم من حاجيات، كانوا فرحين وكنت خائفًا.

انطلقنا من فهود في الصباح التالي، وعند المساء وقفنا في عبري وبتنا فيها قبل أن نتوجه إلى البريمي ومنها إلى صحار حيث مكثنا ثلاثة أيام في انتظار شاحنات جديدة لتقلنا إلى بيت الفلج، الذي وصلناه بعد غروب اليوم الخامس، وهناك أبلغوني بأنني سرّحت من الجيش، ثم طُلب مني تسليم سلاحي فسلّمته.

كنت أعرف أن الكولونيل سيفعل ذلك، وأنا أستحق ما هو أكثر من هذا العقاب.

لكن كيف أرجع إلى مطرح، كيف سأمشي وسط أهلها وأنا أحمل وزر عبد الرحيم؟

كان خطأً؟ نعم كان خطأً، لكنه حدث.

ربما لن يعرف أحد بذلك، فلم توجه إليّ أي تهمة، لكن الجنود يعرفون، وسيتهامسون بذلك.

ما يطمئنني هو أنهم ليسوا من مطرح ولا حتى من مسقط. العشرة الذين التحقوا من بيت الفلج لم يتبقَ منهم أحد غيري، لكن الخبر سيصل لا محالة، إن لم يكن اليوم ففي الغد، هذا إن لم يسبقنا فعلًا.

من سيخبر العم حسن عن مقتل ابنه، من سيحمل الخبر إلى زوجته، أنا؟

مكتبة ياسمين

كيف أفعل ذلك، كيف أنظر إلى عينيه؟ هل سأكذب وأقول إنه قُتل في مواجهات الجيش ورجال الإمامة في نزوى؟ أم أقول إن البدو قتلوه؟

كريمة ثم عبد الرحيم، لماذا كُتب عليّ دومًا أن أحمل دم من أحب في عنقي؟

حملت متاعي ومشيت إلى بيتنا في كهبن، كان الوقت يقترب من المغيب والناس قد هجعت في بيوتها، فلم ألتقِ أحدًا أعرفه فيستوقفني ويسألني عن الحرب.

وصلت أمام بيتنا فوجدت الباب مغلقًا بقفل من الخارج، هل ذهبت أمي ونوران لزيارة أحد من الجيران، لكن الوقت يقترب من صلاة المغرب، وأمي ونوران لا تخرجان في هذا الوقت، فأين عساهما ذهبتا؟

اضطررت إلى حمل متاعي والتوجه إلى المسجد حتى أصلي، ثم أعود إلى بيتنا فربما تكون أمي ونوران قد عادتا حينذاك.

في طريقي التقيت بعض الرجال الذين أعرفهم، حيوني ووقفوا ليتحدثوا معي لكني لم أقف، بل أشرت إلى المسجد ليفهموا عجلتي، وأكملت طريقي.

صليت وما إن سلّم الإمام حتى حملت متاعي وخرجت متجنبًا سؤال الرجال وكلامهم، وعدت لأطرق باب البيت، فلم يجاوبني أحد، ثم قبل أن أستدير خبطت يد على كتفي. ارتمى في حضني وبكى فبكيت، وعندما تمالكت نفسي أمسكت وجهه بين كفيّ لأرى ما فعلت الدنيا بالصبي الذي تركته ابن سبع وغادرت إلى بو شهر.

فتح الباب فدخلت وراءه، وما إن تجاوزت العتبة حتى سألته عن أمي ونوران، فأمسك بيدي ولم

مكتبة ياسمين

ينطق بكلمة حتى أشعل السراج وأجلسني على الحصير، وأخبرني عن زواج نوران بسالم نصير، الذي كان يعودهما في غيابنا. صمت دقائق وقبل أن أسأله عن أمي، أخبرني عن مرضها، عن عجزها عن الحركة، ثم عن موتها قبل شهرين.

تسارعت الأحداث كما يرويها عاكف، ما كان يؤلمني خبر حتى يؤلمني الخبر الذي يليه أكثر، وعند نهاية الكلام هجست بجسمي كأنه صار قربة خرقها الرصاص.

لقد كبر أخي، صار رجلًا، يتاجر في السجاد بين تبريز وأصفهان وشيراز ومشهد وجيلان وكابول، سألته إن كان قد وجد أصولنا فضحك: «حسب الناس ونسبهم الذهب اللي في جيبوهم»، ثم أخبرني بأنه التقى أولاد عمٍّ لنا في تبريز وأصفهان.

كان يغيب طوال النهار في السوق، وكنت أبقى في البيت لا أخرج منه حتى للصلاة، لكنه عاد ذات ليلة بطعام العشاء وأحضر معه سالم نصير فدخلت نوران وطفلها في إثره، قبلت نوران كفي ثم حملت طفلها وأرادت أن تناولني إياه وعندما استدار خائفًا نحوها قالت له: «هذا خالك... خالك نظام»، لكنه ظل يبكي خوفًا فحملته وابتعدت.

جلست نوران معنا بعد أن نام طفلها، فصرت أسترق النظر إلى وجه أختي الذي لم أره منذ سنين، لقد تزوجت وأنجبت ثم رعت أمي وبكتها في غيابي، لقد كبرت نوران وصار صديقي صهري.

سألني سالم نصير عن عبد الرحيم فأخبرته بأنه قُتل في الحرب ولم أزد، كان الكرب واضحًا على وجهي فلم يُكثر من السؤال، لكن عاكف سألني ليلتها فأخبرته عن هجوم البدو وأريته الجرح في بطني، ثم أخبرته عن عبد الرحيم، وبكيت.

مكتبة ياسمين

عنفني، أخي الصغير عنفني ليلتها، وقال إني أحمّل نفسي ذنبًا لست صاحبه، وإن الناس ستتكلم وستتقوّل عليّ وتتهمني بما فعلت وبما لم أفعل، ثم سألني من أين سنأكل يا أخي إن بقيت محبوسًا بين هذه الجدران؟

بعد أيام ذهبنا لتعزية العم حسن وأخبرته عمّا حدث تلك الليلة، مُغفلًا أنها كانت رصاصتي التي أصابت ابنه، لا أعرف إن كان عمي حسن فخورًا بابنه أم حزينًا على موته، لكن وهو يودعنا عند الباب أبرز لي الوسام الذي تلقاه عبد الرحيم عن خدمته وسالت دموعه.

اقترحت على عاكف أن نذهب إلى البحر، حيث تخففنا من ثيابنا وسبحنا حتى وصلنا مقابل غربق، وهناك رأيت البرج الذي كنا نقفز من عنده، خيّل إليّ أني ألمح عبد الرحيم يريد القفز فلوحت له وكأني أريد أن أنبهه.

عندما جلسنا نجفف أنفسنا أخبرني عاكف بأن له زوجة وولدًا في تبريز وأنه سيركب البحر قبل أن يكتمل الشهر، وعرض عليّ أن أرافقه، فلم أجبه، بماذا أجيبه وأنا الذي حلفت بعد عودتي من بوشهر ألا أخرج من مطرح أبدًا.

شاغلني عرضه، وبقيت أيامًا أفكر فيه وفي الذي ما زال يربطني بهذه البلاد، لا أم ولا أب ولا زوجة ولا ذرية ولا شغل لي هنا، لكن هل لو أني رحلت إلى تبريز نسيت عبد الرحيم وكريمة أم سأحملهما معي؟ هل سيشفيني البعد أم سيحرقني؟

بعد يومين خرجت بعد صلاة الفجر صوب البحر، وهناك بقيت جالسًا حتى ارتفعت الشمس، فقمت وتوجهت إلى حارة الشمال، لكن قبل أن أصل إلى بيت مريم دلشاد سألت نفسي عمّا أريده منها، فلم

مكتبة ياسمين

أجد إجابة، كررت على نفسي السؤال، وعندما لم أجد في قلبي جوابًا حاضرًا عدت إلى كهبن وأخبرت عاكف بأني سأسافر معه.

مكتبة ياسمين

بعد عودته من إجازة رأس السنة طلبني وليم سكوت في مكتبه، رحب بي وناولني علبة بسكويت حمراء أحضرها هدية لي من لندن، ثم طلب مني الجلوس ومال بجسمه النحيل على الطاولة التي تفصلنا وناولني ورقة وطلب مني التوقيع عليها. كنت أعرف قراءة الإنجليزية بالطبع، لكن اللغة التي كتبت بها تلك الوثيقة كانت معقدة، فلم أفهم الكثير مما جاء فيها، فاعتذرت إليه وقلت إني لا أستطيع التوقيع على ورقة لا أفهم ما جاء فيها، ورجوته أن يشرح المطلوب مني.

ابتسم السيد سكوت، وأخبرني بأني برفضي التوقيع على ما أفهم نجحت في اختبار التأهل للترقية، وأني بذلك أهلت للحصول على وظيفة في مكتب الشركة في مسقط، وظيفة تحتاج الانتباه الكامل. ما همني وصف الوظيفة قدر ما فرحت بأني سأعود إلى بلادي، لكن السيد سكوت أضاف بعد قليل بأني سأحتاج إلى دورة في اللغة الإنجليزية لمدة عام في لندن، وأن الدورة ستبدأ بعد الصيف مباشرة.

خرجت من عنده ورأسي قد دوخه الفرح، تأخرت في العودة إلى البيت ذلك المساء، وبقيت في المكتب أحاول أن أضع حسبة بسيطة لتكاليف السفر وما نحتاج إلى أن نأخذه معنا وما الذي سنتركه وراءنا ليتصرف فيه العم عبدالله، كنت أعرف أن فريدة ستفرح بعودتها إلى أمها، لكني ما كنت متأكدًا من فرحها فيما يخص ابتعاثي إلى لندن.

عندما أخبرتها فاق فرحها حزنها حتى إنها لم تستطع مداراته وعندما رأت شيئًا من العتب في

مكتبة ياسمين

عيني ابتسمت، ثم قالت وكأنها الطفلة التي كنت ألعب معها على سطح بيت لوماه «اشتقت أمي».

ما حملنا معنا من الدوحة إلا ثيابنا، ومولد كهرباء يعمل بالديزل وأسلاك تمديد ومصابيح وراديو.

غادرنا مثلما جئنا من ميناء مسيعيد، لكني هذه المرة كنت أحمل قيسًا بينما تحمل فريدة ليلى ويحمل العتالون صناديق السفر والراديو ومولد الكهرباء.

طوال رحلتنا في البحر لم تتذمر فريدة من حركة قيس وليلى وشقاوتهما، وعندما يتعبان من ضيق القمرة وتود فريدة أن ترتاح كنت آخذهما إلى سطح السفينة، وعلى السطح كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا فلا يفلتان يدي، وإن حاولا التملص حملتهما معًا، كلًّا على ذراع.

رأينا النوارس تهبط مسرعة على سِرب سردين حذاء السفينة، فصرت أسمي لهما الأسماك التي تسبح في بطن البحر ولا يراها أحد. أخبرتهما عن أسراب الصيمة والعومة، عن الكنعد والصافي والقوران والخطام والعندق والقشران والضو. لا أعرف إن كانا قد قبضا على أي اسم منها، غير أني وأنا أعلمهما أسماء الأسماك شعرت بأني أستعيد طعم البلاد.

متحمسًا كنت مثل فريدة، وكنت مثلها أشتاق مريم، وأريد أن يكبر طفلاي في البلاد التي كبرت فيها وتعلمت فيها وعشقت فيها، لكني كنت قلقًا أيضًا، فحتى الآن لم يجدوا النفط في أي بئر حفروها، وصحيح أنهم سيبدؤون في استخدام أدوات استكشاف جديدة كانوا قد تحدثوا عنها في أول اجتماع بعد أن تملكت شركة شل نسبة الأغلبية المطلقة في الشركة، إلا أنهم أجمعوا أيضًا على

مكتبة ياسمين

أن نسبة النجاح ما زالت ضئيلة، وأن كل بئر جافة جديدة ترهق ميزانية الشركة أكثر.

عندما اقتربت الباخرة من مسقط، صعدنا والطفلين إلى السطح، أردنا أن نسمي لهما أسماء الأماكن التي نمر عليها، أن يعرفا مسقط قبل أن يهبطا فيها.

رأينا من بعيد لمعة مخازن البترول المستورد من مصفاة عبدان في ريام، فأخبرتهما قصة الحصينيات التي تنام في مغاور الجبل الذي وراءها، عن سرعتها وضباحها، همست فريدة في أذن ليلى:

«العو عو»، فكركرت الصغيرة وتبعها أخوها.

مررنا بعد ريام على دوحة الكثيريين ثم كلبوه ثم تجاوزنا الصيرة الغربية ودخلنا المرفأ، حينها رفعت فريدة إصبعها وأشارت إلى البلاد: «مسقط».

مكتبة ياسمين

فريدة

لا أعرف لم بدا الزمن في الباخرة ونحن نبحر من الدوحة إلى مسقط أبطأ من ذلك الذي أمضيناه من مسقط إلى الدوحة قبل أربع سنين، هل ضاعف الشوق الزمن، أم أنه أصبح لا يطاق بعد أن قرب بلوغ المنى.

في البداية أصيب الطفلين بالغثيان وصرت أقضي جل وقتي في تنظيفهما وتنظيف ثيابهما والمكان، بعدها أصبحا نكدين لا يطيقان مساحة قمرتنا الضيقة، يبكيان طوال الوقت، وتتعلق ليلى بذيل أبيها كلما رأته يريد أن يخرج إلى السطح، أما قيس فيحاول طوال الوقت أن يبلغ الكوة ليرى البحر.

ساعدني ناصر في العناية بهما، لكن مراعاتهما في حاجة إلى ثمانية أذرع لا أربع، يملآن القمرة بالصخب وعندما ينامان ويحل الهدوء ينظر إليّ ناصر نظرة صامتة، لا أعرف إن كان يستفسر عن حالي أم يحاول قياس لهفتي على البلاد وأمي، أم أنه يحاول أن يخفف عني التعب أم أنه يحاول شيئًا آخر.

كنت أتقلب في الساعة ألف مرة بين فرح وخوف ولهفة على أمي وعلى مسقط وبيتنا في حارة الشمال، أتحرق إلى الخلوة بها وإخبارها بكل ما حدث وبكل خاطرة وهاجس راودني وأنا في الغربة، سأقول لها إني ما وجدت في الغربة علمًا، وقد ضاق عالمي فلم أخرج من بيتي إلى أبعد من بيت أم سالم، ومرات قليلة إلى البحر مع ناصر.

سأخبرها بأن الطفلين لم يقدرا على توسعة دنياي كما كنت آمل بل ضيقاها أكثر، وسأعاتبها، سأعاتبها طويلًا على سماحها لي بالسفر بعيدًا عنها وعن عدم لحاقها بي، ثم سأنسى، سأنسى كل ذلك، عندما

مكتبة ياسمين

تلقمني في حضنها أو أسمع صوتها وهي تضع قيس وليلى في حضنها وتغني لهما:

ليلو ليلالو ليلو ليل

ليلو ننولا هوردينا

لكني أظنهما قد كبرا على ذلك.

عندما أخبرني ناصر بأننا سنعود إلى مسقط، لم أسأله لماذا، بل متى؟ إلا أنه استمر في حديثه وكأنه ما سمع سؤالي، وأكمل يخبرني بأن مديره أبلغه بحصوله على بعثة وسيسافر إلى إنجلترا مدة سنة ليتعلم لغة الإنجليز رغم أنه يعرفها.

عشنا في الدوحة أربع سنوات، ما حدثت ناصر فيهما ولا مرة واحدة عن شوقي لأمي، لكنه كان يعرف، فهو بنفسه يشتاق مريم دلشاد، من لا يشتاق مريم! كان يقول، مريم وحدها التي تستطيع أن تحوي الناس تحت ظلها ولا تشكو ولا تضجر، وكلما ازداد العدد امتد ظلها أكثر.

أعرف أني كنت عنيدة، عاندت شوقي وحاجتي إليها وربما أردت أن أعاقبها على تفريطها فيّ، لكنها كانت على حق، لا بد للبنت أن تتزوج ويصبح لها أطفال.

عندما اقتربنا من فرضة مسقط، أخذنا ناصر إلى السطح هو يحمل ليلى وكفي تقبض على كف قيس، تلمع مسقط تحت الشمس، نعم، لا بحر مثل بحرها، ولا هواء مثل هوائها، أقول لناصر فيمازحني: «عين المحب عمياء»، لكن عيني ليست عمياء وأعرف أن هذه البلاد تحب أن تلاعبنا، فترخي الحبل لنا تارة وتشده تارة لكنها لا تفلتنا.

في خيالي رأيت أمي وهي تفتح الباب وتشهق وتأخذني في حضنها، رأيتني أقبل كفيها وخديها

مكتبة ياسمين

وراسها، وأعود لأبقى في حضنها، رأيتها بعد ذلك تنتبه للصغيرين فتأخذهما إلى حضنها ولا تفلتهما أبدًا.

بتنا ليلتنا مجهدين في ميابين، وفي الصباح استأجرنا هوريًا إلى مطرح، أحب قيس الهوري، رأى الماء قريبًا، وحاول أن يجرب كيف يصبح سمكة، لولا أن أباه قيده في حضنه، أما ليلى فداخت ونامت في حضني حتى وصلنا.

كنا قد أرسلنا برقية إلى أمي أخبرناها فيها عن عودتنا، فتوقعنا أنها لا بد وصلتها وأنها تنتظرنا، لكن عندما طرقنا الباب لم يجاوبنا أحد، وضعت أذني على الباب وأصخت السمع لكن لم أسمع حسًا لأحد في البيت.

ربما أمي في السوق لكن أين فاطمة؟ هل عادت لتسكن مع حسن وتركت أمي وحدها؟ أو ربما خرجت مع أمي لأمر ما وستعودان.

طرق ناصر باب بيت جارنا لكن قبل أن يرد عليه أحد، سمعت صوت أقدام تقترب من الباب، ثم توقفت الخطوة عند الباب، أردت أن أرفع يدي فأطرق الباب، لكني عوض ذلك التصقت بالباب وهمست:

«ماه... أنا فريدة.. فتحي».

ما عرفت هل صرت أنا داخل البيت أم صارت أمي خارجه، إذ أصبح المكان كله حضن أمي، وأصبح نشيجها صوت بحر يأتي من مكان لا قرار له.

مكتبة ياسمين

مريم دلشاد

لولا تلك البرقية التي أنبأتني بقرب عودة فريدة ما كنت طقت البقاء في مطرح، لكن إلى أين عساني أذهب؟ أأعود إلى لوغان أم ولجات؟ وكيف أعود إلى ولجات ولا بيت لي فيها، وكيف أذهب إلى لوغان من دون أبي؟ وهل يقبل ناسها مريم التي صارت من ولجات أكثر من لوغان، وإن حملت اسم دلشاد في طرف اسمها؟

لم تقل البرقية أكثر من أنهم سيصلون قريبًا، سألت ماستر علي ما معنى قريبًا؟ فقال ربما شهر أو اثنين، أهذا هو القرب، ستون يومًا فوق ما مر من سنين.

بقيت على حالي أذهب إلى السوق فأجلس في دكاني أكثر الصباح، ونادرًا ما كنت أحمل صرتي وأذهب إلى سيدات البيوت الميسورة، لم تغد نساء حارة الشمال والشجيعية وجبروه تأتي لزيارتي إلا لحاجة، وما عاد قلبي يفتح إن لاقيتهن في الأزقة صدفة.

صرت أغلق باب بيتي عليّ أكثر الوقت، وإن أردت أن أتسلى عند العصر صعدت السطح وراقبت البحر الذي سيعيد إليّ فريدة، أغمض عيني فأراها وعيالها تركب عبارة مع المسافرين، وأراني أقف عند الفرضة، أنتظرها وماء البحر في عيني.

أصابتني الحمى، لا أعرف إن كان الشوق أو انصراف قلبي عن مطرح ما أضعفني، لكني في المدة الأخيرة ما عدت أشتهي الطعام، ويندر أن أضع قدرًا على الموقد، وعندما جاءت الحمى وجدتني لا أقوى عليها لا بالطعام ولا بالفرح.

بقيت في فراشي أيامًا، أتقلب بين برد ينفضني وسخونة أشعر بها كحديد سيارة حمدون هندل

مكتبة ياسمين

تحرق جلدي وتسري في جسدي فتشعله. شعرت بظهري ينفلق، وأصبحت قدماي خرقتين لا تقويان على حملي. ناديت أبي في نومي، وفي صحوي ناديت فريدة وفاطمة، وما سمعت غير الجدران وهي تجاوب الأنين بالأنين، ثم خفت الحمى، فاستيقظت بعد يومين وقد عرقت عرقًا شديدًا وكأني غطست في حوض، فقمت وصنعت لنفسي لقمة من بقايا خبز بائت، شربت عليها كوبًا من الشاهي، وعدت إلى صفتي مثقلة.

بعد الضحى بقليل سمعت طرقًا على الباب، في البداية ظننت أنه ما تبقى من هذيان الحمى فوليت ظهري للباب، لكن الطرقات توالت، فتساءلت من عساه يعود مريمَ ويطمئن على حالها؟

جررت قدمي، والمسافة بين باب صفتي وباب البيت وكأنها ما بين مسقط ومطرح، ثم توقف الطرق فتوقفت وأردت أن أعود إلى فراشي، فعاد الطرق وعدت أسحب قدمي تجاه الباب، وصلت عند الباب فوضعت رأسي على خشبه لأستريح، فسمعت الباب ينطق «ماه... أنا فريدة».

ما عاد لي رزق في مطرح، وضعت بضاعتي على ظهور حمير ود الحص وعدت مع فريدة وناصر إلى ميابين، واكتريت دكانًا قريبًا من حيث كان دكان عبد اللطيف قبل أن يأخذه البانيان، جعلت فيه بائعًا اسمه سعود بن علي من أهل التكية، شهد علي إلياس على شطارته في مسك الدفاتر، وشهد ربح الدكان على نباهته في البيع.

لكني بقيت أذهب مرة في اليوم، أفتح دفتر الحساب وأعد البضاعة، قلت لفريدة عندما سألتني إن كان سعود لا يعرف أني لا أعرف الحساب أم أنه يتغاضى «المهم أنه يعرف أن عيني منتبهة للزايد

مكتبة ياسمين

والناقص».

وأنا أفحص القماش الجديد الوارد إلى الدكان، أعجبتني طاقة من قماش سماوي رهيف مثل قشرة البصل، فذرعت منه ما يكفي لثوبين واحد لفريدة وآخر لليلى، حزمتها في صرة وخرجت من دكاني إلى مجرى السوق.

لم أعرف اسم القماش ولم أعرف إن كان سيحتمل اللبس والكد أم سيتمزع من اللبسة الأولى، لكنه أعجبني. ثم وأنا ساهمة أفكر في زهوة اللون السماوي على فريدة اصطدم بي مجنون من مجانين السوق فأوقعني وأوقع صرتي، ثم ركض فركض الرجال خلفه، فقمت ونفضت عباءتي وسويت غشوتي على وجهي وحملت صرتي ومشيت إلى ميابين.

في طريقي إلى البيت لمحت ذلك المجنون مرة أو مرتين يجر قدميه بين البيوت ثم اختفى. فشعرت بخوف ما لبث أن تحول شفقة.

ما إن دخلت صفة فريدة حتى فردت القماش بحرص على فراشها، فمسدته «واجد رهيف...أخاف يطيره الهوا».

التقط قيس طرف الكلام فصار يريد أن يصنع من القماش طيارة مثل تلك التي اشتراها له أبوه فيطيرها أعلى الجبل لتصل إلى الشمس، أما ليلى فغافلتنا والتقطت طرف القماش وسحبته وصارت تدور داخله وتلتف حتى غلفها القماش طية وراء طية، ثم ابتدأت في البكاء.

قمنا نفك القماش الذي تعقد حولها، ثم جلسنا لنفحصه وقد تمزع قبل أن نعمل فيه المقص.

تبادلت وفريدة نظرة أسى، ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة لم نستطيع كتمها، جفل الصغار قليلا، ثم

مكتبة ياسمين

صارا يتقلبان على الأرض ويضحكان مثلنا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مرت شهور كثيرة وشنون يذوي في ثيابه، حتى ما عاد إلا خرقة تحت خرقة، قلنا ربما نسوه فنجا، فقد سمعنا من العسكر أنهم لم يجدوا من يأخذ بالقصاص، ثم بعد سنتين أو ربما ثلاث، قيل لنا إن الجيش صار يحكم القلعة بدل الشرطة، وسمعنا أن ضابط جند القلعة ينوي تنظيف السجن ففرحنا، لكنا ما فهمنا كيف سينظف السجن.

قال شيروك إنهم سيجلبون الماء في دلاء وسيجعلوننا نفرك أرض السجن وجدرانه حتى ينظف من قذارتنا، ثم سنغسل فرشنا ونغتسل، وربما أحضروا لنا مُحَسِّنًا يقصّ شعورنا ولحانا التي وصلت إلى سررِنا.

أعجبنا رأي شيروك، بل وأصر لكيه أن يكون هو أول من يجلس للمحسن فغضب شيروك وتسابّا وبقيا مدة ينظر كل واحد إلى وجه الآخر بحقد، لكن الأيام مرت ولم يؤت بالمحسّن فتصالح شيروك ولكيه، ولم يحضر أحد الدلاء ولا الماء فبقينا على قذارتنا.

لا أعرف ما الذي جال في خاطر شنون وهو يغادرنا ويُقاد إلى زنزانة لا يشاركه فيها أحد. كنا وقوفا لحظتها، مصطفين وظهورنا إلى الجدران، وكلنا رأينا النظرة في عينيه وهو يلتفت لآخر مرة ناحيتنا.

فجر اليوم التالي استيقظنا على قرقعة السلاسل والأقفال، وسمعنا الضابط يأمر الجندي فيفتح الباب، سمعنا صراخ شنون «أنا ما قتلتها.. أحلف بالله ما تعمدت أقتلها».

قال الرجال إنهم سيأخذونه إلى قلعة الميراني،

مكتبة ياسمين

وهناك سينفذون القصاص وإن لم يجدوا من يأخذه.

بعد ساعة أو ساعتين سمعنا صوت الرصاص، رصاصتين، شعرت بهما تخترقان صدري وتستقران فيه، ورأيتني مكان شنون، ظهري للبحر ووجهي للبنادق، رأيتني أموت في مكاني لكني لم أمت، بقيت مصلوبًا على الجدار حينًا، وعندما نظرت حولي وجدت الرجال قد افترشوا الأرض، توسدوا أذرعتهم، وقد أداروا ظهور بعضهم لبعض.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة عاد الضابط لزيارة الزنازين، ثم صارت الأبواب تفتح وتغلق كل صباح، لكننا لم نعد نسمع الرصاص. أخذ عدد الرجال في السجن ينقص يومًا بعد يوم، ثم فهمنا من الجند أن الضابط راجع دفتر السجن، وأنه وجد أن كثيرين قد نُسوا داخله. خطر لي أنهم ربما كانوا مثلي نَسوا أسماءهم أو حساب أيامهم في السجن فنُسوا.

خرج شيروك ولكيه والآخرون فبقيت وحدي، وعندما جاء الضابط ذات صباح سألني عن اسمي، فقلت لا أعرف، نظر إلى دفتره، ثم قلب عينيه في عيون السجانين: «هذا الرجل ما مقيد في الدفاتر، ولا له تهمة، من كم سنة هو في السجن؟».

لم يجبه أحد.

بعد أسبوع جاء جندي وفتح الباب، ثم انحنى وخلع عني الأغلال واقتادني في الممر الطويل «ما حد بقى غيرك وكم واحد من الشيوخ، لكن باكر بيجيبوا غيركم، السجن ما يخلى مدة طويلة». ثم فتح بابًا يفضي إلى ساحة صغيرة اصطف الجند على جانبيها، ترددت قليلا فجرني الجندي بذراعي حتى أوقفني أمام بوابة كبيرة ما لبثت أن فتحت ثم أغلقت خلفي.

وجدت نفسي أقف أعلى السلم، والدرجات تحتي

مكتبة ياسمين

تصل إلى الأرض، عددت تسعًا وتسعين سلمة وأنا أهبط كما عدها ساعد بن مسعود ونحن نصعد، ورغم أن قدمي لم تعودا في القيد فإني شعرت بنفس الألم، وكأن حديد الأغلال ما زال يحتك بلحمي.

وصلت أسفل الجبل ولم أعرف أين أذهب، توجهت نحو البحر ثم قررت أن أدخله، علّ الملح يداوي جلدي الذي تهتك في الحبس. دخلته ماشيًا على الحصى الذي جرح قدمي، شعرت بلذعة الملح على جلدي، غطست رأسي فأحرق الملح عيني، أغمضتهما وأخرجت رأسي من الماء، ثم تركت جسدي للماء فطفا جذعي.

حملني الماء على صفحته برهة فأغمضت عيني، كنت أحلم بأني مركب مربوط، موجة تأخذني وأخرى تردني، حتى تفلّت الحبل، وأنا أفكر في ذلك اضطربت حركتي فسحبني الماء، ودخل الملح إلى جوفي، وكاد الهواء يفر من صدري، لكن قدمي وجدتا القاع القريب فوقفتا عليه، وخرجت من البحر وأنا ألعنه.

انتصبت تحت الشمس لتجف ثيابي، لكن الناس اقتربوا مني ووقفوا يتفحصونني، خرقي، لحيتي، شعر حاجبي اللذين تهدلا على عيني، جفلت فجفلوا وتفرقوا.

صرت أخب في سيري وأنا أقطر ماء وملحًا ولا أعرف إلى أين أسير، دخلت مسرعًا إلى سكة، فوجدت دكاكين تقابل دكاكين، ناسًا تشتري وأخرى تبيع، فاختلط صوت المجادلة والمناداة وزعيق العتالين في رأسي، فلم أنتبه إلى المرأة التي خرجت من سكة إلى مجرى السوق فاصطدمت بها وأوقعتها وما كانت تحمله، خفت أن يأتي الجند

مكتبة ياسمين

فيأخذوني إلى القلعة، فركضت مبتعدًا وخلفي ركض رجل كان يقف ساعتها عند أحد الدكاكين، ثم تلفت فرأيت رجلًا آخر يركض خلف الرجل الذي يركض ورائي، ثم تزايد عدد الرجال الذين يركضون فركضت أكثر، كانت قدماي واهنتين من قلة الحركة في السجن، وما عدت أستطيع استرجاع نفسي الذي صار يفر من صدري ولا يرجع.

شعرت بوهن عظيم في كل جسمي حتى كدت أقف، أبطأت خطواتي، ثم ما عدت أسمع أصوات أقدامهم الراكضة خلفي، ووجدت نفسي أجر قدميّ عبر الباب الصغير آخر السوق.

تركت الجلالي، والبحر والسوق والسور والخندق ورائي، وصرت أمشي في أرض براح، لا بيوت فيها ولا جدران، لا أبواب ولا بوابات، حتى لقيت دربًا على يميني فأخذته.

سألت طفلًا خرج من أحد الأزقة، أين أنا؟ فقال هذه ميابين ثم اختفى.

شعر بألم في صدري، لكنني واصلت المشي بين البيوت حتى قاربت الجبل، ثقلت خطوتي فصرت أجرها حتى وصلت عند المقبرة، كانت المقبرة عن يميني وعن يساري البيوت والعشش.

وقفت، أردت أن أطرق أحد الأبواب وأطلب جرعة ماء لكني ترددت، ثم زاد وجع صدري فجلست عند العتبة أستريح.

أسندت رأسي إلى الباب وما إن أغمضت عيني حتى سمعت صوت ضحكة تتعالى، ضحكة تأتي من مكان ما، مكان قريب كأنه أمامي أو ربما خلفي، ضحكة تتبعها ضحكة أخرى فأخرى، أردت أن ألحق بها، بالضحكات، وحاولت أن أفتح عيني لكني لم أستطع.

مكتبة ياسمين